

تفسير جزء عم

معالي الشيخ
أ. د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز أبو حبيب الشثري

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

تفسير جزء عم

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشثري، سعد بن ناصر بن عبد العزيز

تفسير جزء عم /سعد بن ناصر الشثري.- الرياض ١٤٣٨هـ.

٤١٠ ص؛ ١٧× ٢٤سم.

ردمك: ٥-٥٥-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٦ ١٤٣٨/٦٥٩٥

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٦٥٩٥

ردمك: ٥-٥٥-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

ص ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ ٩٦٦١١ +

٤٩٦٨٩٩٤ ٩٦٦١١ +

فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣ ٩٦٦١١ +



Dar Kounouz Eshbelia

For Publishing & Distribution

Kingdom of Saudia Arabia

P.O. Box 27261 Riyadh 11417

Tel.: +96611 4914776

+96611 4968994

Fax.: +966114453203

E-mail: eshbelia@hotmail.com



تفسير جزء عم

معالي الشيخ

أ. د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز أبو حبيب الشثري

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَحْمَدُهُ على نِعَمِهِ وَنَشْكُرُهُ وَنُثْنِي عليه، وأشهدُ أن لا إلـهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، الألوهيةُ حَقٌّ خالصٌ له سُبْحَانَهُ، والعبادةُ مِنْ حَقِّهِ لا يجوزُ صَرْفُهَا لأحدٍ سواه، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورسولُه، نُحِبُّهُ محبةً أَعْظَمَ من محبتنا لأنفسنا وَوَالِدِينَا وَأَوْلاَدِنَا والناسِ أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله وأصحابِه وأتباعِه وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعدُ:

فَأَسْأَلُ اللهَ جل وعلا أن يباركَ لنا ولكم في جميع الأمور، وأن يجعلَكم مِمَّنْ وُفِّقَ إلى أنواعِ الطاعاتِ، وأن يجعلَ أعمالَكم خالصةً لوجهِهِ الكريمِ، وأن يَجْعَلَكُمْ مِمَّنْ اهتدى بهدي الكتاب والسنة، وبعد:

فبإذنِ اللهِ جَلَّ وَعَلاَ أشرع في تفسير كتاب الله عز وجل وابتدئ بتفسير جزءِ (عَمَّ) ونأخذُ شيئًا من المعاني التي احْتَوَى عليها هذا الكتابُ العظيمُ.

والقرآنُ الكريمُ كتابٌ عظيمٌ، إذ هو كلامُ رَبِّ العزةِ والجلالِ كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقد وَصَفَ اللهُ تعالى كتابَه بأنه الْهُدَى والنورُ وأنه العصمةُ لِمَنِ اعْتَصَمَ به، وأنه سببُ رِضَا رَبِّ العزةِ والجلالِ، وهو سببُ رفعةِ المؤمن وبركةِ العبدِ في دنياهُ وآخرتِه.

قال تعالى: ﴿الم ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ -٢] فهو بعيدٌ

عن الشكِّ وهو متضمنٌ للهُدَى، وقال جل وعلا في كتابه العزيز مُبَيِّنًا: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ومن ثم فالأمة في أشد الحاجة لمعرفة معاني كتاب الله والعمل بأحكامه والسير على هدايته، ومن فضل الله عز وجل أن يسر لي أن أفسر كتاب الله في بيت الله الحرام بدءً من عام ١٤٢٦هـ، وقد قامت رئاسة شؤون المسجد الحرام بتسجيل هذا التفسير، وقد تم تفريغه، وعرضه عليَّ فقرأته وراجعته.

ثم إني رغبت أن يُنتفع به لسهوله ألفاظه ولتطبيقه على عدد من الوقائع المعاصرة، ولما فيه من جمل مواعظ لعلها تعيد القلوب إلى الله.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سورة النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ
٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ
أَزْوَٰجًا ٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ
مَعَاشًا ١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ١٣ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ١٦ إِنَّ
يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨ وَفُتِحَتِ
ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ
مِرْصَادًا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا
شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا ٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ٢٩
فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ٣٢
وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ
عَطَآءً حِسَابًا ٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا
٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ
صَوَابًا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ٤٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ....

موضوع السورة:

هذه السورةُ؛ هي سورةُ النبأِ وَيُسَمِّيهَا بعضُهم سورةَ (عَمَّ)، وهي سورةٌ مكيةٌ أربعونَ آيةً نَزَلَتْ في مكةَ مِنْ أَجْلِ تقريرِ مَبْدَأِ المَعَادِ، وأن العبادَ سَيُبْعَثُونَ بعدَ مماتهم وَيُجَازَوْنَ وَيُحَاسَبُونَ على أعمالهم.

المعاني:

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ جمهورُ أهلِ العلم قالوا: المرادُ بالآيةِ: عَنْ أي: شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ؟[1]، أي: ما هو الموضوع الذي يكثر السؤال عنه فيما بينهم.

وقوله: ﴿عَمَّ﴾ يعني: عن أي: شيء، ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: : يَسْأَلُ بعضُهم بعضًا؛ لأنَّ الفعلَ إذا كان على وزنِ تَفَاعَلَ دَلَّ على المشاركةِ، فبعضُهم يسألُ بعضَهم الآخَرَ.

ثم قال: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾: أي: الخبر الهائل المفزع الفظيع.

هذا هو الجوابِ عن السؤالِ الأولِ، وبالتالي قالوا بأن السؤالَ هنا على جهةِ الإنكارِ عليهم أو على جهةِ التفنيدِ لحالهم، كأنه أرادَ أن يَفْهَمَ الناسُ أحوالَ هؤلاء القومِ فأتى بصيغةِ السؤالِ والجوابِ مِنْ أَجْلِ أن يكونَ ذلك أَدْعَى لِفَهْمِ حالهم، وأنهم مضطربون لم يَسِيرُوا على طريقةٍ واحدةٍ.

---

(١) تفسير الطبري (١٤٩/٢٤) تفسير البغوي (١٩٩/٥).

والنبأُ العظيمُ: جمهورُ أهلِ العلمِ قالوا بأن المرادَ به البعثُ والجزاءُ.

وقال طائفةٌ: المرادُ به محمدٌ ﷺ ورسالتُه.

وقال آخرون: المرادُ بذلك التوحيدُ بإفرادِ اللهِ عز وجل بالعبادةِ.

وقال آخرون: المرادُ به الشرعُ.

وقال آخرون: المرادُ به الْقُرْآنُ الكَرِيمُ.

ولا يمتنعُ أن يكون الجميعُ مرادًا؛ فيكونُ قولُه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ يشملُ هذه الأمورَ؛ لأن هذه الأمورَ مرتبطةٌ، فالنبيُّ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عليه الكتابُ وَأُرْسِلَ ﷺ بالتوحيدِ وإفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وهو ﷺ قد دعا الناسَ إلى الإيمانِ بالجزاءِ والحسابِ في يومِ المعادِ، فتكونُ هذه الأمورُ كُلُّهَا مُرَادَةً بهذه الآيةِ.

وقال طائفة بأن قولَه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ أي: أن الله عز وجل يُنْكِرُ عليهم سؤالَهم فيما بَيْنَهُمْ على جهةِ التكذيبِ مع أنه خبرٌ عظيمٌ، يقول: كيف يتساءلون؟ فهم يتساءلون ماذا يقولون في محمد ﷺ؟ فطائفةٌ تقول: قُولُوا: هو ساحرٌ، وقال آخرون: قُولُوا: هو كاهنٌ، وقال آخرون: قُولُوا: هو شاعرٌ، فَكَأَنَّ اللهَ جل وعلا أتى بهذه الصيغةِ على جهةِ الإنكارِ عليهم، لماذا تختلفون وتضطربون فيما تصفون به هذا النبي، فَكُلُّ طائفةٍ تأتي بقولٍ كاذبٍ، فيكونُ على ذلك قولُه عز وجل: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ الضميرُ عائدٌ على أهلِ مكةَ من كفارِ قريشٍ الذين بُعِثَ فيهم

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ ....

النبيُّ ﷺ، ولا يمتنع أن يكونَ المرادُ بهذه الآيةِ جميعَ المُكَذِّبِينَ إلى يومِ القيامةِ فَهُمْ مُضْطَرِبُون في مَوْقِفِهِمْ من رسالةِ الإسلامِ وَمِنْ كِتَابِ الله عز وجل، لَيْسُوا على قولٍ يَثِقُونَ به بل هُمْ شَاكُّونَ في أقوالهم مضطربون فيم يَصِفُونَ به هذا الكتابَ العظيمَ، وهذا النبيَّ الكريمَ؛ ولذلك قال: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ قيل: اختلفوا فيه فآمن بعض وكفر آخرون.

والقول الأول بحصر ذلك في المشركين أولى؛ لأن المؤمنين يعلمون الآن ويجزمون.

ثم قال جل وعلا: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ هذا تهديدٌ من اللهِ عز وجل لهم؛ يقول: أنتم اليومَ على شَكٍّ وعدمِ يقينٍ، لكنكم إذا جاء يوم القيامة فستكونون مؤمنين مُتَيَقِّنِينَ بأن ما في الكتابِ صحيحٌ وأنه صدق كُلُّهُ؛ ولكن الإيمانَ واليقينَ في ذلك الوقتِ لا ينفعُكم؛ لأن ذلك اليومَ أصبحَ يومَ الجزاءِ وليس وقتَ عملٍ ولا وقتَ يقينٍ.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ تأكيدٌ للجملةِ الأُولَى كما قال طائفةٌ من أهلِ العلمِ، والجمهورُ قالوا: لها معنًى مستقلٌّ، فالأولُ من العلم سيكونُ في آخرِ حياتهم عندما يُعَاينُونَ مَلَكَ الموتِ، فإذا أتى مَلَكُ الموتِ إليهم عرفوا أنهم كاذبونَ في مقالتهم تجاهَ الإسلامِ وتجاهَ محمدٍ ﷺ وتجاهَ هذا الكتابِ العظيمِ.

أما إذا جاء يومُ القيامةِ فإنهم سيعلمون عِلْمًا يَقِينِيًّا أن تكذيبهم في الدنيا لم ينفعهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾ ....

ثم أقامَ اللهُ جل وعلا عددًا من الأدلةِ، كُلُّهَا تدُلُّ على صِدْقِ هذا الكتابِ، وصدقِ هذا الرسولِ ﷺ، وصدقِ دعواه بوجودِ البعثِ والجزاءِ، وصدقِ دعوته إلى إفرادِ الله بالعبادةِ، وعدمِ صرفِ العبادةِ لأحدٍ سواه.

الدليل الأول في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾: هنا استفهامٌ اسْتِعْلَامِيٌّ كأنه يقررُ ويبينُ لهم أن الله جل وعلا هو الذي جَعَلَ الأرضَ مهادًا، فالذي جعلَ الأرضَ مهادًا أليس هو المُسْتَحِقّ للعبادةِ؟! أليس هو القادر على بَعْثِكُمْ مرةً أخرى؟!، فإذا كان الإلهُ قد جعل هذه الأرضَ العظيمةَ بهذه الصفاتِ فليس بعاجزٍ أن يُعِيدَ حياتَكم وأن يبعثَكم فيجازيكم على أعمالكم.

والأرضُ هي هذا الكوكبُ الذي نعيش عليه، ويشملُ جميعَ اليابسةِ والماءَ؛ فإنه يقالُ لها أرضٌ عند جماهيرِ أهلِ التفسيرِ، وقال طائفةٌ: هذا خاصٌّ باليابسِ، وأما البحارُ فإنه لا يقالُ لها هذا الاسمُ (الأَرْض) واستدلوا عليه بقولِه تعالى في هذه الآية: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾ والبحرُ لا يستقرُّ الناسُ عليه.

وقوله: [مِهَادًا]: أي: فِرَاشًا كأنهم يفترشون الأرضَ فهي ممهدة للخلق يسيرون عليها لسكونها وقرارها وسهولتها، كما يقال لِمَا يُوضَعُ فيه الرضيعُ: المهادُ، كما ورد في المثل: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ» والمهدُ هنا يرادُ به تلك الْخِرَقُ التي يُلَفُّ بها الصَّبِيُّ الصغيرُ الرضيعُ لتكونَ فِرَاشًا له.

الدليل الثاني في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ يعني ألم نجعل الجبال وهي هذه الكائناتُ العظيمةُ التي نجدها في أطرافِ الأرضِ مرتفعةً عن بقيةِ الأرض، فهي صخور وحجارة كبيرة متراكمة عظيمة الارتفاع عن الأرض.

وقوله: [أَوْتَادًا]: الوتدُ هو ذلك الحديدُ أو الخشبُ الذي يُثَبَّتُ في الأرضِ أو الجدار فتُربَطُ به حبالُ الخيامِ أو غيرها من أَجْلِ أن تَثْبُتَ، فالجبالُ جَعَلَهَا اللهُ عز وجل في الأرضِ سَبَبًا من أسبابِ ثباتها واستقرارها وعدمِ رَوَغَانِهَا واضطرابها، ومن جعل الجبال كذلك قادر على بعث الأجساد بعد موتها.

الدليل الثالث في قوله جل وعلا: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾: أي: خلقناكم أيها الإنس والجنّ.

وقوله: [أَزْوَاجًا]: يعني أصنافًا مُتَعَدِّدِينَ سواءً في تفصيلكم إلى ذَكَرٍ وَأُنْثَى كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] وقد يُرَادُ بذلك تصريفَكم وتقسيمَكم بحسبِ أنواعكم، أو بحسبِ بلادكم، أو بحسبِ لغاتكم وألسنتكم، أو بحسبِ أعمالكم وَمِهَنِكُمْ أو بحسبِ علاقةِ بعضِكم مع بعضٍ، فهذا أبٌ وهذا ابنٌ وهذا أخٌ وهذا ابنُ عَمٍّ وهكذا، فهذا تصنيفٌ للناس.

وقيل: المرادُ بقوله تعالى: **[أَزْوَاجًا]:** أي: : أشكالاً مُتَمَاثِلَةً؛ لأن الزوجَ يقال له: فلان مُتَزَاوِجٌ مع فلانٍ يعني أي: أنه مِنْ أشكاله، ويُقَارِبُ

حَالُهُ مع حَالِهِ ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات : ٢٢] أي : : مَنْ كان مُشَاكِلاً لهم في الظلم ، احشروه مع الظَّلَمَةِ ، فالذي خلقكم أزواجاً قادر على بعثكم بعد موتكم.

وفي الآية امتنان من الله ونعمة بوجود الحياة الزوجية لما فيها من المودة والرحمة وسكون كل من الزوجين للآخر ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : ٢١] ، وما يرافق ذلك من لذة المنكح ، وما ينتج عنه من نعمة الذرية ، كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل : ٧٢].

الدليل الرابع في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ : النومُ خلاف اليقظة وهو الوقت الذي يَرْتَاحُ فيه الإنسانُ ، وقوله : **[سُبَاتًا]** ليس المرادُ به النومَ كما يفهمه بعضُ الناسِ ؛ إذ تكون الآيةُ لم تَأْتِ بِمَعْنًى جَدِيدٍ ، وإنما المرادُ بقوله **[سُبَاتًا]** : أي : راحةً لأبدانكم ، وقيل بأن المرادَ بالآيةِ أن النومَ يقطعُ الإنسانَ عن أعمالِه الأخرى ، فيكونُ ذلك سببًا من أسبابِ راحتِه واستقرارِ نفسِه ، فالذي قدَّر النوم واليقظة وجعل النوم راحة للبدن قادر على البعث والجزاء.

الدليل الخامس في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ : أي : أن الله جل وعلا قد جَعَلَ هذا الليلَ مُسْتَتِرًا لا يُرَى ما وراءَه ؛ لعدم وجودِ النهارِ المضيءِ

الذي يستكشفُ به الإنسانُ ما وراءَه؛ وذلك أن الناسَ يحتاجون في وقتٍ من أوقاتهم إلى مَأْوًى يأوون فيه لا يَطَّلِعُ عليهم الآخرون فيه، فَجَعَلَ اللهُ اللَّيْلَ لباسًا يتمكنون فيه من الإيواء إلى مَحَالِّهِمْ وبيوتهم فيقضون حوائجَهم التي لا يرغبون أن يَطَّلِعَ عليها الآخرون، فَامْتَنَّ اللهُ جل وعلا على عبادِه بهذه النعمةِ؛ لتكون دليلاً على قدرة الله على البعث.

الدليل السادس في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾: النهارُ هو مِنْ طُلُوعِ الفجرِ إلى غروبِ الشمسِ، وقد جعل الله النهارَ معاشًا، أي: سببًا من أسبابِ تحصيلِ الناسِ لأنواعِ الأرزاقِ فهم يَعْتَاشُونَ في النهارِ؛ لوجود الإضاءة فيه، فيتمكنون من الذهاب والتنقل والتكسب، ويتفضلُ اللهُ عليهم في النهارِ بتيسيرِ سُبُلِ الرزقِ لهم، فليس المرادُ فقط معاشًا، أي: أن النهارَ وقتٌ لطلبِ المعايشِ، وإنما المرادُ أن النهارَ وقتُ يتَفَضَّلُ اللهِ بتقسيمِ الأرزاقِ فيه؛ ليكون نعمةً امْتَنَّ الله بها على عباده؛ إذ لو كان مجردَ خبرٍ بأن النهارَ محلُّ العمل لَمَا كان هناك امتنانٌ من الله جل وعلا، ولما كان فيه دلالةٌ على إثباتِ المعادِ والبعثِ وإثباتِ إفرادِ الله بالعبادةِ.

وهذه الآيات الثلاث السابقة كما هي أدلة على قدرة الله تعالى على البعث والنشور، امتن الله تعالى بها على خلقه وجعلها دليلاً على لطفه بهم ورحمته لهم، فقال عز جل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

الدليل السابع في قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾: المرادُ

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾........................

بهذه الآيةِ السماءُ، وقد بنى الله جل وعلا سبعَ سماواتٍ فهي فوق الأرض كالسقف، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقد أمسكها الله بقدرته، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وزينها بالكواكب، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦] ووسَّعَهَا ورفعها كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، ففي هذا دلالةٌ على أن السماءَ بناءٌ مُحْكَمٌ، وأنها ليست مجردَ فضاءٍ كما يقوله بعضُ الناسِ، وفي الآيةِ دلالةٌ على أن بناءَ السماءِ عظيمٌ وشديدٌ وَقَوِيٌّ، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وفي الآيةِ دلالةٌ على أن السماواتِ سبعُ سماواتٍ، وفيها إظهارُ قدرةِ اللهِ جل وعلا بخلقِ هذه المخلوقاتِ العظيمةِ، مما يدل على قدرته عز وجل على المعاد.

الدليل الثامن في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾: المرادُ بذلك الشمسُ جعلها الله بمثابةِ السراجِ الذي يضيءُ[1].

وقوله: [وَهَّاجًا]: يعني شديدُ الإضاءةِ يتلألأ ضوؤه، فهذه نعمةٌ من نِعَمِ الله جل وعلا يتفضلُ بها على عباده، ويدل بها على كمال قوته وقدرته حيث جعل هذه الشمسَ وَهَّاجَةً مضيئةً؛ لذا فهو قادرٌ على بعثِكم وإعادةِ خلقكم.

الدليل التاسع في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾: أي:

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

....

أنزلنا الأمطار من السحاب.

وفي الآية أن المطرَ يُنْزِلُهُ اللهُ جل وعلا من السحابِ. وفيها أن إنزالَ الأمطارِ من السحابِ وليس آتِيًا من تحتِ العرشِ كما يقولُه بعضُ المفسرين، ومن هنا فلا إشكالَ في قولِ بعضهم: أن السحابَ أصلُه مياهُ البحارِ، وأن الشمسَ تقومُ بِجَعْلِهِ يصعدُ إلى السماءِ؛ ليكونَ سحابًا ثم تقومُ بعد ذلك الرياحُ بنقله إلى المَوَاطِنِ التي يَنْزِلُ فيها، إذ لا محظورَ في هذا، بل ظاهرُ هذه الآيةِ لا يعارضُ هذا المعنى.

وقوله: [الْمُعْصِرَاتِ]: جمهورُ أهلِ العلمِ على أن المرادَ بالمعصراتِ السحابُ؛ فإن الله جل وعلا يَعْصُرُهَا بالرياحِ حتى تُنْزِلَ الماءَ، وقال طائفةٌ من المفسرين: المرادُ بها الرياح، كأنه قال: وَأَنْزَلْنَا بالرياحِ ماءً ثجاجًا.

وقوله: [مَاءً]: يعني أن المطرَ النازلَ ماءٌ طاهرٌ يجوزُ الوضوءُ به والاغتسالُ؛ لأن الله جل وعلا قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣] فَسَمَّى ماءَ المطرِ هنا ماءً، فَدَلَّ على أنه إذا وُجِدَ ماءُ المطرِ فإنه لا يجوزُ للإنسانِ أن ينتقلَ إلى التيممِ.

وقوله: [ثَجَّاجًا]: أي: أنه يَنْصَبُّ انصبابًا شديدًا متتابعاً، فَانْظُرْ هذه الآيةَ العجيبةَ من آياتِ اللهِ، سحابٌ يَجُرُّهُ الهواءُ ويسحبه من مكانٍ إلى آخَرَ ثم بعد ذلك يَنْزِلُ هذا السحابُ ليكون ماءً مُنْهَمِرًا ثَجَّاجًا، والمرادُ بالثجاج سريعُ الانصبابِ، كما جاء في الحديثِ أن النبيَّ ﷺ قال: «**أَفْضَلُ الحَجِّ**

لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ ....

الْعَجُّ وَالثَّجُّ»(١)، والمراد بالثَّجِّ: ذَبْحُ الْهَدْيِ بحيث ينزل دمُ الْهَدْيِ قَوِيًّا سَرِيعًا.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮﴾: فيه دلالةٌ على أن الأسبابَ مُؤَثِّرَةٌ بإذن الله عز وجل؛ فدل هذا على أن المطرَ يُؤَثِّرُ بإذن اللهِ في إنباتِ النباتِ، فقول بعضهم بأن المخلوقاتِ لا يؤثرُ بعضُها في بعضٍ. هذا قولٌ خاطئٌ يخالفُ ظواهرَ النصوصِ، بل المخلوقاتُ يؤثرُ بعضُها في بعضٍ لكنها لا تؤثرُ بنفسها وإنَّما تُؤَثِّرُ بإذْن اللهِ عز وجل وخلقه؛ ولذلك قال هنا: [لِنُخْرِجَ] لأنه بأمر الله وَقَدَرِهِ وَخَلْقِهِ، ثم قال: [به]؛ لأن الماءَ سببٌ مؤثرٌ بإذنِ الله عز وجل في إنباتِ هذا النباتِ.

وقوله: [لِنُخْرِجَ بِهِ]: أي: يُخْرِجُ هذا النباتَ من الأرض، وقوله هنا: [حَبًّا] المرادُ بالحبِّ الحبوبُ التي تكون لها أكمامٌ وليس لها ساقٌ وليس لها أشجارٌ وأغصانٌ، ومن أمثلته: الأرزُ، والقمحُ، والشعيرُ، هذا كُلُّهُ يقال له: حَبٌّ.

قوله: [وَنَبَاتًا]: جمهورُ أهلِ العلمِ على أن المرادَ بالنباتِ هنا الأعلافُ التي تَأْكُلُهَا البهائمُ مما ليس فيه حَبٌّ وليس شَجَرًا مُثْمِرًا، وقال بعضهم بأن هذه اللفظةَ شاملةٌ، وتكون حينئذ من قبيلِ عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المسند (٣٣٠) وأبو يعلى (٥٠٨٦).

وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ....

قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾: هذا قسمُ ثالثُ من أقسامِ ما يَنْبُتُ: الجنةُ المرادُ بها: ما يُغَطِّي غَيْرَهُ، ومنه يقال للجِنِّ: جِنٌّ لأنهم يَسْتَتِرُونَ ولا يتمكن الناسُ من رؤيتهم، وهكذا الأشجارُ والبساتين يقال لها جَنَّةٌ؛ لأنه يسترُ بعضُها بعضًا، فالأشجارُ والأغصانُ يَسْتُرُ بعضُها بعضًا. والمرادُ بالجناتِ: الأشجارُ التي لها ساقٌ ولها ثمارٌ.

وقوله: [أَلْفَافًا]: أي: ملْتَفَّةٌ بعضها يحيط ببعضها الآخرِ.

ثم بعد أن بَيَّنَ اللهُ جل وعلا قدرتَه بَيَّنَ الأدلةَ الدالةَ على أنه القادرُ المتصرف في الكون مما يدلك على قدرةِ الله على إعادةِ الأجسادِ وَبَعْثِ الأرواحِ، وَيَدُلُّكَ على وجوبِ إفرادِ الله بالعبادة؛ لأن الذي فَعَلَ هذه الأمورَ وحدَه يجبُ أن تكونَ العبادةُ له وحدَه ولا يجوزُ صرفُ شيءٍ من هذه العباداتِ لغيره، فمن فعل ذلك وأنعم بهذه النعم، كيف يكذب خبره بإثبات المعاد والبعث؟! وكيف تستعمل نعمه في معصيته؟!

فهذه تسعُ قضايا: الأُولَى: تمهيدُ الأرضِ، والثانيةُ: وَضْعُ الجبالِ أوتادًا تَسْتَقِرُّ بها الأرضُ، والثالثةُ: خَلْقُ الناسِ أَزْوَاجًا، والرابعةُ: جَعْلُ النَّوْمِ سُبَاتًا، والخامسةُ: جَعْلُ اللَّيْلِ لِبَاسًا، والسادسة: جعلُ النهارِ معاشًا، والسابعةُ: بناءُ السبعِ سماواتٍ، والثامنةُ: جَعْلُ الشمسِ سِرَاجًا وَهَّاجًا، والتاسعةُ: إِنْزَالُ الأمطارِ من السحابِ، وهنا قضيةٌ عاشرةٌ تابعةٌ للتاسعةِ وهي: إخراجُ الحَبِّ والنباتِ والجناتِ مختلفاتِ الأنواعِ والثمارِ.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ ....

ثم جاء بالقضيةِ التي يتساءلون عنها وَيُشَكِّكُونَ فيها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧﴾: يومُ الفصلِ هو يومُ الجزاءِ، قيل له: الفصلُ؛ لأنه يُفْصَلُ فيه بين الخصوماتِ، وَيُقْتَصُّ للمظلومِ من الظالمِ، ولا يُتْرَكُ لأحدٍ من البشرِ حَقٌّ على غيرِه، [مِيقَاتًا] أي: له وقت محددٌ وَأَجَلٌ معروفٌ يعرفه ربُّ العزةِ والجلالِ، متى ذلك اليومُ؟ الجواب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾: هناك نفختان ينفخهما المَلَكُ في الصور: النفخةُ الأولى: التي يميتُ الله بها العبادَ ولا يبقى أحدٌ على الأرضِ إلا مَنْ قَدَّرَ اللهُ له البقاءَ، فَتُنْزَعُ الأرواحُ كُلُّهَا، فهذه هي النفخةُ الأُولَى.

وأما النفخةُ الثانيةُ فهي يوم بعثِ الأجسادِ فهذه النفخةُ الثانيةُ هي المرادة بالآية، وقد سُئِلَ النبيُّ ﷺ: «كَمْ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ؟ فَقَالَ ﷺ: أَرْبَعُونَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَمَّا قِيلَ لَهُ: أَرْبَعُونَ سَنَةً أَوْ أَرْبَعُونَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ»[1]، يعني أنني سمعتُ من النبيِّ ﷺ خبرًا فنقلتُه إليكم لا أزيدُ فيه شيئًا بحسب ظَنِّي واجتهادي، وأقتصرُ على ما بلغني وسمعتُه من النبيِّ ﷺ.

فهاتان النفختان محل اتفاق، واختلف في نفخة ثالثة يقال لها: نفخة الفزع[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) تفسير الطبري ٥٣٣/٢٠، تفسير ابن أبي حاتم ٢٩٢٩/٩، تفسير القرطبي ٢٤٠/١٣،

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾ ....

قوله: [أَفْوَاجًا]: أي: تأتون جماعاتٍ تِلْوَ جماعاتٍ؛ إما بحسب أعمالِ الناسِ؛ فهناك سابقون، وهناك أصحابُ اليمينِ، وهناك أصحابُ الشمالِ، وإما بحسبِ الإيمانِ والنفاقِ، فهناك مؤمنون، ومنافقون، وكفارٌ، وإما بحسبِ الأنبياءِ الذين يَتْبَعُونَهُمْ فَكُلُّ نَبِيٍّ يأتي يومَ القيامةِ معه أتباعُه.

ثـم قـال تعـالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾: يعني شُقِّقَتِ السماءُ ووضع فيها فتحاتٌ حتى أصبحت بمثابةِ الأبوابِ يدخل منها الملائكةُ.

ثـم قـال تعـالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾: أي: قُلِبَتِ الجبالُ، فَبَدَلَ أن كانت أجسامًا قويةً صلبةً أصبحت سرابًا ليس لها جِرْمٌ ثقيلٌ، وليس المرادُ بالسرابِ هنا: ما يشاهدُه الإنسانُ عن بُعْدٍ ويظنُّ أنه ماءٌ وليس كذلك، قال الجمهورُ: وإنما المرادُ بذلك أنها تُصْبِحُ هباءً منثورًا، ليس لها حقيقةٌ كما وصفها اللهُ جل وعلا بأنها: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] تصبح يومَ القيامة كالعهنِ المنفوشِ؛ أي: كالقطن الذي نُفِخَ وَكُبِّرَتْ أحجامُه وليس له حقيقةٌ.

ثـم قَسَّمَ اللهُ جل وعلا في آخرِ هذه السورةِ الناسَ إلى صنفين: أصحاب النار وأصحاب الجنةِ، وهكذا نحن جميعًا أيها الناسُ سَنَنْقَسِمُ إلى هذين القِسْمَيْن، فالعاقلُ مَنْ سَعَى لأَنْ يكونَ مِنْ أهلِ الجنةِ، مِنَ المُتَّقِينَ، من الذين يَسْعَوْنَ إلى تحصيلِ رضا ربِّ العالمينَ وَرَفْعِ الدرجةِ في الجنةِ.

تفسير ابن كثير ٣/٢٥٣، روح المعاني ١٠/٢٤٠.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ ....

فذَكَرَ اللهُ جل وعلا في هذه الآياتِ تَقْسِيمَ الناسِ إلى صِنْفَيْنِ:

الصنفُ الأولُ: هم الطاغونَ، والمراد بالطاغي مَنْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ الذي فُرِضَ له، بأن يكون قد صَرَفَ العبادةَ لغيرِ اللهِ، أو لم يلتزم بطاعةِ ربٍّ العزةِ والجلالِ.

فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾: جهنمُ هي النارُ التي أَعَدَّهَا اللهُ يومَ القيامةِ لأعدائه يُعَذَّبُونَ فيها.

وقوله: ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾: يعني وُضِعَتْ جهنمُ رَصدًا تَتَرَقَّبُ الكفارَ يَصِلُونَ إليها، فهي ترصدهم وتترقبهم.

وقال بعضُ أهلِ التفسيرِ: إن جهنمَ كانت مِرْصَادًا للجميع بمعنى أن جميعَ الناسِ يمرونَ بها؛ لَكِنَّ أهلَ الإيمانِ والتقوى يَجْعَلُهُمُ اللهُ يتجاوزونها فوقَ جسرِ جهنمَ، وأما الكفارُ فإنهم يَلْبَثُونَ فيها، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ -٧٢].

وقوله: ﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾: أي: مَرْجِعًا، فَيُنَجِّي اللهُ المؤمنين على جِسْرِ جهنمَ ولا يَرْجِعُونَ إليها بخلافِ الطاغين فإنهم يَعُودُونَ إلى النارِ.

ثم قال عنهم: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: أنهم يُقِيمُونَ إقامةً دائمةً، **[أَحْقَابًا]** أي: مدةً بَعْدَ مدةٍ، وقد قيل في الأحقابِ بأن كل واحد منها بمقدارِ ثمانين أو أربعين سنةً، وعلى كلٍّ فالآيةُ ليس فيها دلالةٌ على أن نارَ جهنمَ

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ ....

ينقطعُ عذابُها، بل قد تواترتِ النصوصُ دالةً على أن نارَ جهنمَ خالدةٌ أبدًا وأنه لا ينقطعُ عذابُها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٤ -٦٥].

فإن قال قائلٌ: إن الكفارَ إنما عَاشُوا في الدنيا سنواتٍ قليلةً فحينئذ يُنَاسِبُ أن يكونَ عذابُهم متوافقًا مع السنواتِ التي أَشْرَكُوا فيها، وألا يكونَ عذابُهم دائمًا فنقولِ بأنهم لَمَّا كان من نِيَّاتِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ أنهم سَيَبْقَوْنَ على الكفرِ والشركِ دائمًا عَاقَبَهُمُ اللهُ بأن جَعَلَهُمْ يُعَذَّبُونَ في نارِ جهنمَ عذابًا أبديًّا؛ وبالتالي يَصْدُقُ قولُه تعالى: [جَزَاءً وِفَاقًا].

قال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤﴾: لأن نارَ جهنمَ حَامِيَةٌ؛ وبالتالي لا يصلُ إليهم شيءٌ بارد، وإنما عليهم نارٌ مُحْرِقَةٌ ولا يُسْقَوْنَ الشرابَ الذي يستفيدون منه وَيُبَرِّدُ عليهم أَجْسَادَهُمْ ويدفع الظمأ عنهم، بل يصلهم الماء الحار يشوي وجوههم ويقطع أمعائهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾: الحميمُ: هو الماءُ الْحَارُّ، فاستثنى من الشرابِ الماءَ الحارَّ الذي يُقَطِّعُ الأمعاءَ فإنهم يُسْقَوْنَهُ لكنهم يُعَذَّبُونَ به ولا يَتَنَعَّمُونَ.

والغَسَّاق: عصارةُ أهلِ النارِ من قَيْئِهِمْ وصديدهم وَكُلُومِهِمْ ودمائهم ونحوِ ذلك، وقد قيل بأن الله جل وعلا يجعلها باردةً بردًا شديدًا زَمْهَرِيرًا، بحيث يتعذبون بها زيادةَ عذابٍ؛ لأن الإنسانَ مَتَى تناولَ شيئين مُتَضَادَّيْنِ في البرودةِ والحرارةِ كان ذلك مُؤَثِّرًا على بَدَنِهِ.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾ ....

ثم قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ أي: أن إدخالهم النارَ وإيقاعَ هذه العقوباتِ عليهم إنما هو على جهةِ الجزاءِ على أعمالهم.

وقوله تعالى: [وِفَاقًا] أي: متوافقًا مع الأعمالِ التي أَدَّوْهَا، وفيه دلالةٌ على أن ربَّ العزةِ والجلالِ لا يَظْلِمُ أحدًا من الناسِ، وأنه جل وعلا لا يُعَذِّبُ أحدًا وهو غيرُ مُسْتَحِقٍّ للعذابِ.

ثم ذكر الله تعالى الأسبابَ التي جَعَلَتْهُمْ يدخلونَ في نارِ جهنمَ ويعذبونَ بهذه العقوباتِ.

أولها قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧﴾ إنهم: هنا (إِنَّ) حرفُ تعليلٍ، أي: أن السبب في دخولهم النار أنهم ليس لديهم عملٌ صالحٌ يجعلهم يُؤَمِّلُونَ النجاةَ يومَ القيامةِ، وقال طائفةٌ بأن قوله تعالى: **[لا يَرْجُونَ حِسَابًا]** أي: لا يخشونَ عقابَ الآخرةِ؛ لأنهم لا يؤمنون بها، والقولُ الأولُ أظهرُ؛ لأن الأصلَ إعمالُ كلمةِ الرجاءِ على مُقْتَضَى معناها اللغويِّ، فحينئذ نقول: الصوابُ أن المرادَ بالآيةِ: أنهم ليس لديهم أعمالٌ صالحةٌ تجعلهم يرجونَ ثوابَ ذلك العملِ الصالحِ يومَ القيامةِ.

أما الجريمةُ الثانيةُ التي جَعَلَتْهُمْ من أهلِ جهنمَ فقد ذَكَرَهَا اللهُ تعالى بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾: التكذيبُ المرادُ به: عدمُ التصديقِ وعدمُ العملِ، فَكِلَاهُمَا يقال له: تكذيبٌ، فليس التكذيبُ مُنْحَصِرًا باعتقادِ القلبِ، بل التكذيبُ قد يكونُ بالقلبِ وقد يكونُ باللسانِ، يقال: فلان

....

كَـذَّبَ فلانًـا أي: كَذَّبَـهُ باللسـانِ، أي: قـال: هـو كـاذبٌ، وقـد يكـون التكذيب أيضًا بعملِ الجوارحِ؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَى، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ**»(١)، فدل ذلك على أن التكذيبَ قد يكونُ بالعمل.

وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾: هل المرادُ الآياتُ الشرعيةُ مما في الكتابِ، والأوامرُ النبويةُ، أو المرادُ الآياتُ الكونيةُ؟

الأظهرُ أن المرادَ الجميعُ بما يشملُ الآياتِ الكونيةَ والآياتِ الشرعيةَ، أما الآياتُ الشرعيةُ فإنهم قد كَذَّبُوا بالقرآنِ فلم يَسْتَجِيبُوا له، ولم يعتقدوا صحتَه ولم يَجْزِمُوا وَيُوقِنُوا بما ذكر الله فيه من الأخبار، وأما الآياتُ الكونيةُ فإنها دالةٌ على إفرادِ الله بالعبادةِ، ودالةٌ على إثباتِ المعادِ لكنهم لم يستفيدوا ذلك منها؛ فكانوا بمثابةِ المكذبين لها؛ لأن الأصلَ أن لفظَ الجمعِ إذا أُضِيفَ إلى معرفةٍ فإنه يفيدُ العمومَ، وآياتٌ هنا جَمْعٌ قد أُضِيفَتْ لمعرفة فحينئذ تكون عامة تشملُ الآياتِ الكونيةَ والآياتِ الشرعيةَ.

وقوله: ﴿كِذَّابًا﴾: أي: مع أنهم قد كذبوا بالحقِّ إلا أنهم يتكلمون بذلك التكذيبِ على جهةِ الْجَزْمِ به، بحيث لا يكونَ السامعُ لهم مُتَشَكِّكًا في كونهم كَاذِبِينَ في تكذيبهم للآياتِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ ....

ثم قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩﴾: المرادُ بالشيءِ هنا جميعُ المخلوقاتِ، وليست خاصةً بالأعمالِ، فأعمالُ الناسِ وصفاتُهم ومكاسبُهم وآثارُهم وجميعُ ما في الدنيا كُلِّه مُحْصًى في اللوحِ المحفوظِ.

وقوله: [أَحْصَيْنَاهُ]: المرادُ بذلك كتابتُه في اللوحِ المحفوظِ، وحينئذ لا يصحُّ أن نفسرَ قوله تعالى: [أَحْصَيْنَاهُ] أن المرادَ بذلك العلمُ؛ لأن الإحصاءَ أخصُّ من العلمِ، صحيحٌ أن الإحصاءَ يتضمنُ أن الله عالِمٌ بما أحصي في اللوحِ المحفوظِ لَكِنْ لا يصحُّ قَصْرُ لفظِ الإحصاءِ على أن المرادَ به مجردُ العلمِ، كما يقول به طائفةٌ؛ وذلك أن العبدَ المؤمنَ بالقضاءِ وَالْقَدَرِ يؤمنُ بأن اللهَ قد عَلِمَ بالأشياءِ قبلَ وقوعها، ويؤمنُ بأن اللهَ قد كتبها، ويؤمنُ بأن اللهَ قد قَدَّرَهَا، ويؤمنُ بأن الله قد خَلَقَهَا، وَكُلُّ رتبةٍ مُسْتَقِلَّةٌ عن الرُّتْبَةِ الأُخْرَى.

وتشير الآية إلى كمال عدل الله عز وجل حيث لا يعاقبهم إلا بأعمالهم التي أحصاها عليهم.

وقوله تعالى هنا: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾: فيه دلالةٌ على أن نارَ جهنمَ باقيةٌ أبدَ الآبادِ وأنها لا تَفْنَى، كما دَلَّ على ذلك نصوصٌ أخرى من كتابِ الله عز وجل.

وقوله تعالى: [فَذُوقُوا]: مَنِ المُتَكَلِّمُ بهذا؟ قال طائفةٌ: المتكلمُ به ربُّ العزةِ، يقول ذلك لهم يوم القيامة على جهة التبكيتِ لهم، وعلى جهةِ

الاحتقارِ لهم، وبيانِ أنهم لن يستجابَ لهم؛ لِيَزْدَادُوا بُؤْسًا إلى بُؤْسِهِمْ، وَلَمَّا اعترضَ عليهم بأن الله تعالى ذَكَرَ أنه لا يكلمهم يومَ القيامةِ[1]، قالوا: المراد بقوله: [لا يُكَلِّمُهُمْ] أي: لا يكلمهم كلامَ نعيمٍ، وأما هذا الكلامُ فليس كذلك، وَيَدُلُّ ذلك قولُ الرسولِ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**»[2].

وقيل: أن المتكلم بذلك هم خزنة جهنم من الملائكة. وقوله: **[فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا]**: هذا تأكيدٌ لنفيِ انقطاعِ العذابِ، من أجل أن ييأسوا في ذلك الوقت من تخفيف العذاب.

ثم ذكر القسمَ الثانيَ: الذين يُنَعَّمُونَ، وهذه طريقةٌ تسيرُ عليها الآياتُ القرآنيةُ في كثيرٍ من سورِ القرآنِ، يُذْكَرُ مصيرُ أهلِ الجنةِ ومصيرُ أهلِ النارِ حتى يتفكرَ العقلاءُ وَيُوَازِنُوا: هل عَمَلُهُمْ يؤهلهم لأَنْ يكونوا من أهلِ الصنفِ الأولِ أم هم من الصنفِ الثاني؟ وهذا يجعلهم يجتهدون لِيَهْرُبُوا من العذابِ ويحصلوا على النعيمِ.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾: المتقون جمع مُتَّقٍ، والمرادُ بِالْمُتَّقِي: مَنْ وُجِدَتْ فيه مخافةٌ من اللهِ في قلبه ومخافةٌ من عقابه جَعَلَتْهُ يُقْدِمُ على الطاعاتِ ويجتنبُ المعاصيَ والسيئاتِ.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ ....

وقد تواترتِ النصوصُ الشرعيةُ بترتيبِ ثوابٍ جزيلٍ لأهلِ التقوى سواءً في الدنيا أو في الآخرةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥]. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ -٣].

وقوله تعالى: ﴿مَفَازًا﴾: أي: مواطنَ يفوزون فيها ويكونون بذلك من السابقين الذين يَسْبِقُونَ غيرَهم، ثم ذَكَرَ أنواعًا مما يفوز به المتقون.

فأولُ ذلك في قوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾: والمرادُ بالحدائقِ البساتينُ، والأعنابُ نوعٌ من الأشجار ذكره لأن له من الظلِّ ما تهفو إليه النفوسُ؛ ولثمرته من الحلاوةِ ما لا يجدها الإنسانُ في غيره من الثمار، ولكثرتها في تلك المواطن.

ثم ذكر نعيمًا آخرَ من نعيمِ أهلِ الجنةِ فقال: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾: والمرادُ بذلك النساءُ الشوابُّ اللاتي لهن أثداء كواعب؛ أي: مرتفعة، ليست مُتَدَلِّيَةً، مما يدل على قوتهن ونضارتهن وصغر سنهن.

وقوله تعالى: [أَتْرَابًا]: أي: أن أسنان الكواعب متماثلة، فبعضهن قريب سِنُّهُ من بعضِهن الآخرِ، متآلفات لا يقع نزاع بينهن.

وقيل: المراد أن أسنان المتقين متقاربة فهم في أوج سن الشباب فوق الثلاثين، ولا يمتنعُ أن يكون الجميعُ مرادًا، فالمتقون والكواعب أسنانهم متقاربة.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ ....

وأما النعيمُ الثالثُ المذكورُ في هذه الآياتِ للمتقين فقوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾: المرادُ بالكأسِ عند جماهيرِ أهلِ العلمِ كأسُ الخمرِ، وقوله: [دِهَاقًا] أي: أنها صافيةٌ مَلأَى ليس فيها كَدَرٌ مملؤة من الرحيق لذة للشاربين.

ثم وَصَفَ حالهم بأنهم: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾: أي: أنهم لا يتكلمونَ بالكلامِ الباطلِ مع أنهم شربوا هذه الكأسَ إلا أن عقولَهم لم تتأثر بذلك؛ ومن ثم لم يتكلموا باللغوِ، واللغوِ هو الكلامُ الذي لا ثمرةَ له.

وقوله: [كِذَّابًا]: أي: أنهم لا يَكْذِبُونَ في أنفسهم ولا يُكَذِّبُونَ في كلامهم، وقال طائفةٌ بأن المرادَ بقوله: **[كِذَّابًا]:** بأن الله يَصْدُقُهُمْ في الوعدِ الذي وَعَدَهُمْ إياه بدخولِ جنةِ الخلدِ.

ثم قال تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾: أي: أن هذا الثوابَ بسبب أعمالهم.

وقوله: [مِنْ رَبِّكَ]: أي: أن الله هو المتفضلُ به، فأنتَ مهما عملتَ من العملِ فإن هذا العملَ لا يُقَابِلُ نعمةً من نِعَمِ الله التي أَنْعَمَ بها عليكَ، ومن هنا فإن دخولَك الجنةَ فَضْلٌ من الله جل وعلا ثم إن الله جل وعلا هو الذي وفق المتقين للعمل الصالح الذي أدخلهم الله به الجنة.

وفي أصحابِ جهنمَ قال: **[جَزَاءً وِفَاقًا]** يعني على قَدْرِ أعمالهم جُوزُوا، بينما في أصحابِ الجنةِ قال: **[جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا].**

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ....

وقوله: [عَطَاءً]: أي: أن الله يُعْطِي أصحابَ الجنةِ هذا الجزاءَ وهذا النعيمَ في جنةِ الخلدِ، فضلاً منه جل وعلا، وبهذا نعلم بُطْلَانَ قولِ أولئك الذين يقولون بأن العبدَ يدخلُ الجنةَ بِنَاءً على عملِه على جهةِ الجزاءِ المجردِ والمقابلةِ، وأن العبادَ يَسْتوجبون ذلك بأعمالهم فهذا قولٌ باطلٌ، يرده قولُه تعالى: **[عَطَاءً حِسَابًا]**.

وقوله: [حِسَابًا]: يعني أن الله يتفضلُ عليهم زيادةً من عنده، يقال: أَعْطَى محمدٌ زيدًا عطاءً حِسَابًا، يعني أنه أعطاه وزاده في العطاءِ.

ثم ذكر جل وعلا شيئًا من صفاته لِيُعَلِّقَ القلوبَ به، فإذا تعلقتِ القلوبُ بالله خَافَتْهُ وَرَجَتْهُ وَقَصَرَتِ العبادةَ عليه، فقال سبحانه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾: يعني أنه الخالقُ للسماواتِ والأرضِ والمدبرُ لأمورهما، فالمتفضل بذلك الثواب على المتقين لا يستغرب عليه هذا التفضل؛ لأن شأنه الإحسان للخلق، كما أنه تفضل بتصريف الكون، فَإِلَهٌ كذلك لا بد أن نتقربَ إليه بأنواعِ القرباتِ؛ لأنه هو المتصرفُ في الكونِ أحسن تصريف.

ثم قال تعالى: [وَمَا بَيْنَهُمَا]: فكل شيء بين السماوات والأرض فإن رَبَّهُ هو اللهُ يتصرف فيه ويقوم عليه؛ فيشمل هذا مَنْ على الأرضِ، ويشملُ هذا السحابَ الْمُسَخَّرَ بين السماءِ والأرضِ ويشملُ هذا هذه الكائناتِ العظيمةَ التي بين السماءِ والأرضِ من شمسٍ وقمرٍ وكواكبَ ونجومٍ وغيرِ ذلك.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾ ....

وقوله : [الرَّحْمَنِ]: فيه ربطٌ للقلوبِ بصفةِ الرحمةِ من صفاتِ اللهِ عز وجل ، فحينئذ إذا عَلِمَ العبدُ أن ربَّه الرحمنُ تَوَجَّهَ إليه وَرَجَاهُ وَأَمَّلَ في فَضْلِهِ.

ثم قال تعالى: [لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا]: يعني أن العبادَ لا يتمكنون من مخاطبةِ ربِّ العزةِ والجلالِ يومَ القيامة ابتداءً حتى يكلمهم ؛ ولذلك قال : [يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ] يعني أنهم لا يملكونَ منه خطابًا يومَ يقومُ الروحُ ، وأما في الدنيا فإن العبادَ يتمكنون من مناجاةِ ربِّ العزةِ والجلالِ في الدعاءِ وفي الصلاةِ ونحو ذلك.

ثم قال: [يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ]: المرادُ بالروحِ على الصحيحِ جبريلُ عليه السلامُ كما قال جل وعلا : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] أي : بجبريلَ ، وكما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] ولا يصح تفسيرُ هذا اللفظِ بأن المرادَ به أرواحُ بني آدمَ ؛ لأن الأرواحَ جَمْعٌ ، ثم المرادُ هنا تعظيمُ ذلك اليومِ ، ولا يكون التعظيمُ إلا بِذِكرِ أمرٍ مُعَظَّمٍ وجبريلُ عليه السلامُ صاحبُ خِلْقَةٍ عَظِيمَةٍ ؛ ولذلك ناسبَ أن يذكرَ في هذه الآية.

وقوله تعالى: [وَالمَلائِكَةُ]: هذا يشملُ جميعَ الملائكةِ بدونِ استثناءٍ مع كثرتهم وتعددهم.

وقوله تعالى: [صَفًّا]: أي : أنهم يصفون صفًّا واحدًا خاضعين بين يَدَيْ رَبِّ العزةِ والجلالِ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ ....

قوله تعالى: [لا يَتَكَلَّمُونَ]: أي: أن الروحَ والملائكةَ لا يتكلمون في ذلك اليومِ، وإذا كان الروحُ والملائكةُ لا يتكلمون فغيرهم من بني آدمَ ومن الجنِّ وبقيةِ أنواعِ المخلوقاتِ من بابِ أَوْلَى أنهم لا يتكلمون.

قوله تعالى: [إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ]: فيه دلالةٌ على هولِ ذلك اليومِ، وأن الناسَ كما أنهم لا يتمكنون من الكلام لا يتمكنون من التصرفِ بأيِّ فعلٍ إلا بإذنٍ من ربِّ العزةِ والجلالِ، وخصوصًا فيما يتعلقُ بكلامهم.

وفي قوله: [إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا]: أن الله جل وعلا قد يأذنُ لبعضِ العبادِ في الكلام بين يديه، ولذلك جاءتِ النصوصُ بأن الله جل وعلا لا يقبلُ الشفاعةَ من جميع الناس كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩] فدل هذا على أن الكلامَ إذا أَذِنَ اللهُ به، وكان ذلك الكلامُ صوابًا: أي: حَقًّا غيرَ باطلٍ فإنه قد يُؤْذَنُ لصاحبه في ذلك اليومِ.

ثم قال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾: أي: أن يومَ البعثِ والجزاءِ يوم القيامةِ يومٌ لا شكَّ فيه، حقٌّ لا باطلَ فيه، فهذا جوابُ لجزء من السؤالِ الذي وَرَدَ في أولِ السورةِ في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾.

وذلك اليوم الحق لا مجال للباطل فيه، ولا ينفع فيه الكذب.

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾: يقول: إذا علمتُم بأن يومَ القيامةِ يومٌ حَقٌّ، وأنكم سَتُحَاسَبُونَ على أعمالكم، وأن الثوابَ والعقابَ

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾

سيكون في ذلك اليومِ فَبَادِرُوا بالأعمالِ الصالحةِ التي تَرْجِعُونَ بها إلى الله ما دُمْتُمْ في زمنِ الإمهالِ، فقوله جل وعلا: [فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا] أي: طريقًا يَسْلُكُهُ يرجعُ فيه إلى ربه فيرضى رَبُّهُ عنه، وقيل إن قوله: [مَآبًا] أي: رجوعًا إلى الجنةِ؛ لأن الله جل وعلا أولَ ما خَلَقَ آدمَ أَسْكَنَهُ الجنةَ.

وفي الآيةِ دليلٌ على أن الطاعاتِ تكون بمشيئةٍ من العبدِ واختيارٍ منه، وهذه المشيئةُ مرتبطةٌ بمشيئةِ اللهِ جل وعلا؛ لقوله: [فَمَنْ شَاءَ] دَلَّ هذا على أَنَّ للعبدِ مشيئةً، وأن العملَ الصالحَ يحصلُ بها، ولكنه لا يحصلُ العملُ الصالحُ بمشيئةِ العبدِ وَحْدَهُ حتى يرتبطَ بها مشيئةُ اللهِ جل وعلا.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾: والمرادُ بالنذارةِ الخبر الذي فيه تخويفٌ، وهو عذابُ جهنمَ وَجَعَلَهُ قَرِيبًا؛ لأن انتقالَ الإنسانِ من الدنيا إلى الدارِ الآخرةِ مُحْتَمَلٌ في كلِّ لحظةٍ؛ ولذلك قيل: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ»[1].

ثم قال: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾: أي: ان كل إنسان يتذكر ما قَدَّمَتْ يداه من الأعمالِ صالحةً أو سيئةً، وقوله: [**الْمَرْءُ**] الصوابُ أنها شاملةٌ للمؤمنِ والكافرِ؛ لأن المرءَ اسمٌ مفردٌ مُعَرَّفٌ بأل فيفيدُ العمومَ.

---

(١) أخرج الدولابي في الكنى والأسماء (٣/٩٣٠) بسنده، قال: صَلَّى عَلْقَمَةُ عَلَى جِنَازَةٍ، فَقَالَ: "أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ".

....

وفي قوله: [يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ]: أن الإنسانَ يشتغلُ بالنظرِ في عَمَلِهِ ولا يلتفتُ إلى الآخرين، فَكُلٌّ مشغولٌ بِنَفْسِهِ، الوالدةُ تُشْغَلُ عن وَلَدِهَا، والولدُ يُشْغَلُ عن وَالِدَيْهِ، كُلٌّ يقول: نَفْسِي نَفْسِي في ذلك اليومِ.

وقوله: [يَدَاهُ]: المرادُ به ما قَدَّمَ من عملٍ سواء فَعَلَهُ بيده أو بسائر بَدَنِهِ. يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾: وذلك أن الكافرَ يَتَمَنَّى أن يُجْعَلَ ترابًا فلا يُدْخَلَ في نارِ جهنمَ، وقد قيل بأن السببَ في هذا أنه في يومِ القيامةِ يُؤْتَى بالبهائمِ فَيُقْتَصُّ لبعضها من بعضٍ، ثم إذا اقْتُصَّ لبعضها من بعضٍ قال الله لها: «كُونِي تُرَابًا» فحينئذ يَتَمَنَّى الكافرُ أن يكونَ مثلَ هذه البهائمِ يَجْعَلُهُ الله تُرَابًا؛ لِيَسْلَمَ من عذابِ جهنمَ[1].

ولا يصحُّ تفسيرُ بعضِهم بأن المرادَ بالكافرِ هنا إبليسُ وأنه يَتَمَنَّى أن يكونَ مثلَ آدمَ مخلوقًا من ترابٍ؛ لأن قوله: [الْكَافِرُ] من ألفاظِ العمومِ فيشملُ جميعَ أنواعِ الكفارِ فلا يصحُّ حَصْرُهُ في إبليسَ.

فهذه السورةُ فيها تقريرٌ للبعثِ والجزاءِ، وفيها نِذَارَةٌ عظيمةٌ لأصحابِ العقولِ تجعلهم يُقْدِمُونَ على الطاعاتِ وَيُحْجِمُونَ عن المعاصي.

---

(١) أخرجه الحاكم ٣١٦/٢ (٣١٥٨) وإسحاق (٣٢٢) وعبد الرزاق في التفسير (٧٨٦) وابن جرير في التفسير ٢٣٥/٩، وابن أبي حاتم في التفسير (٧٢٦٢) موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه إسحاق (١٠) وأبو الشيخ في العظمة (٦٨٦) وابن جرير في التفسير ٥٥/٢٤، وابن أبي الدنيا في الأهوال (١٨٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٧٣).

فوائد السورة:

في هذه السورة مِنَ الفوائدِ:

١. كثرة اضطراب الكافرين والمكذبين للحق، خصوصا في المطالب المهمة مثل البحث وإفراد الله بالعبودية وصحة الرسالة.

٢. عظم شأن البعث والجزاء ووجوب الاهتمام به والدعوة إلى الإيمان به.

٣. كثرة نعم الله على العباد في الدنيا مما يحسن الاستدلال به على قدرة الله وصدقه.

٤. اشتمال القرآن على أفضل الأدلة العقلية.

٥. عظم نعمة إنزال الأمطار وكثرة أثرها ونفعها للعباد.

٦. يوم القيامة له وقت محدد لا يتقدم عليه.

٧. فصل الخصومات والعقوبة على أنواع المظالم تكون يوم القيامة حتى بين البهائم.

٨. إثبات المهاد وبعث الأجساد.

٩. شدة أهوال يوم القيامة وتغير طبائع كثير من الأشياء في ذلك اليوم.

١٠. انقسام الناس يوم القيامة إلى قسمين: طواغيت مصيرهم جهنم، وإلى متقين لهم الفوز.

١١. استمرار عقوبة أهل النار وعدم انقطاعها.

١٢. أثر الأعمال في دخول الجنة أو النار.

١٣. وجوب الإيمان باليوم الآخر والاستعداد له.

١٤. جميع الأفعال مسجلة في اللوح المحفوظ.

١٥. فضل التقوى وعظم ثوابها في الدنيا والآخرة.

١٦. شدة هول يوم القيامة.

١٧. إثبات مشيئة العبد وفعله وارتباطهما بمشيئة الله وخلقه.

تفسير سورة النازعات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤
فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨
أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ
إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥
إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨
وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢
فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨
وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا
٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤ يَوۡمَ
يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ
ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ
أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ
يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ① وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ②﴾ ....

موضوع السورة:

سورةُ (النَّازِعَاتِ) من السورِ المكيةِ نَزَلَتْ على النبيِّ ﷺ قَبْلَ الهجرةِ، ومن المعاني والمواضيعِ التي تُعَالِجُهَا هذه السورةُ إثباتُ البعثِ والجزاءِ، وأن الناسَ سَيُحَاسَبُونَ عَمَّا قريبٍ على أعمالهم، وأنهم سَيَنْقَسِمُونَ إلى فَائِزِينَ وَخَاسِرِينَ، كما أن هذه السورةَ في ثَنَايَاهَا ذِكْرُ قصةِ موسى عليه السلامُ؛ ليكونَ فيها تَأَسٍّ من جهةٍ، وعبرةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ من جهةٍ أُخْرَى.

معاني الآيات:

قولُه جل وعلا: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ① وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ②﴾: أَقْسَمَ اللهُ تعالى بهذه المخلوقاتِ لأَمْرَيْنِ:

الأمر الأولُ: بيانُ عَظَمَةِ هذه المخلوقاتِ، وأنها طريقٌ من طُرُقِ التفكرِ والتَّدَبُّرِ.

الأمرُ الثاني: أَنَّ اللهَ جل وعلا يُقْسِمُ بما شَاءَ من عِبَادِهِ، ولا يجوزُ لأحدٍ من العبادِ أن يُقْسِمَ بأحدٍ من المخلوقين؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

وليس كُلُّ ما جَازَ في حَقِّ اللهِ تعالى يجوزُ في حَقِّ المخلوقِ؛ لذلك

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٨) ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

من صفاتِ رَبِّ العزةِ والجلالِ الكبرياءُ والعظمةُ، والمخلوقُ لا يَصِحُّ له أن يتصفَ بشيءٍ من هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾: فيها أنواع انتقال المخلوقات من حال إلى حال آخر، ذلك أن كلّ ما في الكونِ ينتقلُ من حالٍ إلى حالٍ، وهذا الانتقالُ على نوْعَيْنِ:

الأول: يكونُ بقوةٍ وبشدةٍ، و**الثاني:** يكونُ بسهولةٍ ولِينٍ.

مثالُ ذلك: عندما يكونُ هناكَ تَاجِرٌ غَنِيٌّ تأتيه خَسَارَةٌ واحدةٌ تُذْهِبُ مالَه كُلَّهُ في لحظةٍ، هذا انتقالٌ بقوةٍ، بينما إذا كانت الخسارةُ التي لَحِقَتْهُ قد جَاءَتْهُ شَيْئًا فَشَيْئًا فهنا الانتقالُ كان سهلاً يسيرًا، وهكذا العكسُ يكونُ الإنسانُ فقيرًا فيرثُ فينتقلُ إلى حالِ الغِنَى مرةً واحدةً، ومرةً ينتقلُ من حالِ الفقرِ إلى حالِ الغِنى بتقديرِ اللهِ له سُبُلَ التجارةِ ونحوَ ذلك، هكذا المخلوقاتُ كُلّهَا تنتقلُ من حال إلى آخر على أحدِ هذين الطَّرِيقَيْنِ؛ إما بقوةٍ وشدةٍ وإما بسهولةٍ وَيُسْرٍ.

فقولُه: [وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا] النازعاتُ المرادُ به النزعُ والسحبُ بشدةٍ وقوةٍ، وَ(غَرْقًا) المرادُ بها الاستغراقُ والإحاطةُ للشيءِ من جميعِ جوانبِه، ومن أمثلةِ النازعاتِ غَرْقًا: أخذُ أرواحِ الكفارِ؛ فإن الملائكةَ تأتي فَتَسْحَبُ أرواحَهم من أجسادِهم بقوةٍ وَغِلْظَةٍ وشدةٍ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾: النَّشْطُ هو السحبُ بسهولةٍ وَيُسْرٍ،

كما في الحديث: "**كأنما نشطَ من عِقَالٍ**"[١] يعني أن الحبلَ الذي يُرْبَطُ به البعيرُ يُرْبَطُ بطريقةٍ سهلةٍ بحيث يُتمكن مِنْ فَكِّهِ وَحَلِّهِ بطريقةٍ سهلةٍ ليس فيها قوةٌ ولا شدةٌ، فهكذا بعضُ انتقالِ الكائناتِ يكونُ بسهولةٍ وَيُسْرٍ.

نمثلُ بأمثلةٍ لذلك: انتقالُ الكونِ من حالِ النهارِ إلى حالِ الليلِ والظلمةِ هذا انتقالٌ بسهولةٍ ويسرٍ، فيدخلُ في قولِه: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾.

وقد أَقْسَمَ اللهُ بهذا لِيُبَيِّنَ للناسِ قدرتَه على خلقِ الأمورِ المتضادةِ، كيف هو قادرٌ سبحانه على نَقْلِ الشيءِ من حالٍ إلى حالٍ مضاد له بقوةٍ، وهو كذلك قادرٌ على نَقْلِ الشيءِ من حالٍ إلى حالٍ آخر بسهولةٍ وَيُسْرٍ، فالقادرُ على ذلك سبحانه قادرٌ على بعثِ الأجسادِ، وعلى حسابِ الناسِ على أعمالِهم يومَ القيامةِ.

ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ نماذجَ للنازعاتِ غرقًا منها خسف النجوم وانتقالها، ومنها عمل الغزاة بدخول دار العدو بقوة وبرمي السهام والمقذوفات التي تنكي العدو.

وكذلك ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ نماذجَ للناشطاتِ نشطًا من سير الدواب وانتقالها، وسير الكواكب السيارة، وهي نماذج المقصودُ منها قدرةُ رَبِّ العزةِ والجلالِ على خلقِ المتضاداتِ، بل إن هذين الأمرين قد يُوجَدَانِ في مكانٍ واحدٍ فَيُوجَدُ فيه نزعٌ بقوةٍ، وفي نفسِ الوقتِ أو بعدَ مدةٍ يكونُ فيه

---

(١) جزء من حديث أبي سعيد في الرقية بالفاتحة، أخرجه البخاري (٢٢٧٦) ومسلم (٢٢٠١).

وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ ....

الانتقال بسهولةٍ وَيُسْرٍ، من أمثلةِ ذلك انتقالُ الإنسانِ من الصحةِ إلى المرضِ يكونُ في الغالبِ بقوةٍ خُصُوصًا إذا كان عن حادثٍ أو مرضٍ طويلٍ، بينما انتقالُه من حالِ المرضِ إلى حالِ الصحةِ يكون بسهولةٍ وَيُسْرٍ، فسبحانَ القادرِ على خلقِ متضاداتٍ ونقلِ الأشياءِ من حالٍ إلى حالٍ مرةً بقوةٍ ومرةً بسهولةٍ ويسرٍ.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾: أي: أن الأشياءَ التي تَجْرِي فيما بينَها على نَوْعَيْنِ:

الأول: نوع له طريقتُه في جَرَيَانِهِ في حياتِه لا يتعارضُ بعضُها مع بعضٍ، مثالُ ذلك: النجومُ في تحركاتِها مبنيةٌ على السباحةِ وليست مَبْنِيَّةً على المسابقةِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] ومثلُه الشمسُ والقمرُ.

الثاني: نوع له جريان مبني على المُغَالَبَةِ والمسابقةِ، من أمثلةِ ذلك: فِعْلُ أولئك التجارِ الذين يُتَاجِرُونَ بالسلعِ كُلٌّ منهم يريدُ تصريفَ سلعتِه؛ وبالتالي يحاولُ أن يَسْبِقَ غيرَه بتصريفِ سِلَعِهِ، وَعَبَّرَ عن الْجَرَيَانِ على الطريقةِ بالسباحةِ؛ لأن السيرَ المعتادَ يُسَمَّى سباحةً، بينما المغالبةُ يقالُ لها مسابقةٌ.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾: المرادُ بـ [**المدبرات**]: الملائكةُ يَجْعَلُهَا اللهُ تُدَبِّرُ أحوالَ الكونِ بأمرِه جل وعلا، فهو المتصرِّفُ سبحانَه في الكونِ، وهي جنودٌ له عز وجل تُصَرِّفُ أمرَه، وقوله: [**أَمْرًا**] أي: شَأْنًا، وليس المرادُ

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨﴾ ....

به الأمرَ الذي يُقَابِلُ النهيَ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ [هود: ٩٧] أي: شأْنُه.

ثم بعدَ ذلك أشارَ إلى القضيةِ التي أُتِيَ بِالْقَسَمِ مِنْ أَجْلِهَا ألا وهي إثباتُ المَعَادِ والجزاءِ، وأن يومَ القيامةِ قادمٌ لا مَحَالَةَ.

فقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦﴾: (يوم) ظرفٌ، وَ(تَرْجُفُ) أي: تضطربُ، و(الراجفة) المرادُ بها النفخةُ الأُولَى التي ينتجُ عنها موتُ الأرواحِ كلِّها.

ثم قال تعالى: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾: المرادُ بالرادفةِ: النفخةُ الأخرى التي يُحْيِي اللهُ بها العبادَ، فكأنه أشارَ هنا إلى نوعٍ من أنواعِ الانتقالِ، فَهُمْ انتقلوا بالنفخةِ الأُولَى من الحياةِ إلى الموتِ، وانتقلوا بالنفخةِ الثانيةِ من الموتِ إلى الحياةِ، فالقادرُ على إيجادِ الانتقالاتِ السابقةِ قادرٌ على إيجادِ هذا الانتقالِ.

قال تعالى: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨﴾: (واجفةٌ) أي: خائفةٌ ذليلةٌ صاغرةٌ، قيل: أن سببَ الخوفِ عدمُ معرفتِها لِمَآلِ أمرِها، هل سَتَئُولُ إلى جنةٍ أو نارٍ؟! وبالتالي تكونُ كلمةُ القلوبِ شاملةً لقلوبِ المؤمنين والكافرين، لَكِنَّ هذا القولَ قولٌ مرجوحٌ؛ بدلالةِ قولِه سبحانه بعد ذلك: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠﴾ والصوابُ أن المرادَ بالقلوبِ هنا قلوبُ الكافرينِ؛ لأنهم إذا قامت القيامةُ عَلِمُوا أنهم خاسرونَ وأنهم لَمَّا لم يَسْتَعِدُّوا ليومِ القيامةِ فَسَيُجَازِيهمُ اللهُ عز وجل الجزاءَ المناسبَ لأعمالهم.

أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ ....

وقوله: ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾: أي: أبصارُ أصحابِ تلك القلوبِ ذليلةٌ خاضعةٌ بسببِ ما تَعْرِفُهُ من سوءِ العاقبةِ؛ لأنها كانت مُكَذِّبَةً بهذا المصيرِ في الدنيا؛ لَكِنَّهَا في الآخرةِ سَتَجْزِمُ بهذا المصيرِ.

ثم قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠﴾: كلمةُ: (يَقُولُونَ) مَرْجِعُ الضميرِ فيها قِيلَ إلى الكفارِ عامةً، وقيل هي خاصةٌ بكفارِ قريشٍ، ولا يمتنعُ أن يكونَ المرادُ الجميعَ، وقوله: [أَئِنَّا] هذا استفهامٌ إنكاريٌّ كأنهم يُنْكِرُونَ هذه المقالةَ: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَمَرۡدُودُونَ﴾: أي: هل سَيُرْجِعُنَا اللهُ.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠﴾: قيل: المرادُ الأرضُ، أي: هل سَيُرْجِعُنَا اللهُ إلى الأرضِ مرةً أخرى، وقال آخرونَ بأن المرادَ بالحافرةِ القبرُ، وكأنهم قالوا: أَئِذَا كُنَّا في القبورِ سيقومُ اللهُ بِإِرْجَاعِنَا إلى الحياةِ وَنَفْخِ أرواحِنا في أجسادِنا مرةً أخرى، فهذا عندهم قولٌ مُسْتَغْرَبٌ، لماذا اسْتَغْرَبُوهُ؟ لِمَا ذَكَرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١﴾: النخرةُ هي الباليةُ التي تَفَتَّتَتْ وأصبحت قريبةً من هيئةِ الترابِ، ففي هذا غفلةٌ منهم عن قدرةِ اللهِ عز وجل فإن اللهَ جل وعلا القادرُ على نقلِ الأشياءِ من حالٍ إلى ضِدِّهَا قادرٌ على نقلِ هذه العظامِ النخرةِ لتكونَ حَيَّةً.

وهذه النشأةُ الأُولَى كان الإنسانُ لا حياةَ فيه فَنَفَخَ فيه الروحَ، وهذه الأشياءُ التي انتقلت من صورةٍ إلى ضِدِّهَا مَنِ الذي نَقَلَهَا؟ نَقَلَهَا رَبُّ الْعِزَّةِ

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ ....

والجلالِ سبحانه.

ثم قال عز وجل: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾: أي: إذا قَدَّرْنَا وقوعَ هذا الأمرِ وَرُجُوعَنَا إلى الحياةِ مرةً أُخْرَى فإنها ستكونُ رجعةً خاسرةً، (كَرَّةٌ) يعني رَجْعَة، و(خاسرةٌ) لأنهم سَيَخْسَرُونَ لعدمِ تقديمِهم لعملٍ صالحٍ ينفعهم في آخرتهم، فَرَدَّ اللهُ تعالى عليهم بقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾: أي: أنه سبحانَه قادرٌ على إعادةِ الأرواحِ إلى أجسادِكم وإحياءِ عِظَامِكُمُ النخرةِ بشيءٍ سَهْلٍ في لحظةٍ واحدةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾: أي: إنما البعثُ وإعادةُ الحياةِ إليكم مرةً أخرى يكون بنفخةٍ واحدةٍ، وهذا فيه دلالةٌ على أن الأرواحَ تُبْعَثُ يومَ القيامةِ في وقتٍ واحدٍ.

قال عز وجل: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾: المرادُ بالسَّاهِرَةِ الأرضُ المستويةُ يُحْشَرُ الناسُ كُلُّهُمْ في موطنٍ واحدٍ، وقد وَرَدَ أنهم يُحْشَرُونَ في الشامِ؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] فَدَلَّ هذا على أن المَحْشَرَ يكونُ بأرضِ الشامِ، وجاء في المُسْنَدِ وسننِ الترمذيِّ أن النبيَّ ﷺ قامَ في الثلثِ الأخيرِ فَنَادَى بِأَعْلَى صوتِه: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ**»(١) ولكن

---

(١) أخرجه أحمد ٥/١٣٦ (٢١٢٧٩) والترمذي (٢٤٥٧) والحاكم ٢/٤٥٧ (٣٥٧٨).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾ ....

هذا الحديثَ ضعيفُ الإسنادِ ؛ لأنه من روايةِ عبدِ اللهِ بن محمدِ بن عقيلٍ ، والصوابُ أنه ضعيفُ الإسنادِ والروايةِ ؛ لوقوع أوهامٍ عنده كثيرة.

قال تعالى : ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾ : انتقل السياق القرآني هنا إلى ذِكْرِ قصةِ موسى عليه السلامُ ؛ لِيَتَأَسَّى النبيُّ ﷺ بهذا النبيِّ الكريمِ ، فإنه قد جاءَ هذا النبيُّ الكريمُ بدعوةٍ صادقةٍ وهذه الدعوةُ مُؤَيَّدَةٌ بالآياتِ العظيمةِ ، ومع ذلك قُوبِلَتْ دعوتُه بالتكذيبِ ، وحينئذ فالدعاةُ إلى اللهِ ولو كَذَّبَهُمُ الناسُ لاَ يَقِفُونَ ولا يَتَوَقَّفُونَ عن دعوتهم إلى اللَه عز وجل ، بل يَسْتَمِرُّونَ في ذلك ، ثم من فوائدِ هذا أن يستفيدَ الناسُ العبرةَ والعظةَ من هذه القصةِ ؛ فإن المُكَذِّبِينَ للرسلِ إذا شاهدوا حالَ فرعونَ مع ما عندَه من المُلْكِ والمالِ والقوةِ والجنودِ ما اللهُ به عليمٌ ومع ذلك لم يَرُدَّهُ هذا عن نزولِ عذابِ اللهِ به فهكذا يَحْذَرُ كُلُّ رَادٍّ لدعوةِ الحقِّ أن يصيبه مثل ما أصاب فرعون.

وأتى الله تعالى بهذه القصةِ على سبيلِ الاستفهامِ مِنْ أَجْلِ أن تَتَنَشَّطَ الأفهامُ والأذهانُ لِفَهْمِهَا.

وقولُه تعالى : ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾ المرادُ بالحديثِ أي : القصةُ ، سُمِّيَ حديثًا ؛ لأنه يُحَدَّثُ مرةً بعد مرةٍ ، وَاسْتُدِلَّ بهذا على أن صفةَ الكلامِ لِلهِ عز وجل وإن كانت قديمةَ النوعِ لَكِنَّ من آحادِها ما هو حادثٌ ؛ لقوله : [حَديثُ مُوسَى] ويدل عليه قولُه تعالى : ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنبياء : ٢].

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ....

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾: (نَاداهُ) أي: أن اللهَ تعالى قد نَادَى نَبِيَّهُ موسى عليه السلامُ، فَفِيهِ إثباتُ فِعْلِ النداءِ لله عز وجل؛ لأنه إذا جاءت صفةٌ في كتابِ اللهِ منسوبةً إلى اللهِ جل وعلا فالأصلُ أننا نُؤْمِنُ بها ونُوقِنُ بمعناها على حسبِ مقتضَى لغةِ العربِ، ولا نُؤَوِّلُها وَلا نَصْرِفُهَا عن معناها؛ لأن اللهَ جل وعلا قَادِرٌ على أن يُعْطِيَنَا المعانيَ كاملةً، ولو كان رَبُّ العزةِ والجلالِ لا يتصفُ بهذه الصفةِ لَمَا قال جل وعلا: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُۥ﴾ واللهُ جل وعلا صادقٌ فلا يُخْبِرُ إلا بما هو واقعٌ حقيقةً.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾: فيه إشارةٌ إلى أن ربَّ العزةِ والجلالِ هو المُتَفَضِّلُ على عبادِهِ بأنواعِ النِّعَمِ، فهو الذي يُرَبِّيهِمْ سواءً كانَ تَرْبِيَةً دينيةً بجعلهم يهتدون ويسيرونَ على الطريقِ المستقيمِ، أو بإيصالِ النعمِ الدنيويةِ إليهم، وَمِنْ فَضْلِ اللهِ تعالى أن جَعَلَ أهلَ الإيمانِ يتفضلُ عليهم بزيادةِ الهدى كُلَّمَا وُجِدَ عندهم هُدًى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[محمد: ١٧] وهكذا يتفضلُ اللهُ على عباده المؤمنين بإيصالِ المنافعِ الدنيويةِ إليهم وَإِنْ لَحِقَهُمْ نقصٌ فِي أولِ الأمرِ وَلَحِقَهُمْ شيءٌ من الأَذَى وشيءٌ من المضايقةِ لكن العاقبةَ تكون لهم قال تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] أُخِذَ هذا المعنى من قوله: [رَبُّهُۥ] لأن المُرَبِّي هو المُسْدِي لِلنِّعَمِ.

وقوله تعالى: [بِالْوَادِ] هذا وَادٍ في سيناءَ، [الْمُقَدَّسِ] أي: المُطَهَّرُ، وَ[طُوًى] هذا اسمُ هذا الوادي، وقد جاءت الآياتُ بتفصيلِ قصةِ مناداةِ ربِّ

العزةِ والجلالِ لِمُوسَى عليه السلامُ في سورٍ أُخْرَى كما في سورةِ: (طه)، (والقَصَصِ).

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾: أي: أن اللهَ جل وَعَلاَ قد أَمَرَ موسى بالذهابِ إلى فرعونَ، ففيهِ دلالةٌ على أن الداعيةَ إذا ذَهَبَ إلى المَدْعُوِّينَ لِيُبَلِّغَهُمْ رسالةَ اللهِ فإنه يُؤْجَرُ على هذا، وليس من إخضاعِ النفسِ وإذلالِها ذَهَابُ الإنسانِ إلى المَدْعُوِّينَ ليبلغَهم رسالةَ اللهِ بشرطِ ألا يُعْصَى اللهُ أمامَه وهو عاجزٌ عن الإنكارِ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾: المرادُ بالطغيانِ مجاوزةُ الحدِّ سواءً مجاوزةُ الحدِّ في التكبرِ والتجبرِ على العبادِ أو في تركِ عبادةِ اللهِ عز وجل وَجَعْلِ الناسِ يعبدونَه مِنْ دُونِ اللهِ.

وقوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾: يقول الله جل وعلا لموسى: قُلْ لفرعونَ: هَلْ لكَ إلى أن تزكَّى، أي: هَلْ أُرْشِدُكَ إلى الطريقِ الذي تَحْصُلُ به زكاتُك أي: طهارتُك المترتبُ عليها نجاتُك في الدنيا والآخرةِ، فقوله: [إِلَى أَنْ تَزَكَّى]: يعني أن تَتَطَهَّرَ من أنواعِ الطغيانِ والذنوبِ والمعاصِي فَتَسْعَدَ في حياتِك وتصفو لكَ هذه الحياةُ، وفي الآيةِ دلالةٌ على أن مَنِ اتبعَ المنهجَ الحقَّ فإن اللهَ تعالى يُطَهِّرُ له حياتَه، ويكون سعيداً في الحياةِ، مَهْمَا جاءه من أقدارِ اللهِ المؤلمةِ؛ لأنه يَرْضَى بقضاءِ اللهِ وقدرِه؛ فتكون نفسه مطمئنةً ذاكيةً لا تَتَأَثَّرُ بما يحصلُ عليها من أنواعِ الابتلاءِ، قال الله تعالى:

وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ....

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ -١٥٧].

وقولُه تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾: أي: هَلْ تَتْبَعُنِي فَأَدُلَّكَ على طريقِ الهدايةِ، والهدايةُ على نَوْعَيْنِ:

النوعُ الأولُ: هدايةُ دلالةٍ وإرشادٍ، وهذه مِنْ فِعْلِ الأنبياءِ وَالصَّالِحِينَ والدعاةِ والعلماءِ. فقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: تَدُلُّ وَتُرْشِدُ.

النوعُ الثاني: هدايةُ تَوْفِيقٍ، وهذه خَاصَّةٌ بالله جل وعَلا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] أي: لاَ تُوَفِّقُ مَنْ أحببتَ إلى سلوكِ الطريقِ المستقيمِ، فالمثبتُ في الآيةِ الأولى غيرُ المنفيِّ في الآيةِ الثانيةِ، فقوله هنا: [**وَأَهْدِيكَ**] المرادُ به هدايةُ الدلالةِ والإرشادِ، أما هدايةُ التوفيقِ فهي خاصةٌ بالله تعالى؛ ولذلك لا يجوزُ لأحدٍ أن يسألَ هذه الهدايةَ إلا من اللهِ جل وعلا؛ ومن هنا فنحن نطلب هذه الهداية من الله عز وجل ونقولُ في صلاتِنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦].

وقوله تعالى: [**إِلَى رَبِّكَ**]: فيه دلالةٌ على أن سلوكَ الطريقِ المستقيمِ يكونُ بالقُرْبِ من دِينِ اللهِ عز وجل وأن العبدَ كُلَّمَا ابتعدَ عن اللهِ وعن شريعتِه فَإِنَّهُ قد ابتعدَ عن الهدايةِ والطريقِ المستقيمِ.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾ ....

وقوله تعالى: [فَتَخْشَىٰ]: أي: يُورِثُكَ هذا صفةً في نفسِك ألاَ وَهِيَ صفةُ الخشيةِ من اللهِ تعالى فتطمئنُّ بها نفسُكَ وتستقرُّ حالُكَ وَتَسْعَد في دُنْيَاكَ.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾: يعني أن موسى عليه السلام أرى فرعونَ الآيةَ الكبرى، والمرادُ بالآيةِ الكبرى قد وَضَّحَتْهُ الآياتُ الأخرى وهي: آيةُ العَصَا، ونزعُ اليدِ بيضاء، ومع أنها آيتانِ إلا أنه قال: الآيةَ الكبرى لأنهما لَمَّا جاءَتَا مُتَقَارِنَتَيْنِ عَدَّهُمَا بمثابةِ آيةٍ واحدةٍ، وَسَمَّاهَا كُبْرَى؛ لأنها عظيمةٌ؛ إِذْ إن أهلَ زمانِه عَجَزُوا عن أن يَفْعَلُوا مِثْلَهَا، وعَجَزَ السحرةُ عن أن يفعلوا ذلك، وفي قوله: ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ جوابٌ عن سؤالاتِ المشركين للنبيِّ ﷺ حينما قالوا له: (أَرِنَا آيَةً) أي: معجزةً عظيمةً حتى نُصَدِّقَكَ[1]، فأخبرَ سبحانه أن فرعونَ قد أُرِيَ آيةً كُبْرَى ومع ذلك لم يَنْفَعْهُ هذا، بل كان سببًا من أسبابِ نزولِ عقابِ اللهِ عليه؛ لأنه لم يُؤْمِنْ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾: ما يأتي به الأنبياءُ عليهم السلامُ على نَوْعَيْنِ: أخبارٌ، وإنشاءٌ، مِنْ أوامرَ وَنَوَاهٍ، فالأخبارُ قَابَلَهَا فرعونُ بالتكذيبِ وعدمِ التصديقِ، وأما الأوامرُ والنواهي فَقَابَلَهَا فرعونُ بالعصيانِ، فالمرادُ بالتكذيبِ وَصْفُ الحديثِ بأنه مُخَالِفٌ للواقعِ، وأما العصيانُ فهو عدمُ الاستجابةِ للأمرِ الجازمِ.

---

(١) كما في قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥﴾

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢﴾: يعني أنه لـم يَلْتَفِتْ لدعوةِ الحقِّ التي جاءَ بها مُوسَى وَوَلاهَا دُبُرَهُ، وفي هذا دلالةٌ على أنه إذا وَلَّى الطغاةُ أو العصاةُ دعاةَ الحقِّ أَدْبَارَهُمْ فإنه لا يَضُرُّ دعاةَ الحقِّ شيئًا.

وقوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ﴾: يعني أنه استمرَّ بقوةٍ في سبيلِ المعصيةِ والتكذيبِ لموسى. (إِذَن السعيُ هو المشيُ بسرعةٍ على طريقتِه الباطلةِ في تكذيبِ موسى وعصيانِه).

وقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣﴾: أي: جَمَعَ الناسَ في مقامٍ واحدٍ فَنَادَى فيهم رَافِعًا صوتَه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾: أي: يريدُ أن يُكَذِّبَ موسى، وأن يجعلَ الناسَ يستمرونَ في عبادتِه كأنه قال: إذا كان رَبُّ موسى رَبًّا فأنا الربُّ الأكبرُ، وهذا فيه تَجَبُّرٌ أَوْجَبَ سرعةَ عقابِه في الدنيا، وقد وَرَدَ في الحديثِ أن النبيَّ ﷺ قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1]، وما ذاكَ إلا لوجودِ التكبرِ منه.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾: أي: عَاقَبَهُ بقوةٍ وبَطَشَ به فنقلَه من حالِ القوةِ والعزةِ إلى حالِ الذلةِ والضعف.

قوله تعالى: ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾: أي: عقوبةَ الآخرةِ والأُولَى، وهل المرادُ بالآخرةِ الدارُ الآخرةُ والأُولَى الدارُ الدنيا، كما قال بذلك طائفةٌ، أو

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هَلِ المرادُ سوءُ عاقبةِ الدنيا وسوءُ عاقبةِ الآخرةِ؛ لأنه أُغْرِقَ فَذَهَبَ مُلْكُهُ في الدنيا وفي القَبْرِ سَيُعْرَضُونَ على النارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ويومَ القيامةِ يُدْخِلُهُمُ اللهُ نارَ جهنمَ، أو أن المرادَ أن فرعونَ أَذْنَبَ ذَنْبَيْنِ عَظِيمَيْنِ فَأَخَذَهُ اللهُ بهما، أما الذنبُ الأولُ فكونه: [**كَذَّبَ وَعَصَىٰ**] وأما الذنبُ الثاني فهو قوله: [**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**]. قيل: إن بين تكذيب فرعون لموسى وبين قوله: [**أنا ربكم الأعلى**] سنواتٍ طويلةً؛ ولذلك ذكر الله حادثةَ التكذيبُ أولاً، والثانيةَ آخراً؛ لأنها التي خَتَمَ بها فرعونُ طريقةَ تعاملِه مع قومِه ومع موسى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾: (في ذلك) أي: في إنزالِ العقوبةِ على الكاذبين الظالمين، (عبرةً) أي: عِظَةً، (لِمَنْ يَخْشَى) لِمَنْ كان له قلبٌ يتمكنُ من فهمِ الأمورِ فيخشى من العواقب.

وقوله: [عِبْرَةً] تُسَمَّى الموعظةُ عبرةً؛ لأنها تنقلُ الإنسانَ من حالِه إلى حالِ غيرِه، تقول: لِيَكُنْ لَكَ مِنْ فُلَانٍ عِبْرَةٌ، أي: كما نَزَلَتْ به العقوبةُ بسببِ ذنبه ومعصيتِه فأنتَ إذا فَعَلْتَ مثلَ ذنبه ومعصيتِه فسينزلُ عليكَ من العقوبةِ مثلُ ما نَزَلَ على الآخَرِينَ؛ ولذلك لَمَّا ذَكَرَ اللهُ عز وجل في أولِ سورةِ الحشرِ ما أنزلَه اللهُ من العقوبةِ على يهود بني النضير قال بَعْدَهَا: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] أي: قِيسُوا حالَكم بحالِهم، فإذا كانت العقوبةُ قد نَزَلَتْ بهم بسببِ غدرِهم ونقضِهم للعهودِ وتكذيبِهم بأنبياءِ اللهِ فإنكم لا تَأْمَنُونَ من نزولِ هذه العواقبِ بكم متى فعلتُم مثلَ فِعْلِهِمْ.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ ....

ثم بعدَ ذلك ذَكَرَ اللهُ جل وعلا قُدْرَتَهُ على خَلْقِ المخلوقاتِ وأشارَ إلى حُسْنِ بديعِ نظامِ اللهِ في الكونِ؛ مِمَّا يدلُّ على إثباتِ المَعَادِ؛ فالقادرُ على ذلك قَادِرٌ على إحياءِ الناسِ بعدَ مَمَاتِهِمْ.

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ عز وجل أن المُنْكِرِينَ للبعثِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ على جهةِ الاستغرابِ والتعجبِ رَدَّ عليهم بأدلةٍ عديدةٍ، منها:

الدليلُ الأولُ: خَلْقُ السماءِ؛ فإن الله جَلَّ وَعَلاَ قد خلقَ السماءَ وهي بناءٌ عظيمٌ مُحْكَمٌ فقال سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾: أي: هَلْ خَلْقُكُمْ وبعثُكم مرةً أُخْرَى أشدُّ من خلقِ السماءِ التي بَنَاهَا، والسماءُ يُرَادُ بها البناءُ المحكمُ الذي في العلوِّ، وقولُه: [**بَنَاهَا**] يدلُّ على أن السماءَ بُنْيَانٌ مُحْكَمٌ، وأنها لَيْسَتْ مُجَرَّدَ هواءٍ أو مجردَ لونِ زُرْقَةٍ كما يَدَّعِيهِ بعضُهم.

وقولُه تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾: المرادُ بِسَمْكِ السماءِ: عَرْضُ السماءِ، وقوله: [**رَفَعَ سَمْكَهَا**] أي: جَعَلَ عَرْضَهَا قَوِيًّا شديدًا بعيدًا، وقد وَرَدَ في الحديثِ: «**أن مَا بَيْنَ حَدِّ أَوَّلِ كُلِّ سَمَاءٍ وَآخِرِهَا مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ**»(١) مِمَّا يَدُلُّ على أن كُلَّ سماءٍ رفيعةُ السَّمْكِ عريضةٌ.

وقولُه تعالى: [**فَسَوَّاهَا**]: يعني جَعَلَهَا مُسْتَوِيَةً فلا تَرَى فيها شُقُوقًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٨) وأحمد (٢/٣٧٠) والطبراني في مسند الشاميين (٤/٣٥) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/٢٨٧).

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾

ولا فُطُورًا، وليس فيها ارتفاعُ جهةٍ دونَ جهةٍ ولا انخفاضُ جهةٍ دونَ أخرى.

والدليل الثاني في قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أي: جَعَلَ الليلَ مُظْلِمًا، غَطَشَ الليل بمعنى غَطَّاه.

والدليل الثالث في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾: المرادُ بالضُّحَى هذا الوقتُ الذي يكونُ في أولِ النهارِ، وَأَخْرَجَهُ أي: أَظْهَرَهُ وَبَيَّنَهُ فَانْظُرُوا قدرةَ اللهِ كيف جَعَلَ الليلَ ظلامًا وجعلَ النهارَ واضحًا ظَاهِرًا، فالقادرُ على ذلك قادرٌ على بَعْثِ أجسادِكم، وَنَسَبَ اللَّيْلَ والضحى إلى السماءِ؛ لأن الناسَ يُشَاهِدُونَهُمَا يحدثان من الأعلى فكأنهما صفتان للسماءِ.

والدليل الرابع في قولُه سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾: (دَحَاهَا) أي: سَطَّحَهَا وَسَوَّاهَا، والمرادُ أن الْمُشَاهِدَ لها لا يَجِدُ فيها انْجِرَافًا ولا انْحِرَافًا، وليس المرادُ بهذه الآيةِ نَفْيَ كُرَوِيَّةِ الأرضِ بل الأرضُ كرويةُ الشكلِ بلا إشكالٍ، دَلَّ على ذلك ظواهرُ عددٍ من النصوصِ، وَيَدُلُّ عليه واقعُ الحالِ.

فدحو الأرض وقع بعد خلق السماء، وخلق الأرض وقع قبل السماء.

والدليل الخامس في قولُه عز وجل: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾: أي: هذه الأرضُ اليابسةُ أَخْرَجَ منها الماءَ، فانظر كيف يُخْرِجُ من الأرضِ

وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣ ....

اليابسةِ الماءَ الذي هو سببٌ للحياةِ، فالقادرُ على إخراجِ الماءِ من الأرضِ قادرٌ على إخراجِ أجسادِكم من قُبورِكُمْ، وإخراجُ الماءِ من الأرضِ كما في الآبارِ والعيونِ ونحوِها.

وقولُه سبحانه: [وَمَرْعَاهَا]: أي: أَخْرَجَ مِنَ الأرضِ هذا المَرْعَى الذي تَأْكُلُهُ البهائمُ، ويَشْمَلُ هذا اللفظُ سائرَ النباتِ، ففيه دلالةٌ على أن القادرَ على إخراجِ هذا النباتِ الحيِّ من هذه الأرضِ اليابسةِ قادرٌ على إِخْرَاجِ أبدانِكم من قُبورِكُمْ لِيَبْعَثَهَا فَيُحَاسِبهَا.

والدليل السادس في قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢﴾: بمعنى ثَبَّتَهَا فجعلَ الجبالَ ثابتةً مُثَبِّتَةً للأرضِ.

وقولُه تعالى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾: أي: تعيشونَ بها في حياتِكم وتَتَمَتَّعُونَ بها.

ما هي الأشياءُ التي تتمتعونَ بها أنتم وأنعامُكم؟

قيل: المرادُ بذلك الماءُ وَالمَرْعَى فهذا الذي تتمتعونَ به أَنْتُمْ وأنعامُكم، والظاهرُ أن المرادَ بهذا يعودُ إلى ما سَبَقَ كُلِّهِ؛ فيدخل في ذلك إخراجُ الضحى، وإغطاشُ الليلِ، وَدَحْوُ الأرضِ وإخراجُ الماءِ والمرعى، وَرُسُوُّ الجبالِ، كُلُّ هذه جَعَلَهَا اللهُ عز وجل متاعًا، أي: تَسْتَمْتِعُونَ بها في حياتِكم فيما أباحَه اللهُ لكم، وكذلك هو متاعٌ لأنعامِكم، والمرادُ بالأنعامِ الإبلُ والبقرُ والغنمُ، هذه هي بهيمةُ الأنعامِ.

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ....

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾: المرادُ بالطامةِ الواقعةُ الشديدةُ الهائلةُ، سَمَّى يومَ القيامةِ الطامةَ الكبرى، ولم يَكْتَفِ بقولِه: [**الطَّامَّةُ**] حتى قال: [**الْكُبْرَىٰ**] والمرادُ بالطامِّ: الذي يُغَطِّي الشيءَ من جميعِ جوانبِه، يقال: طَمَّ السقفَ بمعنى غَطَّاهُ من جميعِ نواحيه.

قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾: يعني في ذلك اليوم يومِ الطامةِ الكبرى يتذكرُ الإنسانُ ما عَمِلَهُ في الدنيا من خيرٍ أو شَرٍّ ولا يَفُوتُهُ شيءٌ من هذا، وفي هذا دلالةٌ على أن العبدَ يَنْتَفِعُ بما عَمِلَهُ في الآخرةِ فَيُجَازَى عليه فيكونُ دخولُ مَنْ دَخَلَ للنارِ بِعَمَلِهِ، ويكونُ دخولُ مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ برحمةِ اللهِ التي يَرْحَمُ بها العبادَ بسببِ ما أَدَّوْهُ من عملٍ صالحٍ.

ثم قال عز وجل: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾: [**وَبُرِّزَتْ**] أي: أُظْهِرَتْ وَبُيِّنَتْ وَتَمَكَّنَ كُلُّ أحدٍ من مُشَاهَدَتِهَا [**الجحيمُ**] المرادُ بها نارُ جهنمَ، وقوله تعالى: [**لِمَنْ يَرَىٰ**]: أي: أن الناسَ كُلَّهُمْ يتمكَّنُونَ من رؤيتِها. والمعنى أن نار جهنم أُظْهِرَت حتى يتمكن من رؤيتها كل أحد.

ثم قسم سبحانه الناسَ إلى قِسْمَيْنِ: أصحابِ النارِ، وأصحابِ الجنةِ.

أما أصحابُ الجحيمِ فقال سبحانه عنهم: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾: أي: تَجَاوَزَ الحدَّ الذي جعَلَهُ اللهُ له ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾: أي: قَدَّمَ الدنيا على الآخرةِ فكانت أعمالُه كُلُّهَا للدنيا ولم يُقَدِّمْ شيئًا للآخرةِ، ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾: أي: أن نار جهنم بالنسبةِ له هي المَأْوَى والمُسْتَقَرُّ والمَآلُ.

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ....

وأما أصحابِ الجنةِ فقال سبحانه عنهم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾: أي أن من خافَ قُدْرَةَ ربِّهِ جل وعلا، وخافَ مَقامَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ حينما يسألُه عن أعمالِه، و [**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى**] يعني: جَعَلَ نفسَه لا تَهْوَى إلا الخيرَ، فلم يقل: نَهَى النفسَ عن اتِّبَاعِ الهوى فقط، وإنما قال: [**نَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى**] أي: جَعَلَ نفسَه لا تريدُ ولا ترغبُ إلا الخيرَ وَوَجْهَ اللهِ والدارَ الآخرةَ، وأما ما تهواه النفوسُ من مَلاذِّ الدنيا المجردةِ التي لا تَنْفَعُ في الآخرةِ، فإن هذا العبدَ المُتَّقِي قد نَهَى نفسَه عنها فلم يُقْدِمْ على تلك الأعمالِ التي يَأْمُرُ الهَوَى بها.

فَمَنْ كان كذلك: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾: الجنةُ هي دارُ أولياءِ اللهِ المتقين التي فيها النعيمُ الدائمُ فهي المَأْوَى والمُسْتَقَرُّ والمَآلُ.

ثم قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾: لأن الكفارَ قالوا للنبيِّ ﷺ: إذا كنتَ صادقًا بقولِكَ: إن الأجسادَ سَتُبْعَثُ وهناك يومٌ للجزاءِ فَأَخْبِرْنَا متى هو حتى نَرَى هل أنتَ صادقٌ أو لستَ بصادقٍ في ذلك؟ فقال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾: أي: ما هو الوقتُ الذي تأتي فيه هذه الساعةُ وتَرْسُو على الناسِ، فَرَدَّ اللهُ جل وعلا عليهم بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ وهذه الآيةُ تشتملُ عددًا من المعاني:

الأولُ: أن اللهَ عز وجل يقولُ لنبيه ﷺ: يا نَبِيَّ اللهِ إنكَ لا تعلمُ وقتَ الساعةِ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾

الثاني: أن إظهار وقتَ حدوثِ الساعةِ لا فائدةَ لكم منه؛ وبالتالي فَذِكْرُ وقتِ الساعةِ لا تَسْتَفِيدُونَ منه.

الثالث: يَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بهذه الآيةِ ما العملُ الذي أدَّيْتُمُوهُ، ﴿فِيمَ أَنْتَ﴾ يعني ما هو مَوْقِعُكُمْ من ذِكْرَاهَا؛ أي: مِنْ تَذَكُّرِكُمْ لها؛ فإن مَنْ تَذَكَّرَ الساعةَ أنتجَ له هذا العملَ الصالحَ الذي يجعلُه ينجو في ذلك اليومِ.

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ۝٤٤﴾: أي: عِلْمُهَا وَمُسْتَقَرُّهَا إلى اللهِ جل وعلا، فإن وقتَ الساعةِ مما اسْتَأْثَرَ اللهُ جل وعلا به، ولم يُخْبِرْ به أحدًا من الناسِ كائنًا مَنْ كَانَ.

ثم قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾: أي: وظيفتُك التي تَعْلُو بها درجتُك أن تكونَ مُحَذِّرًا من تلك الساعةِ التي تُبْعَثُ فيها الأجسادُ، وحينئذ سَيَسْتَجِيبُ أهلُ الخشيةِ والإيمانِ والتقوى، لكنه في يومِ القيامةِ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾: أي: يومَ يَرَوْنَ قيامَ الأجسادِ ويومَ يَرَوْنَ أهوال القيامةِ كأنهم [**لَمْ يَلْبَثُوا**] في الدنيا [**إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**]، العشيةُ: آخِرُ النهارِ، والضحى: أولُ النهارِ، يقول: كأنهم وإن عاشوا في الدنيا سنين طويلة طَغَوْا فيها وَتَجَبَّرُوا وتكبروا ومكروا بأهلِ الخيرِ والحقِّ إلا أنهم في ذلك اليومِ تضيعُ أمورُهم السابقةُ ولا يَسْتَفِيدُونَ مِمَّا عَمِلُوهُ في الدنيا بل يعودُ عليهم بِالْوَبَالِ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. تحذيرُ الإنسانِ من التكبرِ؛ وذلك لأنه إذا قَارَنَ نفسَه بمخلوقاتِ اللهِ العظيمةِ عَلِمَ أنه لا شيءَ أَمَامَهَا كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٥٧].

٢. التذكيرُ بِنِعَمِ اللهِ جل وعلا على العبادِ، وأنه سبحانَه هو المُنْعِمُ المتفضلُ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَتَعَلَّقُ القلوبُ به جل وعلا شُكْرًا وثناءً وحمدًا، فهذه نِعَمُ اللهِ علينا تَتْرَا.

٣. التذكيرُ بقيامِ الساعةِ، والتذكيرُ بوجوبِ الاستعدادِ لها بصنوفِ الأعمالِ الصالحةِ.

٤. أن جميعَ أعمالِ بني آدمَ سَتُعْرَضُ أمامَهم يومَ القيامةِ ولن يُغَادِرَ الكتابُ شيئًا من أعمالِهم.

٥. تحريمُ الطغيانِ بمجاوزةِ الحدِّ سواءً في عبادةِ الخالقِ أو بالتكبرِ على عبادةِ اللهِ وَتَرْكِهَا أو بعبادةِ أحدٍ معه، أو بالطغيانِ في معاملةِ الخلقِ تَكَبُّرًا أو ظُلْمًا أو أَخْذًا لِحُقُوقِهِمْ أو نحوِ ذلك.

٦. التحذيرُ من أن يكونَ مرادُ الإنسانِ ونيتُه مُقْتَصِرًا على أمورِ الدنيا فقط، وأنه لا بد أن يَنْوِيَ بأعمالِه الدارَ الآخرةَ.

٧. أن مَنْ قَصَدَ الجنةَ وَأَرَادَ الدارَ الآخرةَ فإنه لا يُذَمُّ بل يُمْدَحُ على ذلك، خِلَافًا لِمَا تقولُه بعضُ الطوائفِ بأن الممدوحَ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ محبةً له

فنقولُ: لا تَكْفِي المحبةُ، بل لا بد من مَحَبَّةٍ وخوفٍ ورجاءٍ، ولا بد من نيةِ الدارِ الآخرةِ فيما نُؤَدِّيهِ من الأعمالِ؛ ولذلك أَثْنَى اللهُ على مَنْ خَافَ الآخرةَ وَذَمَّ أولئك الذين قَدَّمُوا الدنيا على الآخرةِ.

٨. وَمِنْ صُوَرِ تقديمِ الدنيا على الآخرةِ أن يأكلَ الإنسانُ المالَ الحرامَ، فهذا تقديمٌ للدنيا على الآخرةِ، وَمِنْ ذلك أيضًا أن يَكْذِبَ الإنسانُ في شهادةِ زُورٍ بناءً على ما يأخذُه مِنْ سُحْتٍ خبيثٍ، ومن أمثلة ذلك الرشوةُ التي قد يأخذُها بعضُ الناسِ.

٩. وَمِنْ أمثلةِ إيثارِ الحياةِ الدنيا: أن يسعَى الإنسانُ لتحصيلِ مصلحةٍ من مصالحِ الدنيا مِنْ مَكْسَبٍ أو وظيفةٍ بما فيه إضرارٌ بالآخرين وظلمٌ لهم؛ لأنه لم يَنْظُرْ إلا لدنياه، فحينئذ كان ممن آثَرَ الحياةَ الدنيا.

١٠. التحذيرُ من نارِ جهنمَ، وأن الإنسانَ ينبغي به قبلَ أن يُقْدِمَ على أي: عملٍ أن يتفكرَ: هَلْ عَمَلُهُ هذا يرفعُه في الآخرةِ ويقربُه من رَبِّهِ ويجعلُه ينالُ ثوابَ الجنةِ أو عملُه هذا يُقَرِّبُهُ من نارِ جهنمَ وَيُبْعِدُهُ من الجنةِ.

١١. فضيلةُ الخوفِ وأنه مَنْصِبٌ عظيمٌ يُؤْجَرُ الإنسانُ عليه الأجورَ العظيمةَ فيخافُ الإنسانُ من رَبِّهِ؛ لأنه صاحبُ ذنوبٍ وَمَعَاصٍ ويرجو رحمةَ رَبِّهِ؛ لأنه مُنْعِمٌ متفضلٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ.

١٢. الترغيبُ في نَهْيِ النفسِ عن الهوى، والناسُ في ذلك على صِنْفَيْنِ: صنفٌ ينهى نفسَه عن اتباعِ الهوى فتأمرُه نفسُه بالسوءِ لكنه لا يستجيبُ

لِمَا تأمرُه به نفسُه ويبقى على ما هو عليه من الهدى والخيرِ والطاعةِ.

١٣. وَصِنْفٌ آخرُ يُرَوِّضُ نفسَه بحيث يجعلُ نفسَه لا تُلْقِي عليه أمورَ الهوى ؛ لأن النفسَ متى اعْتَادَتْ أن صاحبَها لا يستجيبُ لِمَا تُلْقِيهِ من رغبةٍ في الهوى فإن النفسَ تَكُفُّ عن المطالبةِ باتباعِ الهوى بعد ذلك.

١٤. أن النفوسَ مختلفةُ المراتبِ منها نفوسٌ طيبةٌ ؛ لأن أصحابَها نَهَوْهَا عن الهوى، ونفوسٌ خبيثةٌ لأنها اسْتَمَرَّتْ على اتباعِ الهوى ولم تَرْجِعْ إلى الْهُدَى.

١٥. أن وقتَ قيامِ الساعةِ لا يَعْلَمُهُ أحدٌ من الخلقِ كائنًا مَنْ كان، وأن اللهَ جل وعلا قد اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ، فَمَنِ ادَّعَى أنه يعلمُ وقتَ الساعةِ فهو كاذبٌ مُكَذِّبٌ لله فبذلك يكونُ كافرًا بهذه الدعوى ؛ لأن اللهَ قد جَعَلَ عِلْمَ الساعةِ إليه وحدَه في قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ فإنه لَمَا قَدَّمَ المعمولَ بقوله : [إِلَى رَبِّكَ] ثم قال : [مُنْتَهَاهَا] أَفَادَ هذا الحصرَ ؛ لأنه إذا قُدِّمَ المعمولُ فإنه يفيدُ انحصارَ العلمِ بالساعةِ في هذا المعمولِ الْمُقَدَّمِ، فيدلُّ هذا على أنه لا يعلمُ متى وقتُ الساعةِ إلا ربُّ العزةِ والجلالِ.

١٦. أن وظيفةَ أهلِ الإيمانِ من أنبياءِ اللهِ والدعاةِ والعلماءِ التذكيرُ بالساعةِ وبيانُ أن الناسَ سَيُبْعَثُونَ عَمَّا قريبٍ ؛ فلا بد أن يَسْتَعِدُّوا لها.

١٧. أن العبدَ ينبغي به أن يَشْتَغِلَ بما يَنْفَعُهُ وأن يَتْرُكَ ما لا يَنْفَعُهُ فإن اللهَ عز وجل لَمَّا بَيَّنَ أن الناسَ لا ينتفعونَ بمعرفةِ وقتِ الساعةِ أَرْشَدَهُمْ إلى الشيءِ الذي ينتفعونَ به ألا وهو تقديمُ الأعمالِ الصالحةِ فقال : ﴿فِيمَ

﴿أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ٤٣﴾ : أي : ما هو العملُ الذي أَدَّيْتَهُ لَمَّا تَذَكَّرْتَ الساعةَ.

١٨. في قوله : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ٤٥﴾ : دلالةٌ على أَنَّ وظيفةَ الأنبياءِ وَأَتْبَاعِهِمْ النِّذَارَةُ من الساعةِ لا الإلزامُ بها.

١٩. أنه لا ينتفعُ بنذارةِ الأنبياءِ والعلماءِ وَالْمُصْلِحِينَ والدعاةِ إلا مَنْ جَعَلَ اللهُ في قلوبهم الخشيةَ وأنه بمقدارِ خشيةِ الإنسانِ ينتفعُ بالمواعظِ، وأنك إذا وجدتَ نفسَك لا تنتفعُ بالمواعظِ سواءً في القرآنِ أو في السنةِ فَاتَّهِمْ نفسَك بأنَّ الخشيةَ عندك قليلةٌ ؛ إِذْ لو كنتَ ممن يخشى لكنتَ من الْمُنْتَبِهِينَ المنتفعين الْمُتَذَكِّرِينَ.

٢٠. أن أهلَ الإيمانِ والتقوى يَسْتَمِرُّونَ في دعوتهم إلى اللهِ ولا يُوقِفُهُمْ أولئك الذين لا ينتفعونَ بالموعظةِ والذكرى فإنه قال : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ٤٥﴾ : فَدَلَّ هذا على أن مَنْ لاَ يَخْشَاهَا فليسَ مِنْ وَظِيفَتِكَ نِذَارَتُهُ، وإنما وظيفتُك إبلاغُه فقط ؛ وَمِنْ ثَمَّ لا تَهْتَمَّ بمعارضتِه أو مضاداتِه لكَ ؛ فإن اللهَ سيكونُ معكَ مُؤَيِّدًا ناصرًا.

٢١. أن الْعِبْرَةَ بالخواتيمِ ؛ ولذلك ذَكَرَ اللهُ جل وعلا أن هؤلاء الْمُنْكِرِينَ للبعث يومَ القيامةِ سيذهبُ ما كانوا ينتفعونَ به في الدنيا كأنهم لم يَجْلِسُوا في الدنيا إلا وقتًا قصيرًا ؛ جُزْءًا من النهارِ.

٢٢. أن إقامةَ الأدلةِ العقليةِ السَّالِمَةِ من المؤاخذةِ والمعارضةِ على الحقائقِ الشرعيةِ ليس من الأمورِ المذمومةِ ؛ ولذلك اسْتَدَلَّ اللهُ جل وعلا بأدلةٍ عقليةٍ كثيرةٍ في كتابِه تُقْنِعُ كُلَّ مَنْ سَمِعَهَا، والأدلةُ العقليةُ الموجودةُ في

القرآنِ أَعْظَمُ الأدلةِ دلالةً وَأَكْثَرُهَا صحةً وأبعدُها عن الاعتراضِ ؛ ولذلك فينبغي بالدعاةِ إلى اللهِ أن يحرصوا على الاستفادةِ من الأدلةِ العقليةِ الواردةِ في الكتابِ ؛ ليكونَ ذلك مُقْنِعًا لعبادِ اللهِ.

الخلاصة : أن هذه السورةَ سورةٌ عظيمةٌ تَضَمَّنَتْ تذكيرَ الناسِ باليومِ الآخِرِ ؛ يومِ الجزاءِ والبعثِ وأقامت الأدلةَ على ذلك.

هذا واللهُ أعلمُ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة عبس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ
يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦
وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩
فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ
مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦
قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ
خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا
شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ
٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا
حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ
وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ
ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ
ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨
ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠
تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ....

موضوع السورة:

سُورَةُ عَبَسَ سُورَةُ مَكِّيَّةٌ بلاَ خِلاف وَهِيَ إِحْدَى وَأَرْبَعُونَ آية.

وتحدثت هذه السورة عن أصول العقيدة الإسلامية، كما تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الإنسان والنبات والطعام، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها .

وابتدأت بذكر قصة الصحابي عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ حينما أتاه يطلب العلم بينما كان ﷺ مشغولاً مع كبار قريش والرسول ﷺ بشر يجوز في حقه كل الصفات البشرية التي لا تقتضي نقصاً، فعبس ﷺ في وجهه، فأتاه العتاب رقيقاً من الله تعالى على ذلك، ثم تحدثت السورة عن جحودِ وكفرِ الإنسانِ بربِهِ مع كثرةِ النعمِ، كما تناولت دلائل قدرة الله تعالى في هذا الكون، وختمت ببيان أهوال القيامة وفرار الإنسان حتى من أقاربه فزعاً وخوفاً.

معاني الآيات:

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ : أي: قطب وجهه، واستنكر الشيء بوجهه، وقوله تعالى: [وَتَولَّى] أي: أعرض عنه ببدنه.

قوله تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ : الأعمى هو عبد الله بن عمرو بن أم مكتوم رضي الله عنه وسبب نزولها أنه جاء إلى النبي ﷺ قبل الهجرة وهو في مكة يسأل ويتعلم منه، وكان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي ﷺ في

....

إسلامهم، وهؤلاء العظماء والأشراف إذا أسلموا كان ذلك سببًا لإسلام من تحتهم، فطمع النبي ﷺ في إسلامهم شديد، فجاء ابن أم مكتوم الأعمى يسأل النبي ﷺ وقال للنبي ﷺ: علمني مما علمك الله ويستقرئ النبي ﷺ ويلح عليه، فأعرض عنه وعبس في وجهه، وأصغى إلى عظماء قريش رجاءً وطمعاً في إسلامهم، وتمنى النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة كبراء القوم، فلما لم يفعل عبس النبي ﷺ بوجهه وتولى للجهة الأخرى بسبب ذلك، فعاتبه الله جل وعلا وبين له أن الأدب الإقبال على المقبل؛ وذلك لأن الدعوة إلى الله على نوعين:

النوع الأول: البلاغ العام، وهذا يكون للجميع للمقبل والمدبر المؤمن والمعرض، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

النوع الثاني: التخصيص بالدعوة؛ وذلك لأناس بأعيانهم فهذه تكون للمقبلين إلى الداعي إلى الله عز وجل.

وفي الآية استحباب اتصاف الإنسان بأحسن الصفات، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»(١).

وقد وصف ابن أم مكتوم بالأعمى على جهة التعريف به لا على جهة الاستنقاص بحاله.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٦) وابن حبان (٤٧٤) والطبراني في الأوسط ١٨٣/٨.

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ....

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾: أي: أن هذا الإعراض والتولي لا يتناسب مع كونك لا تدري هل سيقبل دعوتك وتكون له سبباً من أسباب زكاته وطهارته، فيتصف بالأخلاق العالية والأعمال الجليلة.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾: يعني يكون عنده تذكر ومعرفة بمآلات الأمور إما إلى جنة أو إلى نار فتنفعه هذه الذكرى فتجعله يقدم على الأعمال الصالحة، ويحجم عن ضدها.

قال تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾﴾: هذا هو الصنف الآخر الذي استغنى عن دعوة الحق ورأى أنه في غنية عنها وأنه لا يحتاج إليها فمثل هذا إعراضه عن دعوة الحق لا يضر الدعوة ولا الدعاة بشيء؛ ولذا فإن تصدي الدعاة لهم ليس من الأمور المناسبة؛ لأنهم مستغنون متكبرون ويظنون أن إقدام الدعاة إليهم يظنون أنهم أعلى منهم وأفضل منهم، وأن الدعاة أحقر منهم وأقل شأناً منهم، فقوله: [**استغنى**] أي: رأى نفسه في غنية عن دعوة الحق.

قال تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ أي: تتعرض وتذكر تفاصيل دعوتك له، ومثل هذا لا يلحقك مأثم إذا لم يهتد؛ لأنه هو الذي أعرض عن الحق واستغنى عنه.

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾: أي: لا يلحقك مأثم إذا لم يهتدي إلى الطريق المستقيم ولا يلحقك نقص بسبب ذلك.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾

ثم قال عن الصنف الآخر: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾: أي: من حضر إلى الداعية وهو يسعى راغب في الخير مؤمن بأن يستفيد من دعوة الداعية ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ أي: يخشى من رب العزة والجلال، ويخافه جل وعلا؛ فمثله حري أن يستجيب لدعوة الحق فينبغي أن يتصدى له، وأن تبذل له الأوقات، وليس من المناسب أن يشتغل الدعاة عنه؛ ولذلك قال على جهة العتاب: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾: أي: تعرض وتشتغل بأمر آخر، وفي هذا دلالة على أن الدعوة إلى الله توجه بخصوصها إلى أولئك الذين أقبلوا على الدعوة ورغبوا فيها، أما البلاغ العام فإنه يكون لجميع الناس.

ثم قال جل وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾: [**كلا**] كلمة زجر. [**إنها**] أي: هذه المواعظ القرآنية، وموعظة القرآن بوجوب المساواة بين المدعوين، [**تذكرة**] أي: هي سبيل من أسباب تذكر الخير.

قوله جل وعلا: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢﴾: أي: من قدر الله له الهداية ذكر هذه الموعظة فاستفاد منها، وقيل: [**فمن شاء ذكره**] أي: من رغب في الخير يسر الله له ذلك.

قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾: الصحف المراد بها الصحف التي في أيدي الملائكة على الصحيح من أقوال أهل العلم، وتكون هذه المصاحف التي بين أيدينا تابعة لهذا الحكم لها، وقوله: [**مكرمة**]: أي: مقدرة معززة.

قوله تعالى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾: أي: لها قيمة عالية ليس فيها شيء

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨﴾ ....

من الدنس أو الخبث لا في المعنى ولا في الحس.

قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥﴾: السفرة هم الملائكة؛ لأنهم سفراء بين الله وبين الخلق، يبلغون ما أمر الله به، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ**»(١).

قوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾: أي: أن هؤلاء الملائكة يسعون بأمر الله لجلب الخير للناس، و[**بررة**] أي: أنهم يتصفون بصفات البر والخير، ولذلك فهم يحفظون أولياء الله من أعدائه.

ثم قال جل وعلا: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧﴾: هذا تعجب من الله عز وجل لهذا الإنسان كيف يكفر ويشتد في الكفر والتكذيب، مع أنه لا يعتمد في ذلك على برهان ولا على دليل، وإنما يعتمد على عدم العلم والإعراض، وعدم معرفته، ولذلك فإن هذا الإنسان المعرض عن الحق يستحق أن يدعى عليه بالقتل، [**قتل الإنسان ما أكفره**] وكلمة [**الإنسان**] قد يراد بها خصوص بني آدم، وقد يراد بها جميع المكلفين بما يشمل الجن، ولكن القول الأظهر أن المراد بذلك خصوص الإنس، وأما ما يتعلق بالجن فقد نزل فيهم آيات أخرى تحذرهم من عقوبة الله جل وعلا، وتبين أن عاصيهم ومذنبهم يخشى عليه من نار جهنم، وأن مطيعهم يرجى له أن يكون من أهل الخير والجنة.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨﴾: أي: أن هذا الإنسان قد خلقه الله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾ ....

من شيء ذليل حقير، ومع ذلك يكفر بربه الذي خلقه ثم هذا الإنسان قد أنعم الله عليه بالنعم الكثيرة المتتابعة، ومع ذلك يستمر في الكفر والتكذيب وهذا لا يتناسب مع حال المُنْعِمِ عليه، فإن المُنْعَمَ يستحق أن يشكر لا أن يكفر؛ ولذلك قال في الدلالة على ذلك: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: أن الله هو الخالق للإنسان وأنه خلقه من شيء حقير ولذلك أتى بصيغة الاستفهام للتنبيه على حقارتها، فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ النطفة هي نطفة المني.

قوله: [**خلقه**]: أي: خلق الإنسان من هذه النطفة فأصل الإنسان نطفة، فمن كان كذلك، كيف يكذب بأخبار الله عز وجل، وبكلام رسله، وكيف يكفر بالله؟!

ثم بعد ذلك رب العزة والجلال أنعم عليه [**فقدره**] أي: كتب مقادير الإنسان بما يتضمن في ذلك حياته وسعادته وشقاوته ورزقه وجميع شأنه.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾: قيل: يعني أن الله أخرجه مولوداً من بطن أمه. وقيل: المراد أن الله هيأ له طريق الخير والشر. وقيل: المراد أن الله يسر له سبل الحياة الدنيا. ولا يمتنع أن يكون الجميع مراداً؛ لأن جميع هذه المعاني يصدق عليها لفظ الآية.

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾: أي: أن الله عز وجل تفضل على الناس بأن أوجب فيهم الموت فإن الموت نعمة من الله، إذ لو كان الناس لا يموتون لملئت الأرض، ولكان الإنسان مطالباً ببر آبائه وآباء آبائه وآباء أجداده

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾

مما لا يتمكن معه بالقيام بحال نفسه، أو حال من يعول، ثم إن رب العالمين قد أنعم على الناس بنعمة أخرى ألا وهي أنه قد يسير لهم قبر الموتى، فلم يجعل جسد الإنسان كجيف الحيوانات تترك على وجه الأرض تخيص وتنتن، بل أكرم الله ابن آدم بأن جعل الميت منهم يشرع دفنه، وفي هذا دليل على أن من يموت من ابن آدم يشرع دفنه، ومن هنا فإن ما تفعله بعض الأمم من إحراق الموتى، أو إلقائه في البحار ليس من الأمور الموافقة لشرع الله عز وجل.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾: يعني إذا قدر الله عز وجل الوقت المعلوم بعثه ليحاسبه ويجازيه على أعماله.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾: يعني أن الإنسان عند النشر يعرف أنه لم يقم بالأوامر الشرعية، ومن ثم فيتحسر ويندم على ما فاته من الدنيا حيث لم يؤد ما أ مره الله به.

ثم قال تعالى مذكراً بالدليل الآخر الدال على أن الإنسان لا يحسن منه ولا يجوز له الكفر ولا التكذيب ألا وهو التذكير بنعم الله عز وجل الأخرى فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾: أي: لينظر الإنسان إلى مقدار نعمة الله عليه بأن هيأ له الطعام ويسره له، فانظر المراحل العديدة التي يصل إليها طعامك، أولها: الماء ينزله الله جل وعلا من السماء، فقال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾: أي: جعلناه ينزل من الماء بغزارة وقوة، من الذي فعل ذلك رب العزة والجلال، من الذي ساق السحاب المشتمل على المياه الكثيرة هو

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾ ....

ربك فكيف تكفر برب هذا فعله.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾: إما بجعل الماء يدخل في مسامات الأرض وإما بشق الأرض عند خروج النبات، فإن النبات إذا خرج من الأرض شق طرف الأرض.

ثم قال سبحانه: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧﴾: أي: أن الله جل وعلا قد جعل فيها تنبت فيها أنواع النباتات فمن ذلك الحبوب من الشعير والقمح والأرز ونحو ذلك من أنواع الحبوب.

قال: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨﴾: العنب نوع من الثمر خص بالذكر لحلاوته، [**وقضباً**] قيل: هو نوع من أنواع علف البهائم.

قال: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩﴾: الزيتون أيضاً من تلك الثمار التي تخرج من شجر كبير، [**ونخلاً**] النخل يخرج منها التمر والبلح، وخصت هذه الأشياء: (الحب والعنب والقضب والزيتون والنخل)؛ لجمالها، وكثرة فائدتها.

وفي الزيتون والعنب ذكر الثمرة، وأما في التَّمْرِ فذكر الشجرة، فقال: [**ونخلاً**]؛ لأن انتفاع الناس بالنخل ليس مقتصراً على ثمرتها فقط بل ينتفعون بكل جزء من أجزائها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾: الحدائق هي البساتين، [**وغلباً**] يعني ملتفة بحيث لا يتمكن الإنسان من رؤية ما وراءها.

﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾......

ثـم قـال سبحانه: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾: الفاكهة هي أنواع الثمار المكملة للقوت، فهي ليست قوتاً أصيلاً يعتمد الإنسان عليه في طعامه؛ لكن الإنسان يتفكه بها ويجعلها مكملة لطعامه.

وقوله: [**وأَبًّا**]: الأب عند كثير من أهل التفسير نوعٌ من أنواع علف البهائم، فالأب طعام البهائم؛ ولذلك قال: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾: أي: تتمتعون به وتنتفعون به في دنياكم، [**ولأَنْعَامِكُمْ**]: هذه الأنعام التي تستفيدون منها في الركوب، وحلب الألبان، وفي أكل اللحوم، ونحو ذلك من المنافع، قد هيأ الله هذا الأب وهذا القضب لتنتفع به بهائمكم ثم تنتفعون أنتم بهذه البهائم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾: المراد بها يوم القيامة، قيل: الصاخة؛ لأنها تصدر بصوت قوي يصخ الآذان ويصجها و يجعلها لا تميز ما وراء ذلك الصوت من الأصوات، ويترتب على ذلك أن ترتجف الأفئدة وتتطرب الأبدان.

ثم قال: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾: أي: أن الناس في ذلك اليوم لا يلتفت أحدٌ منهم على أحدٍ، بل كلَّ إنسانٍ مهتمٌ بنفسه، فلا ينفع شخص غيره كائناً من كان ولو نفعه في الدنيا بأعظم أنواع المنافع، فإن كل إنسان يقتصر على نفسه في ذلك اليوم ولا يلتفت إلى غيره؛ وذلك لأنه يحب نفسه محبة أكثر من محبته لغيره؛ ولأنه أصلاً لا يمتلك أن يدفع شيئاً من يديه لغيره.

وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ....

فالأخ في ذلك اليوم يهرب من أخيه ولا يقاربه، وهكذا يهرب من أقرب الناس إليه قال تعالى: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾: فيهرب الابن من أمه، ومن أبيه، ويهرب كذلك من زوجته، قال تعالى: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾: [**وصاحبته**]، أي: زوجته، [**وبنيه**] الأبناء هم الذكور من الذرية؛ لأن الناس أعدوا الذكور من الذرية لمنفعتهم؛ لكنهم يوم القيامة يهربون من أبنائهم؛ لأنهم يعلمون أن أبناءهم لم ينفعوهم بشيء في ذلك اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾: يعني لكل امرئ من هؤلاء حال يقتصر فيها على نفسه، أو حال يغنيه عن النظر إلى غيره، أو يحرص على مساعدة غيره في ذلك اليوم.

وفي ذلك اليوم ينقسم الناس إلى قسمين فاستحضر نفسك في ذلك اليوم، ما هو شأنك؟ وما هو حالك؟ وهل عملك الذي تؤديه الآن يسرك أن تلاقي به ربك أو ليس الأمر كذلك؟

وفي ذلك اليوم يتفرق الناس إلى قسمين:

القسم الأول: قال الله عنهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾: أي: مضيئة فيها نور، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾: أي: ترجوا البشارة وتطلب الخبر السار؛ لأنها قد أدت عملاً صالحاً في دنياها.

القسم الثاني: قال الله عنهم: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾: الغبرة المراد بها الغبار، فوجوههم عليها الغبار بسبب ما أدته في الدنيا من أعمال سيئة.

﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾.

قال تعالى: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾: أي: تغلبها وتكون طاغية عليها والمراد بالقترة السواد.

فميز بين الوجهين، وجه مسفر ضاحك مستبشر، وفي المقابل وجه مغبر أسود مقتر. فمع أي الفريقين تريد أن تكون؟!

وهناك مناسبة بين أول السورة وآخرها فإنه في أول السورة ذكر صفة من صفة الوجه ألا وهي التعبيس، مما يدل على أن حرص الإنسان على أن يكون من أهل الابتسامة، ومن أهل الاستبشار بالوجه عند لقائه لإخوانه من المؤمنين يجعله كذلك يوم لقائه لربه جل وعلا.

من هم أولئك الذين يكون على وجوههم غبرة وترهقهم قترة؟

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾: الكفرة تشمل اعتقاداتهم وتشمل أعمالهم وأقوالهم، فالكفر يحصل بكل من ذلك، وأما الفجرة فهو تخصيص؛ لأنه إنما يصدق لفظ الفجور على الأعمال، وكأنه خصص ذلك؛ لأن العمل يكون له تأثير في الآخرين.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. حرص المسلمين على التخلق بالأخلاق الفاضلة.

٢. الحرص على ملاقاة الآخرين بالبشر والطلاقة.

٣. تلقي الدعاة لمن جاء إليهم يسألهم عن الخير والهدى بالطريق الذي يرونه مناسباً للتأثير فيهم.

٤. أن الإنسان إذا عرف باسم ولم يكن إطلاق هذا الاسم عليه على جهة العيب له، فإنه لا حرج عليه كما قال هنا: [**الأعمى**] ولذلك قال أهل الحديث عن بعض الرواة: الأعمش والأعرج ونحو ذلك.

٥. أن الهداية بيد الله عز وجل يهبها لمن يشاء من خلقه؛ ولذلك قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ فإذا كان النبي ﷺ لا يعلم من سيهتدي ممن لا يهتدي، فهكذا أتباعه ﷺ.

٦. أن اتباع الرسل تحصل به تزكية النفوس وطهارتها.

٧. أن حصول الذكرى عند الإنسان بأن يكون من أصحاب العقول الذين يعرفون عواقب الأمور يجعلهم ينتفعون بذلك.

٨. أن المعرضين عن الذكر وعن الدعوة إلى الله لا ينبغي أن يشتغل المؤمنون بهم، وينبغي بهم أن يستمروا في دعوتهم إلى الله جل وعلا.

٩. أن ضلال من ضل لا يؤثر على منزلة المهتدين متى بذلوا

الواجب عليهم من الدعوة إلى الله ونصيحة الخلق ونحو ذلك.

١٠. بيان أن رسالة الإسلام ودعوة القرآن عامة للناس جميعاً وأن الناس فيها سواسية تشمل دعوة القرآن الصغير والكبير الذكر والأنثى الفقير والغني، الرئيس والمرؤوس.

١١. وقيل بأن الآيات فيها دلالة على أن اهتداء ضعاف الناس أكثر من اهتداء أصحاب المال والجبروت؛ ولذلك لا يسأم الداعية من الاشتغال معهم.

١٢. بيان أن أصل هذا القرآن محفوظ مكرم، وبالتالي فلن يتمكن أحد من تغييره أو تبديله، فإن قوله: [**مطهرة**]: أي: منزهة عن الدنس والخبث ومنزهة عن عبث العابثين.

١٣. أن من كانت الملائكة معه تؤيده فإنه منصور بإذن الله عز وجل.

١٤. أن الإنسان على الغالب مع كون الأدلة قد قامت عليه إلا أنه يسارع إلى الكفر والتكذيب، لا على دليل، وإنما بناء على عدم علم، أو بناء على عدم توجه إلى الخير وسماع له، فإن الأدلة قد قامت على وجوب إفراد الله بالعبادة، ومن ذلك أن الله جل وعلا قد خلق هذا الإنسان من أشياء حقيرة، ثم قلَّبه من حال إلى حال، ثم إن مرجعه ومآله إلى الله عز وجل، فيحاسبه على أعماله، وأنه سيندم يوم لقائه لربه؛ لكونه لم يقم بما أمره الله به على وجه التمام والكمال.

١٥. واستدل بقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾: على أن

الإنسان لا بد أن يتحسر يوم القيامة، وأنه سيوجد منه معصية، وترك لشيء من الواجبات.

١٦. التذكير بمقدار نعمة الله على العبد بهذا الطعام الذي يأكله حيث جعله الله يتقلب من حال إلى حال، أنزله ماء من السحاب، ثم بلعته الأرض، ثم شق الله الأرض بالنبات، ثم أنبت أنواع النبات التي ينتفع بها الناس.

١٧. تحذير الناس من اليوم الآخر وبيان أنهم عما قريب سينتقلون من هذه الدنيا، كم من واحد كان معنا في عامنا الماضي بل في أيامنا القريبة الماضية، والآن لم نجد له خبراً، فإذا وصل خبر الموت إليك عن غيرك، فسيصل خبر موتك إلى غيرك عما قريب، وهل يأمن أحد منا أن يأتيه ملك الموت وهو في مقامه هذا، إما بسكتة القلب، أو جلطة الدماغ، أو غير ذلك من الأسباب.

١٨. الدلالة على أن الإنسان لا ينتفع بعمل غيره يوم القيامة وإنما ينتفع بعمله هو وليس بعمل غيره، فإن قال قائل: ما يقدمه الإنسان من خير ونفع لغيره ينتفع به يوم القيامة؟ قيل: هذا التقديم للخير من عمل المقدم فينتفع به يوم القيامة لأنه عمله وليس لأنه عمل قريبه.

١٩. الدلالة على أن الجزاء من جنس العمل؛ وذلك أن أهل الإيمان لما أقبلوا على الحق بوجوه مسفرة ضاحكة طالبة للحق والهدى مستبشرة، جعلهم الله كذلك يوم القيامة، وأن الكافرين

لما لاقوا دعوة الحق بوجوه مقفهرة كأن على وجههم الغبار وقد اسودت وقد حنقوا من أهل الدعوة، فإنهم كذلك سيكونون يوم القيامة.

تفسير سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا
الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ
سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ
كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ
نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ
إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي
قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ ....

موضوع السورة:

سورة التكوير سورة مكية ذكر الله فيها من أحوال يوم القيامة ما يستدعي الاستعداد لها بالتمسك بكتاب الله عز وجل والاستقامة على صراطه المستقيم، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾»(١).

معاني الآيات:

ذَكَرَ اللهُ عز وجل وعلا في أول سورةِ التكويرِ الوقائعَ الهائلةَ التي تقع في يوم القيامة، على صيغةِ الشرط بحيث تكونُ تلك الوقائعُ متنافيةً مع طبائعِ الأجسامِ التي وَقَعَتْ لها تلك الوقائعُ في بادئ الرأي والظن.

أولُ ذلك قوله جلا وعلا: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾: (الشمسُ) كوكبٌ عظيمٌ مشرقٌ مُضِيءٌ، لكنه في يومِ القيامةِ يُلَفُّ وَيُجْعَلُ بعضُه على بعضٍ حتى ينطمسَ نُورُهُ، بَعدَ أن كان عظيمًا مُضِيئًا مشرقًا يَصِلُ نُورُهُ إلى كُلِّ مكانٍ، لكنه غُيِّرَتْ حالُه وَتَبَدَّلَ أَمْرُهُ فَكُوِّرَ، والتكوير أُخِذَ مِنْ كَوَّرَ العمامةَ أي: لفها؛ فإن الإنسانَ إذا لف العمامةَ بعضَها على بعض على رأسه، يقال له: كَوَّرَهَا، وحينئذ قيل في تفسير قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ أي: لُفَّ بعضُها على بعضٍ حتى انطمسَ نورُها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٣) وأحمد ٢/٢٧ والحاكم ٤/٦٢٠.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾ ....

وأما العلامةُ العظيمةُ الثانيةُ التي تحصل يومَ القيامةِ فقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾: (النجومُ) أجرامٌ سماويةٌ نُشَاهِدُ منها نورًا، وهي أجرامٌ عظيمةٌ، وإنما شاهدنا منها هذا النورَ اليسيرَ لكونها بعيدةً جداً عنا، فهي عاليةٌ علوًّا بعيدًا، لكنها في يومِ القيامةِ تتساقطُ، فبدلَ أن كانت عاليةً معلقةً بين السماء والأرض تساقطت وهوت إلى الأرض، فإذا أَرَدْتَ أن تعيشَ تلك المواطنَ فَتَصَوَّرْ نفسَك فيها.

ثم قال تعالى في ذِكْرِ العلامةِ الثالثةِ من علاماتِ يومِ القيامةِ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾: (الجبالُ) أجرامٌ عظيمةٌ وهي كبيرةُ الحجمِ وَالْمِقْدَارِ، يصعبُ على الإنسانِ أن يحملَ حَجَرةً منها، لكنها في يومِ القيامةِ تتغير صفاتُها وتتبدل حالُها، وذلك أنها تصبحُ كالهباءِ المنثورِ وتصبحُ كالعهنِ المنفوشِ وتصبحُ تسير بمثابةِ السحابِ ونحوِه.

أما العَلامَةُ الرابعةُ من علاماتِ ذلك اليومِ فهي أَنَّ أصحابَ الأموالِ لا يهتمونَ بأموالِهم العظيمةِ النفعِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾ (العشارُ) المرادُ بها النوقُ التي قَارَبَتِ الولادةَ، (عُطِّلَتْ) أي: تُرِكَتْ وَأُهْمِلَتْ ولم يَعُدْ للناسِ رغبةٌ لأَنْ يمتلكوها؛ لأن الشأنَ عندهم أعظمُ من أن يلتفتوا إلى هذه الإبل، فكلٌّ مشغولٌ بنفسه، بينما في الدنيا كانت هذه النوقُ أفضلَ أموالِ العربِ، هي التي يتنافسونَ فيها.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ ....

أما العلامةُ الخامسةُ فهي قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ (الوحوشُ) هي الحيواناتُ البَرِّيَّةُ المفترسةُ التي يَهْرُبُ بعضُها من بعضٍ، فإذا جاء يومُ القيامةِ جُمِعَتْ في مقامٍ واحدٍ، كانت سابقًا ينفر بعضُها من بعضٍ، ولكنها في يوم القيامة تُجمع حتى تكونَ في محلٍّ واحدٍ.

وأما العلامةُ السادسةُ فهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾: (البحارُ) هي هذه المياهُ عظيمةُ المساحةِ، ومن المعلومِ أن المياهَ تُطْفَأُ بها النيرانُ، لكن في يوم القيامة تنقلبُ مياهُ البحار فتكون نيرانًا، فَانْظُرْ كيف خَالَفَ اللهُ طبيعتها الأولى وجعلها بدلَ أن تكون ماءً باردًا تُطْفَأُ به النارُ جعلها مُسَجَّرَةً نارًا. فقوله: [سُجِّرَتْ] أي: أُوقِدَتْ.

ثم قال سبحانه في ذِكْرِ العلامَةِ السابعةِ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أي: ضُمَّ الناسُ بعضُهم إلى بعضٍ بعد أن كانوا في الدنيا يتنافرون، وكانوا في الدنيا يَتَحَزَّبُونَ ويتعصبون وهم قبائلُ شَتَّى وشعوبٌ مختلفةٌ، ففي يومِ القيامةِ يُحْشَرُونَ في محلٍّ واحدٍ.

ثم قال تعالى في ذلك المَوْطِنِ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾: (الموءودةُ) هي الجاريةُ الصغيرةُ؛ كان العرب في جاهليتهم إذا جاءتهم الجاريةُ الصغيرةُ دَفَنُوهَا وهي حَيَّةٌ، فَمِثْلُ هذه لا يمكن أن تنصرَ نفسَها لكنها في يوم القيامة يَنْقَلِبُ الحالُ فتكونُ مسئولةً.

قال تعالى: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾: أي: أَنَّ قَتْلَهَا لم يكن بذنبٍ منها،

بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ ....

وفي بعض القراءاتِ: «وَإِذَا المَوْءُودَةُ سَأَلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قَتَلْتَ»[1] كأنها تتوجهُ إلى قاتِلها وتسأله عن السببِ الذي جَعَلَهُ يقتلها.

وأما العلامَةُ التاسعةُ فهي قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾: المرادُ بالصُّحُفِ الأوراقُ التي يُسَجَّلُ فيها مصيرُ كُلِّ واحدٍ منا، فَتُوَزَّعُ على الناسِ وَيُعْطَى كلُّ إنسانٍ صَحِيفَتهُ، منهم من يُعطى بيمينه، ومنهم من يُعطى بِشِمَالِهِ من وراءِ ظهرِه.

وأما العلامَةُ العاشرة فهي قولُه عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١﴾: أي: أن الله جل وعلا يجعل السماءَ - التي هي بناءٌ شديدٌ غليظٌ - مكشوطةً أي: مأخوذةَ الطَّرَفِ.

والعلامَة الثانية عشرةَ فهي قولُه عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢﴾: (الجحيمُ) نارُ جهنمَ، والمرادُ بقوله: (سُعِّرَتْ) أي: زِيدَ في وقودها لِيُخَوِّفَ اللهُ بها أعداءَه، وليس المرادُ أنها لا تُوقَدُ إلا في ذلك اليومِ، بل نارُ جهنمَ الآنَ موقدةٌ لكنها في يومِ القيامةِ يُزَادُ في إيقادها.

ثم قال سبحانه في ذِكْرِ العلامَة الثانية عشرةَ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣﴾: (الجنةُ) دارُ النعيمِ في الآخرةِ، هي دارُ البقاءِ الدائمِ هي التي تحوي على رضوانِ اللهِ جل وعلا، ويتمكن أهلُها من الاستمتاعِ بأنواعِ الملاذِّ، وقوله:

(١) وهي قراءة أبي صالح، وجابر بن زيد، وأبي الضحى، والضحاك بن مزاحم. انظر: النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٤/٤٨٠) تفسير الطبري (٢٤/٢٤٦).

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ....

[**أُزْلِفَتْ**]: أي: قُرِّبَتْ، فتقرب لأوليائها، وتقرب لأصحابها؛ ليتمكنوا من دخولها.

ثم قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾: هذه الجملةُ جوابُ الشرطِ، إذا حَصَلَتِ الأمورُ السابقةُ فحينئذ سَتَعْلَمُ كُلُّ نفسٍ ما أَحْضَرَتْ، وقوله: [**عَلِمَتْ**]: أي: تَيَقَّنَتْ، والنفسُ هنا تشملُ كُلَّ نفسٍ، سواءٌ كان رجلاً أو امرأةً، سواء كان إِنْسًا أو جِنًّا، سواء كان فاجرًا فاسقًا أو كان مُتَّقِيًا مُطِيعًا، سواء كان مؤمنًا أو كافرًا، كُلُّ النفوسِ ستعلمُ في ذلك الموطنِ [**ما أحضرتْ**] أي: ما أَتَتْ به من عملٍ صالحٍ أو عملٍ سوءٍ؛ فإن الله جل وعلا قد أَخْبَرَ أن النفوسَ في يومِ القيامةِ سَتَتَذَكَّرُ أعمالَها الصالحةَ التي أَدَّتْهَا في الدنيا، وحينئذ يندم أهلُ الشقاوةِ أهلُ العملِ السيئِ، بخلافِ أهلِ الطاعةِ والتقوى والسعادةِ، فإنهم في ذلك الموطنِ يَسْتَبْشِرُونَ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

ثم قال جل وعلا: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾: نفيُ الْقَسَمِ بالنسبةِ لله عَزَّ وجل فيه تنبيهٌ على عِظَمِ هذه الأشياءِ التي نفى قَسَمَهُ بها.

وقوله تعالى: [**بِالْخُنَّسِ**]: المرادُ (بالخنسِ)[1] الكواكبُ السيارةُ مثل عطارد والزهرة والمريخ ونحوها، وهن جَوَار لأنهن يَسِرْنَ سَيْرًا.

---

(١) توقف ابن جرير في المراد بـ (الخنس) هل هي النجوم، أو الظباء، أو بقر الوحش، ويحتمل أن يكون الجميع مراداً.

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ ....

قوله تعالى: ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ١٦﴾: يعني أنها تجري على فَلَك محدود. و[**الْكُنَّسِ**]: يعني أنهن يَرْجِعْنَ، وقيل بأن من صفاتِ هذه الكواكبِ أنها مَرَّةً تظهرُ ومرةً تَخْفَى؛ ولذلك قال عنها: الْخُنَّسِ؛ لأن المرادَ بالخانسِ هو الذي يَخْفَى، لذلك قال جل وعلا في وصف الشيطان: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] (الْوَسْوَاسُ): أي: الذي يُوَسْوِسُ في الصدور عند غفلتها عن ذكر الله، و(الخناسُ): أي: الذي ينقمع ولا يتمكن من الوسوسةِ متى أَكْثَرَ الناسُ من ذِكْرِ اللهِ عز وجل.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧﴾: أي: أن الله عز وجل يُقْسِمُ بالليل، والليلُ آيةٌ من آياتِ الله هي أَحَدُ جُزْئَيِ اليومِ، وهي الجزءُ المظلمُ، وقوله: [**إِذَا عَسْعَسَ**]: قيل: دَخَلَ، وقيل: خَرَجَ، ولا يمتنع أن يكون قَسَمُ الله بدخول الليل وبخروجه بهذا اللفظِ الواحدِ؛ وذلك أنه عندَ دخولِ الليلِ وعندَ خروجِه يكون هناك من المناظرِ البديعةِ للشمسِ وللشفقِ، ويكون كذلك هناك حوادثُ أرضيةٌ تَحْدُثُ في هذا الوقتِ؛ ولذلك أَقْسَمَ اللهُ به.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾: (الصبحُ) للعلماء فيه قولانِ مشهورانِ: القولُ الأولُ: أن المرادَ بالصبحِ أولُ النهارِ، والقول الثاني: أن المرادَ به جميعُ النهارِ، وقوله تعالى: [تَنَفَّسَ] قيل: أَضَاءَ. وقيل: ازْدَادَ، ويحتمل أن يكونَ الجميعُ مرادًا، وإن كان تفسيرُها بالازديادِ أوضحَ من جهةِ لغةِ العربِ؛ لأنه يقال للشيء: تَنَفَّسَ، متى زَادَ.

ثم قال جل وعلا مُبَيِّنًا جوابَ الْقَسَمِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾: أي: هذا القرآنُ العظيمُ قد نَقَلَهُ جبريلُ من الله عَزَّ وجل، وليس المرادُ بقوله: [إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ] أن جبريلَ هو الذي تَكَلَّمَ به ابتداءً؛ ولذلك وصف جبريلَ بأنه رسولٌ ولو كان هو المتكلمَ به ابتداءً لقال: لقولُ مَلَكٍ كريمٍ، لكن لَمَّا وَصَفَهُ بأنه رسولٌ دَلَّ هذا على أنه مُبَلِّغٌ لهذا الكتابِ ولم يَتَكَلَّمْ به من عندِ نَفْسِهِ ابْتِدَاءً.

وَيَدُلُّ على ذلك أن الله جل وعلا قد وصفَ هذا الكتابَ بأنه كلامُ الله، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

ويدل على ذلك أن في آياتِ القرآنِ إخبارًا عن الله عز وجل لا يمكن أن يتكلم به إلا هو سبحانه، كما في قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وكذلك في آيات القرآن إخبارٌ عن جبريل عليه السلام على جهة الغيبة؛ فلو كان المتكلمُ بالقرآن من عند نفسه لكان يُخْبِرُ عن نفسِه بصيغةِ المتكلم لا بصيغةِ الغيبةِ، ومن هنا عَلِمْنَا أن هذا القرآنَ هو كلامُ ربِّ العالمين بلفظِه؛ فإن الله قد تَلَفَّظَ وَتَكَلَّمَ به حقيقةً.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾: رسول: أي: أنه مُرْسَلٌ من عند الله، أراد الله جَلَّ وعلا أن يبينَ أن إسنادَ هذا القرآنِ إسنادٌ قويٌّ متينٌ يَلْزَمُكُمْ أن

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ ....

تُؤْمِنُوا به وَتُصَدِّقُوهُ ؛ فإن الناقلَ له هو جبريلُ عليه السلامُ.

وجبريلُ عليه السلام له عدد من الصفات :

الصفةُ الأُولَى : أنه رسولٌ من عند الله، موصوف بالرسالة من الله عز وجل.

الصفةُ الثانيةُ : أنه كريمٌ لا يمكن أن تُؤَثِّرَ فيه أُعْطِيَاتُ الآخَرِينَ فَيُغَيِّرَ في رسالته.

الصفةُ الثالثة : أنه ذو قوة، ليس بضعيف تؤثر فيه قوةُ الأقوياءِ فيتمكنون من صَرْفِهِ وَجَعْلِهِ يُحَرِّفُ في الرسالةِ التي ينقلها.

الصفةُ الرابعة : أن له مكانة عند الله عز وجل، كما قال تعالى : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ أي : له مكانةٌ وَمَنْزِلَةٌ عند ذي العرش.

الصفةُ الخامسة : أنه مطاعٌ : أي : أن الملائكةَ يطيعونه، فجبريلُ عليه السلام لا يطيعُ أحدًا إلا الله، ومن هنا فلا يمكن أن يقال : إن أحدًا قد أمره بأن يغيرَ هذا القرآنَ فأطاعه ؛ لأن جبريلَ مطاعٌ وليس مُطِيعًا لغيرِ اللهِ، كما قال تعالى : ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾.

الصفةُ السادسة : أنه أَمِينٍ، أي : أنه مُؤْتَمَنٌ على هذه الرسالةِ ليس عنده خيانةٌ، فهو بصفةِ الأمانةِ لا يمكنُ أن يُحَرِّفَ في هذه الرسالةِ شيئًا.

وجبريلُ عليه السلام بَلَّغَ القرآن للنبي ﷺ وهذه درجةٌ أخرى من درجاتِ هذا الإسنادِ، وقد وصفَ اللَّهُ عز وجل هذا النبيَّ الكريمَ بما يُلْزِمُ

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ ....

الآخرين أن يَقْبَلُوا بِتَبْلِيغِهِ لشريعةِ اللهِ، فقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾: كأنه يقول لهم: أَنْتُمْ تعرفونَ محمداً وتعرفونَ صفاتِه العظيمةَ الجليلةَ وتعرفون أمانته وصدقه وشفقته عليكم، فكيف لا تصدقونه وكيف لا تَقْبَلُونَ منه؟! ثم هو ليس بِمَجْنُونٍ بحيث تَسْتَوْلِي عليه الجنُّ فيتكلم بالكلامِ وَيَنْسِبُ إلى اللهِ ما لم يتكلم به رَبُّ العزةِ والجلالِ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾: يعني أن النبيّ ﷺ قد رأى جبريلَ عليه السلامُ؛ فروايتُه عن جبريلَ متصلةُ الإسنادِ وليس بينهما واسطةٌ، فإذا اتَّصَلَ الإسنادُ لم يكن لكم مَطْعَنٌ في كتاب الله تعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾: أي: أن النبيَّ ﷺ ليس بشحيحٍ في إِخْبَارِكُمْ بالوحيِ الذي يَرِدُ إليه، فلم يُخْفِ شيئًا من الوحي، بل قد بَلَّغَكُمْ إياه جميعًا ولم يُخْفِ شيئًا من هذه الشريعةِ وليس بمتهم ولا كاذب.

قال عز وجل: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾: أي: أن هذا القولَ ليس بأقوالِ الشياطينِ الْمُبْعَدَةِ، الرجيمُ يعني الْمُبْعَدُ؛ فإن أقوالَ الرحمنِ عليها من النورِ والبهاءِ، وفيها من الإقناعِ وَالْهُدَى ما يجعل كُلَّ عاقلٍ يُفَرِّقُ بين هذا الكلامِ وبين أقوالِ الشياطينِ، فإذا كان الأمرُ كذلك فقد قُطِعَتْ جميعُ الْحُجَجِ عليكم، فَيَلْزَمُكُمْ أن تؤمنوا بهذا الكتابِ.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ ....

قال عز وجل: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾: يعني: ما هو الدليلُ الذي يَبْقَى لكم من أَجْلِ أن تَسْتَمِرُّوا على حالكم فلا تُوقِنُوا بهذا الكتابِ ولا تؤمنوا بهذا الرسولِ، ما هو الدليلُ الباقي معكم الذي تَسْتَدِلُّونَ به على استمرارِكم في طغيانِكم وأين تذهب عقولكم عند تكذيبكم لهذا القرآن.

قال عز وجل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧﴾: أي: ليس هَذَا الكتابُ وهذه الرسالةُ إِلا ذِكْرٌ للعالمين، فهي شاملةٌ للإنسِ والجنِّ، لكنها (ذِكْرٌ) أي: موعظةٌ وليس فيها إلزامٌ، فالناسُ عندهم اختيارٌ بعضُهم يختارُ الْهُدَى فيكون سببَ سعادتِه في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وبعضُهم يختار الضلالةَ فيكون سببَ ضلالِه وشقاوته في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾: في هذا دلالةٌ على إثباتِ أن العبدَ له مشيئةٌ، وأن دخولَه لطريقِ الهدايةِ أو الغوايةِ باختيارِه ومشيئتِه، ولا ينافي هذا أن تكون مشيئتُه مرتبطةً بمشيئةِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن الله قادرٌ على أن يجعلَ للعبدِ مشيئةً واختيارًا، وقادرٌ على معرفةِ هذه المشيئةِ والاختيارِ قبل أن يختارَ العبدُ، وقادرٌ على أن يشاءَ مشيئةَ العبدِ باختيارِ طريقِ السعادةِ أو الضلالِ ولو لم يَخْتَرِ العبدُ بعدُ، فهذا من قدرةِ الله تعالى.

ومن أسبابِ ضلالِ الناسِ في بابِ القضاءِ والقدرِ:

أنهم يَقِيسُونَ قدرةَ اللهِ جل وعلا على أنفسهم؛ فَيَضِلُّونَ في هذا الباب، فتأتي طائفةٌ فتنفي مشيئةَ الله وَتُثْبِتُ مشيئةَ العبدِ، فتقول بأن

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾.

الإنسانَ مُخَيَّرٌ وليس بِمُسَيَّرٍ، وبالتالي يقولون: إذا شاء اللهُ أن يفعلَ العبدُ شيئًا وشاء العبدُ شيئًا وقع ما شاءه العبدُ، عِيَاذًا بالله من مقالتهم السيئةِ، فإن مشيئةَ الله غالبةٌ، وفي المقابلِ غَلَتْ طائفةٌ أخرى فَقَالَتْ بأن مشيئةَ الله غالبةٌ، وَرَتَّبُوا على ذلك ألا مشيئةَ للعبدِ، وقالوا بأن العبدَ بمثابةِ ورقةِ الشجرةِ في مهبِّ الريحِ، ولذلك قالوا: الإنسانُ مُسَيَّرٌ مجبورٌ في أعماله كُلِّهَا، وهذانِ القولانِ كلاهما قَوْلٌ خَاطِئٌ.

والصوابُ في هذا: أن العبدَ مُسَيَّرٌ وَمُخَيَّرٌ في وقتٍ واحدٍ، وأن للعبدِ مشيئةً وَلِلهِ مَشِيئَةً، ومشيئةُ العبدِ مرتبطةٌ بمشيئةِ الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾: فأثبتَ للعبدِ مشيئةً وإرادةً، والمرادُ بالاستقامةِ الاستمرارُ على الطريقِ المختصرِ الموصلِ إلى المطلوبِ، طريقُ الهدايةِ ولذلك يدعو العبد ربه في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾: فأثبتَ مشيئةَ العبدِ في قولِه: [**وَمَا تَشَاءُونَ**] وأثبت مشيئةَ الربِّ في قوله: [**إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**] وَبَيَّنَ أن مشيئةَ العبدِ مرتبطةٌ بمشيئةِ الخالقِ جَلَّ وعلا، فقال: [**وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**] ثم قال سبحانه: [**رَبُّ الْعَالَمِينَ**] الربُّ هو المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ الذي أَسْدَى إلى عِبَادِهِ الخيراتِ، وقوله: [**الْعَالَمِينَ**] جَمْعُ عالَم، وكل ما سوى الله فهو عالَم، وظاهرُ هذا اللفظِ أنه يشمل جميعَ الكائناتِ؛ فإن اللهَ هو المُنْعِمُ عليها المتفضلُ بالنِّعَمِ عليها، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. عِظَمُ يومِ القيامةِ؛ فإن ذلك اليومَ تَحْدُثُ فيه تلك الحوادثُ الهائلةُ العظيمةُ.

٢. قُدْرَةُ ربِّ العالمينَ على تحويلِ الأشياءِ المتصفةِ بصفاتٍ إلى صفاتٍ تُضَادُّ صفتَها الأُولَى.

٣. عَدْلُ رَبِّ العزةِ والجلالِ بحيث يقتصُّ للمظلومين من الظالمين حتى الموءودة يقتص لها.

٤. بيان أن الصُّحُفَ تُنْشَرُ على العبادِ بأعمالهم.

٥. أن العبدَ يومَ القيامةِ يَسْتَحْضِرُ الأعمالَ التي أَدَّاهَا في الدنيا، ولا تَخْفَى عليه شيءٌ من أمورِه.

٦. قَسَمُ الله عز وجل على عددٍ من الآياتِ الكونيةِ، وهذا خاصٌّ بالله عز وجل؛ فإنه لا يصحُّ أن يُقْسِمَ بغيرِ الله إلا اللهُ جل وعلا، فأما المخلوقُ فلا يجوزُ له أن يُقْسِمَ إلا بالله جل وعلا، كما قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1].

٧. بيانُ أن هذا القرآنَ كلامُ ربِّ الْعَالَمِينَ، وأنه متصلُ الإسنادِ إلى الله عز وجل، ليس في إسنادِه انقطاعٌ، وأن هذا الكتابَ قد تَوَلَّى نقلَه الخيارُ عن الخيارِ من كُلِّ عصرٍ، وإذا كان الله قد ذَكَرَ نَقْلَهُ

---

(١) متفق عليه، سبق تخريجه ص (٣٩).

من جبريل ومن نَبِيِّنَا ﷺ فإننا نعلمُ أن الذين نقلوه كانوا على جهةِ التواترِ في هذه الأمةِ وهذا يجعلنا نُوقِنُ أن هذا الكتابَ هو كلامُ الله الذي أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ ﷺ فهذا الكتابُ متواترٌ يَتَنَاقَلُهُ الملايينُ عن الملايينِ، ما من بلدٍ إلا وهناك أساتذةٌ يدرسُونَ القرآنَ، وهناك طلابٌ يتدارسونَ القرآنَ، وهذا القرآنُ كتابٌ واحدٌ، لا تجد فيه اختلافًا، ولا تجدُ في نُسَخِهِ تَضَادًّا ولا تَقَابُلًا بل كلها متواترةٌ، بخلافِ الكتبِ السابقة فإن الإنسانَ إذا قارنَ بينها وجدها متفاوتةً مختلفةً ليس بين بعضِها أوجهُ شبهٍ إلا في أمورٍ نادرةٍ.

٨. تنزيهُ النبيِّ ﷺ من بعضِ الصفاتِ التي يذكرها عنه الكفارُ، مع أن الله عز وجل قد أشار في هذه الآيات إلى أن هؤلاء الكفارَ يُوقِنُونَ بأن ما يتكلمون به كذبٌ كما في قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾: فكأنه يقول: أنتم تعرفون أنه ليس مُتَّصِفًا بهذه الصفاتِ.

٩. أن أهلَ الباطلِ ليس لهم حُجَّةٌ قائمةٌ صحيحةٌ، وإنما الذي عندهم تَمْوِيهَاتٌ باطلةٌ وأكاذيبُ وزخارفُ في القولِ.

١٠. أن طريقَ الحقِّ وَالْهُدَى مفتوحٌ، ومن شاءَه فإن بابَ الخيرِ أَمَامَهُ.

١١. أنه لا يصحُّ لإنسانٍ أن يستدلَّ على ضلالِه بالْقَدَرِ، فلا يقول: هذا قَدَرُ الله عَلَيَّ؛ لأن اللهَ قد أَثْبَتَ للعبدِ مشيئةً

واختيارًا، والعبدُ لا يُجيزُ لأحدٍ أن يستدلَّ عليه بالْقَدَرِ؛ إذ لو جاء شخصٌ إلى آخرَ فَضَرَبَهُ فقال: لِمَ ضَرَبْتَنِي؟ قال: هذا بِقَدَرِ اللهِ، هل يُقْبَلُ منه؟ وهكذا لو جاء إنسانٌ فأخذ مَالَكَ فسألته، قال: هذا ما قَدَّرَهُ الله عليكَ. فإنكَ لا تُجِيزُ هذا الاحتجاجَ، فهكذا إقدامُك على المعصيةِ لا يَصِحُّ لكَ أن تستدلَّ فيه بالقَدَرِ؛ لأن لكَ اختيارًا ومشيئةً في الإقْدَامِ على هذا الفعلِ.

١٢. عظيمُ نعمةِ الله على جميعِ المخلوقاتِ في قولِه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٣. إثباتُ مشيئةِ العبدِ وإثباتُ مشيئةِ الخالقِ وإثباتُ أن مشيئةَ العبدِ مرتبطةٌ بمشيئةِ الخالقِ جل وعلا.

١٤. جواز تربية الإبل واتخاذها والاعتناء بها؛ إذ لم يعب على العرب اهتمامهم بالعشار في الدنيا.

١٥. كمال الشريعة وتبليغ النبي ﷺ لها كاملة.

تفسير سورة الانفطار

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا
ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ
مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ
صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ
عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ
﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾
يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا
يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا
تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ ....

موضوع السورة:

سورةُ (الانْفِطَارِ) سورةٌ مكيةٌ، ذكر الله جل وعلا فيها صورَ يومِ القيامةِ، وقد جاء في سُنَنِ الترمذيِّ ومسندِ أحمدَ أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرأْ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾»[(١)].

معاني الآيات:

في أولِ السورةِ ذَكَرَ اللَّهُ جل وعلا شيئًا من مشاهد يومِ القيامةِ في أمورٍ كانت في الدنيا سَاكِنَةً مُسْتَقِرَّةً غيرَ متحركةٍ تَحَرُّكًا مُلاَحَظًا، لكنها في يومِ القيامةِ تتبدَّلُ حالتُها وتَتَغَيَّرُ لِتكُونَ بِضِدِّ ذلك:

المشهد الأول: قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾: نحن نرى السماءَ ساكنةً ليس فيها حركة؛ لكنها في يومِ القيامةِ تتغير، ويَتَهَوَّلُ الناسُ منها عندما تنفطر أي: تنشقُّ فوقَ رءوسهم، فهذا الانشقاقُ للسماءِ وهذا الانفطارُ لها يخالفُ طبيعتَها الساكنةَ التي كانت عليها في الدنيا.

فما حالكم أنتم، يا بني آدم، وأنتم أضعف من السماء؟.

المشهد الثاني: قال عنه جل وعلا: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾: هذه الكواكبُ أجرامٌ سماويةٌ مُنِيرَةٌ نَرَاهَا على بُعْدٍ، ونرى حَرَكَتَهَا قليلةً نادرةً،

---

(١) سبق تخريجه ص (٨١).

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ ....

فهي في علوها وبعدها بمثابةِ الساكنةِ بالنسبةِ لأَعْيُنِنَا ، لكنه إذا جاء يومُ القيامةِ تناثرت هذه الكواكب ، بمعنى أنها تساقطت من السماءِ وَتَفَرَّقت بعد أن كنا في الدنيا نراها في السماءِ ، في ذلك اليومِ يراها الناس وهي تسقط وتتناثرُ أمام أعينهم ، وهذا يخالفُ طبيعتَها التي كانت عليها في الدنيا.

المشهد الثالث : هو قوله جل وعلا : ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ : البحارُ في غالبِ أحوالها في الدنيا سَاكِنَةٌ مُسْتَقِرَّةٌ إلا في أحوالٍ يسيرةٍ ، لكنها في يومِ القيامةِ تُفَجَّرُ لأَنَّهَا تُسَجَّرُ وَتُصْبِحُ البحارُ مَحَلاً لتفجيراتٍ عديدةٍ ، فَتَغَيَّرَتْ حالتُها الأُولَى التي اعتادَ الناسُ عليها إلى حالةٍ أُخْرَى.

المشهد الرابع : في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ : إذا دَخَلْنَا المقابرَ وجدناها ساكنةً مستقرةً لا حركةَ فيها ، لكنها في يومِ القيامةِ تَتَبَدَّلُ أحوالُها ، فإنها تُبَعْثَرُ ويخرجُ ما فيها من الأجسادِ ويكون فيها حركةٌ مغايرةٌ في ذلك لحالتها وطريقتها في الدنيا ، فإذا حَصَلَتْ هذه الأمورُ وبلغت القلوب الحناجر وزلزل الناس من هول ما يرون من هذه المشاهد المرعبة المخيفة ، فحينئذ : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ علِمَتْ نفسٌ جميعَ الأعمالِ التي أَدَّتْهَا في الدنيا : [**مَا قَدَّمَتْ**] أي : مَا عَمِلَتْ من الأعمالِ ، سواءً كان خَيْرًا أو شَرًّا.

وقوله تعالى : [**وَأَخَّرَتْ**] أي : الأعمالُ التي كان الإنسانُ سببًا فيها وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا بنفسه ، ومن أمثلةِ ذلك الوصيةُ التي يُوصِي بها الإنسانُ ،

وهي مما أَخَّرَ الإنسانُ، والأوقافُ التي يجعلها العبدُ فإنه ينتفعُ بها يومَ القيامةِ أعظمَ الانتفاعِ، ومن ذلك أيضًا الْعِلْمُ النافعُ الذي يَبُثُّهُ الإنسانُ إما بتكلُّمِه به أو بطبعِ كُتُبِهِ أو نحوِ ذلك، فإن هذا مما يُؤخِّرُ الإنسان، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١).

وَقَوْلُهُ عز وجل هنا: [**عَلِمَتْ نَفْسٌ**] أي: أن جميعَ النفوسِ تَعْلَمُ وَتَجْزِمُ وتَتَيَقَّنُ بما قَدَّمَتْهُ وأَخَّرَتْهُ في الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾: رَبَّ العزةِ والجلالِ يُوَجِّهُ السؤالَ إلى الإنسانِ بعدَ نِدَائِهِ فيقول: ما هي الأسبابُ التي تَجْعَلُكَ تَغْتَرُّ بالله، ولا تُقَدِّرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، ولا تقومُ بعبادتِه على وَفْقِ ما أَمَرَ به، مع أنك ستكونُ عما قريبٍ بين يَدَيِ اللَّهِ؟

هناك أمورٌ كثيرةٌ منها:

أَوَّلُهَا: جهلُ الإنسانِ؛ فَإِنَّ الإنسانَ متى كان جاهلاً فإنه حينئذ سيكونُ مُغْتَرًّا بالله عز وجل؛ إِذْ لم يَعْرِفْ صفاتِ اللَّهِ فَاغْتَرَّ بذلك.

ثانيها: تقديمُ أمورِ الدنيا على الآخرةِ، فَكَوْنُ الإنسانِ ينظرُ إلى ما تحتَ قَدَمَيْهِ ولا ينظرُ إلى العاقبةِ الحميدةِ التي أَعَدَّهَا اللَّهُ لأوليائه المؤمنين تجعلُه حينئذ يَغْتَرُّ بالله جل وعلا.

ثالثها: اتباع الشيطان العدوّ الرجيم؛ فإن هذا العدوَّ لا يزالُ يحاولُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ ....

ثم أقام اللَّهُ جل وعلا عددًا من الأدلةِ التي تجعلُ الإنسانَ لا يغترُّ بالله عز وجل.

الدليل الأول: في قوله عز وجل: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾: لأن الربَّ هو المُنْعِمُ المتفضلُ، والكريمُ هو المُسْدِي بالإحسانِ والنعمِ، فَرَبُّكَ الذي أَنْعَمَ عليكَ بهذه النعمِ وَنِعَمُهُ لا زالت تترى عليكَ كيف تغترُّ به وهو القادرُ على إعطائك هذه النعمَ المُسْدِي بها إليك وهو قادرٌ على سَلْبِهَا منك.

الدليل الثاني: قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾: أي: أن اللَّهَ جل وعلا يُذَكِّرُ الإنسانَ بِنَشْأَتِهِ الأولى، فاللهُ جل وعلا هو الذي خَلَقَ الإنسانَ فأوجده من العدمِ وَحَوَّلَهُ من حالٍ إلى حالٍ، فقوله: [**خَلَقَكَ فَسوَّاكَ**]: أي: جَعَلَكَ مُسْتَوِيًا ليس هناك مَيَلانٌ في أعضاءِك. [**فَعَدَلَكَ**] أي: أن أعضائك معتدلةٌ ليس فيها جَنَفٌ ولا ظُلْمٌ، فإذا نظر الإنسانُ إلى شكلِ بَنِي آدَمَ وَجَدَ أن هذا الْخَلْقَ أحسنُ الصور، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] يعني: في أعدل خلق، وأحسن صورة.

الدليل الثالث: قوله سبحانه: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: يعني أن الصورةَ التي وُجِدْتَ عليها إنما وُجِدْتَ عليها بمشيئةِ اللَّهِ ليس لك يدٌ في هذه الصورةِ، وإنما وُجِدَتْ هذه الصورةُ بمشيئةِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ وتقديرِه جل وعلا، فهذا الإلهُ الذي أَوْجَدَكَ على هذه الصورةِ بدونِ أن يكونَ لك يدٌ هل تَغْتَرُّ به! ثم هذا الإلهُ الخالقُ جَلَّ وعلا قادرٌ على إِنْشَاءِ أَبْنَائِكَ على أي

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ ....

صورةٍ شاء! فحينئذ هل تتمكن أن تجعلهم على صورةٍ أخرى؟ لا واللهِ لا تتمكنُ، فإذا كان الأمرُ كذلك فهذا يَدُلّكَ على قدرةِ اللهِ جل وعلا فكيف تَغْتَرُّ بهذا الربِّ القادرِ جل وعلا؟

الدليل الرابع من الأدلةِ التي تجعلُ الإنسانَ لا يغترُّ بِربِّهِ: قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾: الدِّينُ يرادُ به الجزاءُ والحسابُ في يومِ القيامةِ فكأنَّ اللهَ يقولُ: يا أيها الناسُ إنكم عمَّا قريبٍ ستنتقلون من الدنيا إلى الآخرةِ فَتُحَاسَبُونَ على أعمالكم، فَمَنْ كان سَيَنْتَقِلُ إلى الدارِ الآخرةِ فَيُحَاسَبُ على أعمالِه هل يَغْتَرُّ بِرَبِّهِ الذي يُحَاسِبُهُ على هذه الأعمالِ؟

الدليل الخامس: قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠﴾: أي: أن اللهَ قد رتب عليكم ملائكةً حَافِظِينَ أي: يحفظون أعمالَكم وَيُحْصُونَهَا عليكم، كما قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] وقد يُرَادُ أن الملائكةَ يحفظونَ أبناءَ آدمَ من كثيرٍ من الشرورِ.

فالله جل وعلا قد وَكَّلَ بالناسِ ملائكةً يُسَجِّلُونَ أَعْمَالَهُمْ، فَكُلُّ أَقْوَالِكَ وَكُلُّ أَعْمَالِكَ مسجلةٌ محصاةٌ، فإذا كُنْتَ كذلك هل يُنَاسِبُ أن تغترَّ بِرَبِّكَ؟ هل يناسبُ أن تُقْدِمَ على شيءٍ من معاصي اللهِ والملائكةُ معكَ لا يغادرونك ليلاً ولا نهارًا؟

ثم قال سبحانه: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾: أي: لهم مَنْزِلةٌ كريمة عند اللهِ، [**كاتبين**] أي: يُسَجِّلُونَ جميعَ أعمالكم لا يتركون شيئاً ولو كان عملاً قليلاً،

فجميعُ حسناتكم مُسَجَّلَةٌ، وجميعُ سيئاتكم مسجلةٌ، فإذا كان الأمرُ كذلك فكيفَ تَغْتَرُّونَ بالله جل وعلا.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾: أي: أن هؤلاء الملائكةُ يَعْلَمُونَ ما تفعلون، لو أَغْلَقْتَ الأبوابَ عليكَ فإن الملائكةَ سيكونونَ معكَ، لو أتيتَ تحتَ الأرضِ وأَغْلَقْتَ على نفسكَ ولم يتمكن من رُؤْيَتِكَ أحدٌ من الناسِ فإن هؤلاء الملائكةَ يُصَاحِبُونَكَ ويعلمونَ شَأْنَكَ؛ ومن هنا فالعبدُ المؤمنُ يَسْتَحِي من ربه؛ لأنه مُطَّلِعٌ عليه فلا يُقْدِمُ على معصيةٍ، ويستحي من هؤلاء الملائكةِ أن يُسَجِّلُوا عليه عملاً سيئًا يُعْرَضُ على الله يومَ القيامةِ، وإن وَقَعَ في شيءٍ من هذه المعاصي بَادَرَ إلى التوبةِ والإنابةِ والخشيةِ خَوْفًا من أن يُعَاقِبَهُ اللهُ عليها.

الدليل السابع: من الأدلةِ التي تجعلُ الإنسانَ لا يغترُّ بربه جل وعلا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾: يعني الذين يَبَرُّونَ في عبادةِ الله وَيَبَرُّونَ عِبَادَ الله، وقد ذَكَرَ الله تعالى خصالَ البرِّ في قوله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالذين برّوا بأداء فرائض الله وفعلوا ما استطاعوا من أصناف الطاعات، واجتنبوا المعاصي، فأولئك الأبرارُ الذين لم يَغْتَرُّوا بالله عز وجل سَيُعْقِبُهُمُ الله العاقبةَ الحسنةَ في الدنيا وفي الآخرةِ فَهُمْ في نعيمٍ، تُنَعَّمُ قلوبُهم وَتُنَعَّمُ أرواحُهم وتُنَعَّمُ أبدانُهم وهم في الجنان يتنعمون فيها.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٧﴾

الدليل الثامن: من الأدلةِ التي تجعلُ الإنسانَ لا يغترُّ بربه جل وعلا قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ١٤﴾: يعني أولئك الذين خَرَجُوا من طَاعةِ اللَّهِ إلى معصيتِه، وابْتَعَدُوا عن طاعة الله فإنهم في عذابٍ وشقاءٍ في الدنيا والآخرةِ؛ وَعَذَابُ الدنيا قليل مخلوط، وَنَعِيمُ الدنيا قليل مَخْلُوط، وَلَكِنَّ النَّعِيمَ الخالصَ والعقابَ الخالصَ هُوَ في يومِ القيامةِ؛ وإذا كان الأمرُ كذلك فينبغي للإنسانِ أن يتذكرَ يومَ القيامةِ لئلا يغترَّ بربه جل وعلا.

فإذا كانت هذه مصائر الناس؛ إما إلى نعيمٍ وإما إلى جحيمٍ فكيف تغترُّ يا أيها العبدُ المسكينُ بِربِّكَ فتعملُ أعمالاً سيئةً تُورِدُكَ المواردَ المُهْلِكَةَ.

ثم قال سبحانه: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾: أي: أنهم في يومِ الجزاءِ؛ يومِ القيامةِ يَصْلَوْنَهَا فيحيطُ بهم الجحيمُ من كُلِّ جانبٍ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾: أي: أنَّ الفُجَّارَ إذا دَخَلُوا النَّارَ فإنهم لا يَغِيبُونَ عَنِ الْعَذَابِ سَاعَةً وَاحِدَةً، فإذا دَخَلُوا النارَ فإنهم سَيَسْتَمِرُّونَ فيها وَيُخَلَّدُونَ فيها أبدَ الآبادِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ -٧٧] فلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنَ العَذَابِ وَلا يُجَابُونَ إِلَى مَا يَسْأَلُونَ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الرَّاحَةِ ولو يوماً واحداً.

ثم قال جل وعلا تنبيهًا للناسِ على ذلك اليومِ الذي يَغْفَلُ عنه أكثرُ الخلقِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٧﴾: أي: أن يومَ الدينِ وهو يومُ الجزاءِ يومٌ عظيمٌ، شَأْنُهُ كبيرٌ؛ ولذلك أتى اللَّهُ بصيغةِ الاستفهامِ من أجل أن يُنَبِّهَ

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾.

الأذهانَ على عظمته، مما يؤكد على التنبه لهذا اليوم وإلى ما فيه من الأهوال، ثم أَعَادَهُ تَنبِيهًا لشأنه وتعظيمًا لمكانته، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾.

ثم ذَكَرَ سبحانه خَصِيصَتَيْنِ من خصائصِ ذلك اليوم تَدُلُّكَ على عِظَمِهِ:

الأُولَى: قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾: فَكُلّ الناسِ لا يَمْلِكُ بعضُهم لبعضٍ شيئًا، فأنتَ لا تملكُ لأخيكَ شيئًا إذ قد يُؤْتَى بِأَخِيكَ يومَ القيامةِ وأنتَ تُشَاهِدُهُ وتراه فَيُقْذَفُ في نارِ جهنمَ وأنتَ لا تستطيعُ أن تُنْقِذَهُ ولا أن تخففَ من عذابِهِ في ذلك اليومِ، وهكذا قد تَرَى قَرَابَتَكَ الذين كُنْتَ تَظُنُّ بهم الخيرَ يكونُ هذا مصيرَهم وهذا مآلَهم فلا تتمكنُ من نَفْعِهِمْ بشيءٍ.

الثانيةُ: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ فالأمرُ ثابتٌ لله تعالى في الدنيا وفي الآخرةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جل وعلا إذا أرادَ شيئًا في الدنيا فإنما يقولُ له كن فيكون، لكن هناك في الدنيا إِرَادَاتٌ يَظُنُّ أصحابُها أنهم ينفردون بها، وهناك مشيئةٌ للعبادِ، ولذلك في يومِ القيامةِ يَتَيَقَّنُ الناسُ أنه ليس لهم من الأَمْرِ شيءٌ، وأن الأمرَ كُلَّهُ لله، فتنقطعُ الظنونُ في ذلك اليومِ، والذين كانوا في الدنيا يلتفتُون إلى ما يُسَمُّونَهُمْ بالأولياءِ ويطلبون منهم شيئًا من أمورِ الدنيا يَتَبَيَّنُ لهم يومِ القيامةِ أنهم كانوا لا يملكونَ شيئًا، وأن الأمرَ كُلَّهُ لله جل وعلا.

فوائدِ السورة:

في هذه السورة مِنَ الفوائدِ:

١. أن العبادَ يُحَاسَبُونَ على أعمالهم قَلِيلِهَا وكثيرِها كما في قوله: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾.

٢. أن الإنسانَ ينتفعُ بالأعمالِ التي كان سببًا في إيجادها، فَمَنْ دَعَا إلى الله أو سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فإن له مثلَ أَجْرِ عملِه، وهكذا مَنْ كَانَ سَبَبًا في معصيةٍ فإنه ينالُه من الوزرِ مثلُ ما نالَ مَنْ عَمِلَ تلك المعصيةَ بسبب فعلِه، فأولئك الذين يَجُرُّونَ الناسَ إلى الْعُهْرِ والفسوقِ وأنواعِ المحرماتِ سواءً في الإذاعةِ أو القنواتِ أو الإنترنت عليهم من الوزرِ مثلُ ما على مَنْ شَاهَدَهُمْ ومثلُ ما على مَنْ سَجَّلَ شيئًا مِنْ قَنَوَاتِهِمْ فَنَشَرَهُ بعدهم، كُلّ هذا يكونُ على وزرِ المتسببِ الأولِ يكون له مثلُ مَنْ عَمِلَ بهذا العملِ إلى يومِ القيامةِ؛ ولذلك قَارِنُوا بينَ حالِ العلماءِ والقُرَّاءِ والدعاةِ وبين حالِ أولئك الذين يَشْتَغِلُونَ بالمعازفِ أو يشتغلون بالعُرْيِ وتركِ التَّسَتُّرِ.

٣. أن كثيرًا من الناسِ يَغْتَرُّ بالله عز وجل لأسبابٍ مختلفةٍ؛ ولذلك ينبغي أن يحذرَ الإنسانُ من أن يكونَ كذلك.

٤. إقامةُ الأدلةِ الدامغةِ الصحيحةِ الصريحةِ على أن العبدَ العاقلَ لا يُمْكِنُ أن يغترَّ بربه جل وعلا.

٥. تذكيرُ العبادِ بِنِعَمِ اللهِ عليهم لِيَشْكُرُوهُ جل وعلا.

٦. التذكير بقدرةِ اللهِ سبحانَه وتعالى على خلقِ الإنسانِ وتسويةِ أعضائِه واعتدالِ هذه الأجزاءِ وتصويرِ صورتِه ؛ مِمَّا يَجْعَلُ الإنسانَ يخافُ من الربِّ جل وعلا.

٧. إثباتُ أن الملائكةَ يُسَجِّلُونَ أعمالَ بني آدمَ، مما يجعلُ الإنسانَ يتحرزُ أن يتكلمَ بكلامٍ يكون وَبَالاً عليه يومَ القيامةِ، أو يفعل فِعْلاً يكونُ من أسبابِ خَسَارَتِهِ وَهَلاَكِهِ في الدَّارَيْنِ.

٨. تذكيرُ الناسِ بمخلوقاتِ اللَّهِ جل وعلا ؛ من الملائكةِ فإنها كثيرةُ العددِ مما يَدُلُّكَ على عظمةِ رَبِّكَ خَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا وَمُصَرِّفِهَا جل وعلا.

٩. التذكيرُ بالمآلِ الحَسَنِ لأهلِ الأعمالِ الصالحةِ والتنفيرُ من العاقبةِ السيئةِ لأهلِ الأعمالِ السيئةِ.

١٠. أن الأعمالَ جزءٌ من أجزاءِ الإيمانِ لأَنَّ البرَّ يدخلُ فيه كثيرٌ من الأعمالِ.

١١. أن العقابَ المتمحضَ والنعيمَ المتمحضَ إنما يكونُ في الآخرةِ، وأما الدنيا فَنَعِيمُهَا مشوبٌ وَعِقَابُهَا مخلوطٌ بغيرِه.

١٢. أن الجنةَ والنارَ خَالِدَتَانِ أَبَدًا لا تفْنَيَانِ ؛ لقوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ⑯﴾.

١٣. أن الناسَ لا ينفعُ بعضُهم بعضًا في يومِ القيامةِ ولا يَمْلِكُونَ

ذلك ولو أَرَادُوهُ.

١٤. أن الأمورَ تتمحضُ لله ولا يكونُ للناسِ في يومِ القيامةِ إرادةٌ ولا مشيئةٌ في تدبيرِ الأمورِ، وأن الله جل وعلا ينفردُ بتدبيرِ الأمورِ في ذلك اليومِ.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا
كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي
سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾
ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا
إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ
﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ
مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ
﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ
هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ
﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ①..

موضوع السورة:

تضمنتْ هذِه السورةُ التذكيرَ باليومِ الآخرِ والاستعدادَ لهُ بإصلاحِ أحوالِ الدنيا، فقد جاءت شريعةُ الإسلامِ بإثباتِ معانٍ عظيمةٍ تَصْلحُ بها أحوال الناسِ، ومما جَاءت بِهِ هذهِ الشريعةُ المباركةُ: العدل، وتحريم الاعتداء على حقوق الآخرين ولو كان في أمور يسيرة قليلة، ومن هنا جاءت الشريعة بتحريم تطفيف المكاييل، وفي ذلك التنبيه على تذكر الآخرة والاستعداد لها، وأن ذلك هو سبيل إصلاح أحوال الناس.

معاني الألفاظ:

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ①﴾: (ويْل): كلمة وعيد وتهديد، والمطففون هم الذين يَبْخَسُون الناس حقوقهم مأخوذ من التطفيف، وهو بخس حق الآخرين بشيء قليل؛ لأن الطفيف: الشيء النادر اليسير، فمع أن هذا المأخوذ من مال الغير طفيف ويسير، إلا أن الله عز وجل قد تَوَعَّدَ صاحِبَهُ بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ①﴾.

ومن هنا لا ينبغي بالإنسان أن يَحْتَقِرَ حقوق الآخرين ولو كانت قليلة، سواء كانت حقًّا لأشخاص معيَّنِينَ أو كانت من الأموال العامة، وإذا كان هذا في تطفيف المكاييل، فكُلُّ مَا كان مماثلاً له فيُلْحَقُ به، وتطفييف المكاييل كما أنَّه مَضَرَّة على العباد في آخرتهم هو مَضَرَّة عليهم في دنياهم، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] يعني أن الناس تكون حالهم على خير الأمور متى

تركوا الغش في المكاييل والموازين، وأوْفوا الكيل ووزنوا بالقسطاس المستقيم، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف: ٨٥] فذلك المطفف عندما يظن أنه قد حاز مصلحة لنفسه دنيوية، وأنه قد تمكّن من أَخْذِ مَال غيره، إلا أنه في حقيقة الأمر خاسر في دنياه، مع ما ينتظره من العُقُوبَةِ في الآخرة، فإن البَرَكَةَ في البيع والشراء هبة ومنحة من الله عز وجل والله سبحانه وتعالى قد وَعَدَ أولئك الذين يتعاملون مع الناس بعدل وبيان وظهور ببركة بيعهم، كما قال ﷺ: **«الْبَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتفرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لهمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»**(١).

ثم ذكر الله جل وعلا شيئًا من صفات هؤلاء المطففين، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾: (اكتالوا) أي: قبضوا سِلَعَهُم من الآخرين، فإنهم يأخذونها بزيادة؛ لأنهم يستعملون مكيالاً كبيرًا في هذه الحال، ومِنْ ثَمَّ إذا اكْتَالُوا أخذوا أكثر مِنْ حَقِّهِم.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾: أي: إذا أرادوا أن يُقْبِضُوا الناس حقوقهم، وأن يسلموا لهم بضائعهم استعملوا مكيالاً آخر يكون

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٣) ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه

....

أَنْقَصَ مِنَ الأوَّلِ، وحينئذ كانوا مُخْسِرِين للناس، والتطفيف في المكاييل نَوْعٌ من أنواع الظلم الذي جاءت النصوص بالتحذير منه وبيان سوء عاقبته دنيا وآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال جل وعلا: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

وإذا كانت هذه العقوبات الشديدة ثابتة في تطفيف المكاييل فإن الأفعال التي تأخذ بها أموال الآخرين سيكون تحريمها أكثر وإثمها أعظم، ومِنْ ذَلِكَ مثلاً: سَرِقَةُ أَمْوَالِ الآخرين، فإن هذا الفعل إِثْمُهُ أعظم من إثم تطفيف المكاييل، فيشمله هذه العقوبات السابقة، ومثل ذلك أيضًا: أَخْذُ مَالِ الرِّشوة؛ فإنه أشد من تَطْفِيف المكاييل؛ لأن مال الرشوة فيه أخذ من أصحاب الحقوق أموالهم بدون وجه حق، وفيه مَنْعُ المستحق من حَقِّه وإعطاؤه لِغَيْرِهِ؛ لكونه قد دفع فيه مالاً، وقد ثبت في الرشوة نصوص كثيرة تدل على التشنيع على فاعلها، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨] وجاء في السنن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٩) ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٨٠) والترمذي (١٣٣٦) وابن ماجه (٢٣١٣).

....

ومن أنواع المكاسب الخبيثة التي هي أشد من تطفيف المكاييل: أكل الربا، وقَدْ تواترت النصوص بتحريمه والتشنيع على فاعله، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وقد جاء في صحيح مسلم: أن النبي ﷺ «لَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ»[(١)].

ومن أمثلة المكاسب الخبيثة التي تُلْحَق بعقوبة المطففين: بيع السلع المحرمة التي لا يجوز بيعها، مثل بيع الميتة والخمور والخنزير ونحوها، فهذه مكاسب خبيثة يماثل إثمها إثم التطفيف في المكيال والميزان، وقوله هنا: [وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ] الكيل وحْدَةٌ تُعْرَفُ بِهَا أحْجَامُ السِّلَع، فهي وحدة يُعْرَف بها الحَجْمُ، بينما الوزن وحْدَة يُعْرَف بها ثِقَلُ الشيء، فمثلاً اللتر لمعرفة الحجم، وهكذا أيضًا الصاع، ومن ثَمَّ فهناك سِلْعَتَانِ يبلغ حجمهما صاعًا ومع ذلك يوجد في وزنهما فَرْقٌ كبير، فلو أتيتَ بالصاع فوضعت فيه مثلاً قطنًا، ثم وضَعْتَ فيه تمرًا فإن صَاعَ التمر أثْقَل من صاع القطن بكثير، وإن كانَا مُتَسَاوِيَيْنِ في الحجم.

وأما الوزن فإنه وحْدة لمقياس ومعرفة مقدار ثِقَلِ الأشياء، ويكون التقدير فيها إما بالكيلو أو بالرّطل أو بالجِرَام أو بالدِّينار أو نحو ذلك.

وهناك وحدات لقياس السِّلَع غير هاتين الوحدتين، ومن ذلك مثلاً:

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾ ....

الذَّراع فتقاس الأقمشة بِذَرْعِها، وهكذا أيضًا الأراضي تُذرع سواء بالذراع أو بالمتر أو بالكيلو أو بغيرها، فالمقصود أن ما ذُكِرَ في هذه الآيات من الكَيْلِ والوَزْنِ على جهة التمثيل، وأن أي تطفيف في البيع والشراء يدخل في النهي الوارد في هذه الآيات؛ لأنه في معناه.

وقد ورد في الأثر أن أهل المدينة قبل قُدُوم النبي ﷺ كانوا يُطَفِّفون المكيال، فلما نزلت هذه الآيات انتهوا عن هذا ولم يَعُدْ أحَد منهم يفعل هذا[1]، وهذا يدلّك على مِقْدَارِ إِيمَانِ الصحابة، فإنهم إذا جاءهم أمر من أوامر الله بادروا إلى امتثاله، فهذه العلامة التي يُقَاسُ بِهَا الإيمان عند الإنسان، فإذا أَرَدت أيها المؤمن أن تقيس مقدار إيمانك فانظر إذا جاءك أَمْر من أوامر الله أو أمر من أوامر رسول الله ﷺ هل تبادر لامتثاله أو تسوِّف فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾: أي: أن الداعي الذي جعل هؤلاء الناس يُطَفِّفُون في المكاييل هو أنهم نسوا أو تناسوا يوم البعث والجزاء، مع أن هذا من الأمور المتيقَّنَة المجْزوم بها؛ فإن الناس عما قريب سيُبْعَثُون وسيُحَاسَبُونَ على أعمالهم، والمراد بالبعث: إحياء الأجساد بعد

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٥٤) وابن ماجة (٢٢٢٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

موتها، فَفِي هذا تَحْذِير آخَر للمطفِّفين، وتوعُّدٌ لهم بالعقوبة الشنيعة في يوم القيامة.

ثم قال سبحانه: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾: ففي الآية الأولى إشعار بأن التطفيف في المكاييل يدل على نقصان إيمان الإنسان باليوم الآخر؛ إذ لو كان مؤمنًا به تمام الإيمان لما أقدم على ذلك؛ إذ كيف يُقَدّم دنياه على عقوبة أخراه؟!

وهذا اليوم هو يوم القيامة، وفيه تحذير وتهديد آخر؛ لأنه وصَفَهُ بأنَّه عظيم، ومن هنا فَإِذَا كان ذلك اليوم عظيمًا فعَلَى العباد أن يحذروا من نزول العقوبات فيه، فمن أسباب نزول العقوبات: التطفيف في المكاييل.

ثم قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾: أي: ذلك اليوم العظيم الذي تغافلوا أو تناسوا عنه هو يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قوله تعالى: [**يقوم**]: قيل: المراد به: بعث الناس، وقيل: المراد به أنهم يقومون حقيقة قياماً طويلاً، ولعل القول الثاني أظهر؛ لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على حقيقته فهو أولى، ولفظ القيام له حقيقة في لغة العرب، فلا يُحْمَل على البَعْثِ إلا بدليل، وقد ورد في بعض الآثار عن بعض التابعين أنَّهم يقومون قيامًا عظيمًا وسنين متطاولة، قال بعضهم بأنهم يقفون ثلاثمائة سنة لا يدرون ما مصيرهم إلى جنة أو إلى نار، وقد قال النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ قال: «**يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي**

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾

رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»[1]؛ أي: أن العرق من ذلك الإنسان يغطيه حتى يصل إلى أذنيه.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾: **[كَلَّا]** هذه كلمة زَجْرٍ ورَدْع؛ أي: أنَّكُمْ إذا لم تنْتَهُوا عن التطفيف في المكاييل والموازين فاحذروا من العقوبات، واعلموا بأن [كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ]، و(كتاب) قيل: المراد به: السجلات التي سُجِّلَتْ فِيهَا أعمال العباد، و(الفجار) أي: الذين خرجوا عن الطاعة إلى المعصية.

وقوله: **[لَفِي سِجِّينٍ]** المراد (بسِجِّين): موطن من نار جهنم ضيق سافل يكون فيه الفجار، وقيل بأنه تلك الكتب لما وضعت في أضيق محل وأسفله، قيل لها: سجين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾: للتعظيم من شأنه سأل عنه ليلفت الأذهان إلى معرفة حقيقته.

ثم قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾: أي: أن هذا الكتاب عليه علامة، مع علامة العقوبة أو علامة الإهانة لأصحابه في ذلك اليوم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾: يعني أن العذاب الشديد والعقوبة الأليمة تكون في ذلك اليوم للمكذبين، وبعض أهل العلم قال بأن **[ويل]**: واد في جهَنَّم، لكن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ، والأصل في كلمة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣١) ومسلم (٢٨٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾

(ويل) في لغة العرب أنها كلمة تَهْدِيد وَوَعِيد وعَذَابٍ.

وقوله سبحانه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠﴾: الْمُكَذِّب: هو مَنْ يُقَابِلُ الخَبَرَ الصَّادِق بِوَصْفِهِ بأنه مُخَالِفٌ لِلْوَاقع والحقيقة، هذا هو المكذب، وبماذا يكذبون؟

فُسّرَ بعدها في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾: يوم الدّين هو: يوم الجزاء، سُمِّيَ بالدين؛ لأن الناس يُدَانُون فيه بأعمالهم، يقال: الدّين؛ لأن الإنسان يُطَالَبُ بِسَدَادِ دَيْنِهِ.

قال سبحانه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾: أي: أن التكذيب بيوم القيامة ليس من شأن المخلِصِين ولا الْمُطَهَّرين، وإنما التكذيب بذلك اليوم من شأن المعتدي الأثيم، والمراد بالمعتدي: الذي تجاوز حدّه، وأما الأَثِيمُ فَهُوَ الذي كسب أنواع المآثم والذنوب.

ثم قال سبحانه: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾: أي: أنه إذا قُرِئَتْ عَلَيْهِ الآيات القرآنية التي هي كلام رب العزة والجلال خالق السماوات والأرضين قابلها بالتكذيب وبالإعراض، وقال: [**أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**]: أي: هذا مِنْ جِنْسِ الْقَصَصِ الذي تَنَاقَلْنَاهُ عَنِ الأُمَمِ السابقة، ومن جنس الخرافات والقصص غير الواقعية التي يتناقلها الناس جِيلاً عن جيل مع أنه قد أُقِيمَتْ عَلَيْهِ الحُجَّة ووضُحَتْ لَهُ الدَّلائِل إلا أنه أعرض ولم يلتفت إليها ولم يُفَكِّرْ فيها ولذلك لم يؤمن بها، ما هو السبب الذي جعله لا يستجيب

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ ....

لدعوة الحق ولا يؤمن بمقتضى هذه الآيات القرآنية التي فيها الأدلة العقلية الدامغة والمقنعة؟.

قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: [**كَلا**] كلمة زَجْرٍ وَرَدْعٍ؛ أي: أن هذا التكذيب منهم ليس مقبولاً، بل له أسباب منها: ما [**رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم**] أي: أن قلوبهم غُطِّيَتْ بِسَبَبِ الذنوب التي اكتسبوها، ومِنْ ثَمَّ لم يَقْبلوا الحق؛ لأن قلوبهم قد أُقْفِلَتْ، إذا كان الكتاب مُقْفَلاً لا تَتَمَكّن من الكتابة فيه، هكذا القلب إذا كان مُقْفَلاً فَلَنْ تَتَمكَّن من إدخال الحجة فيه، والذي يَقْفِلُ القلوب هو هذه الذنوب والمعاصي التي يفعلها الناس ويَكْسِبُونها، فالطَّبْعُ على قلب الإنسان هو بِسَبَبِ فِعْلِهِ هو، فهو الذي أَقْدَمَ على مَعْصِيَة جَعَلَتْهُ مَطْبُوعَ الْقَلْبِ لا يفكر في حقائق الأمور، ولا يميِّز بين الحَقِّ والْبَاطِلِ، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ**»[1] فحين ذاك لا يميز بين معروف ومنكر ولا باطل وحق.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾: [كَلا] هذه أيضًا

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٩٧، والترمذي (٣٣٣٤) والنسائي في الكبرى (١٠٢٥١) وابن ماجة (٤٢٤٤) وابن حبان (٢٧٨٧) والحاكم ١/٤٥.

....

كلمة زجر وردْع أخرَى لعدم الرضا بشأنهم ؛ لأنهم كَسَبُوا الذّنُوب فغطت على قلوبهم ولم يتمكنوا من تمييز الحق مِنَ الباطل ، فعقوبَة لهم سيُحْجَبُون عن الله عز وجل ولن يتمكنوا من رؤيته عز وجل فإن رؤية الله في يوم القيامة نعيم عظيم لا يحظى به إلا المؤمنون ، ولذلك أخبر الله عن هؤلاء المكذبين بأنهم محجوبون عن ربهم عز وجل : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ﴾ قال الإمام مالك رحمه الله تعالى : لما حجَبَ أهل الباطل دَلَّ على رؤية أهل الحق له[١].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : حَجَبَ أهل السّخْط فرآه أهل الرضا[٢]. وهكذا أقوال أئمَّةِ السّنَّة والسلف[٣] كلهم يثبتون أن الله عز وجل يُرى يوم القيامة ، وقد قال النبي ﷺ : «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا**

---

(١) أخرج اللالكائي رحمه الله في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣/ ٥١٨ ح ٨٠٨ بسنده إلى أشهب عبد العزيز صاحب مالك قال : "قال رجل لمالك يا أبا عبد الله هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة؟ قال : لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ﴾".

(٢) أخرج اللالكائي ٣/٥٦٠ ح ٨٨٣ بسنده عن الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ : حَضَرْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيَّ ، وَقَدْ جَاءَتْهُ رُقْعَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ فِيهَا : مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ﴾؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَمَّا أَنَّ حُجِبَ هَؤُلاءِ فِي السُّخْطِ ، كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

(٣) قال في شرح الطحاوية ص(١٨٩) : وَقَدْ قَالَ بِثُبُوتِ الرُّؤْيَةِ الصَّحَابَةُ ، وَالتَّابِعُونَ ، وَأَئِمَّةُ الإِسْلامِ الْمَعْرُوفُونَ بِالإِمَامَةِ فِي الدِّينِ ، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ....

الْقَمَرَ لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»[١] وجاء في حديث صُهَيْبٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ**»[٢].

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾: أي: أَنَّهُمْ سيدخلون في نار جهنم - والعياذ بالله - فتصْلاهم وتُحرِقُهُم.

وفرق في هذا بين فعل (صَلا) الذي يدل على الاحتراق، وفعْل (اصْطَلَى) الذي يدل على الانتفاع بالنار بدون الاحتراق بها، فـ(صَلا) فعل يدل على تضرُّرِ الإنْسَان بالنار، وأما (اصطلى) فهو يدل على انتفاع الإنسان بالنار، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]. يعني: تَسْتَدْفِئُونَ مِنَ الْبَرْدِ.

ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التبكيت لهم: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾: أي: أنكم كنْتُم على ضلالة في الدنيا، والآن اعرفوا أنكم كنتم على ضلالة، وهكذا أنتم إنما دخلتم دار العقوبة والنار بسبب فِعْلِكم

(١) أخرجه البخاري (٥٢٩) ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم (١٨١).

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾

أنتم، فاحْتَمِلُوا نتيجة فِعْلِكُم.

لما ذكر الله عز وجل مصير الفجار ذكر مصير من يقابلهم وهم الأبرار فقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾: المراد بالأبرار: مَنْ قاموا بعبادة الله، وبحسن معاملة عباد الله، وذكرنا أن هذا مبني على ستةِ أمور مذكورة في قوله تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فهؤلاء هم الذين اتصفوا بصفة البر، فكانوا من الأبرار.

وقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ قيل: السجل الذي يسجل فيه أسماء الأبرار، وقال بعض أهل العلم: بل المراد السجل الذي تسجّل فيه حسناتهم، ولعل القول الأول أظهر لأنه أضاف الكتاب إلى الأبرار، ولم يضفه إلى أعمالهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (عليون) مأخوذ من العلو والسعة في مقابلة (سجين)، فسجين مكان ضيق في سفل، بينما عليون في العلو في محل واسع، وتنويهًا لمنزلته ومقداره قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾: أي: أن هذا السجل قد وضعت عليه علامة تدل على تميزه، ومن علامته أنه ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾؛ أي: أن الملائكة المقربين يحضرون هذا الكتاب عندما تسجل أسماء الأبرار.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ
مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ....

ثم ذكر الله عاقبة هؤلاء الأبرار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: أن الأبرار سيجعل الله عاقبتهم إلى جنة الخلد، فيَنْعَمون فيها نعيمًا دائمًا لا يكدر بشيء من المكدرات.

ومن ذلك النعيم قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: (الأرائك) هي السرر الحسنة التي عليها فرش طيبة، وقوله: [**يَنْظُرُونَ**] أي: ينظرون إلى الله تعالى فيَتَنَعَّمُون بذلك، وينظرون إلى ما هم فيه من النعيم فتقر نفوسهم بهذا.

قال سبحانه: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾: أي: أن الإنسان عندما ينظر إلى وجوه هؤلاء الأبرار في جَنَّةِ الخُلْدِ يَعْرِفُ مِنْ وُجُوهِهِمْ أَنَّهُمْ في رَفَاهِيَة وفي خير، وفي نعيم دائم، فَلَيْس في وجوههم كآبة ولا حُزْن، ولا دلالة على جوع ولا مسغبة ولا ألم، بل وجوههم على أكْمَلِ نظرات الوجوه.

ومن ذلك النعيم قوله سبحانه: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾: أي: أن أهل هذا الصنف من أهل الجنة يسقون من رحيق؛ أي: من شراب مختوم لم يُمْزَجْ بِشَيْء قد وضع عليه الخاتم؛ لئلا يدخل معه شيء آخر.

قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: أن الخَتْمَ الذي خُتِمَ بِهِ الشراب هو المسك، وإذا بقي شيء من الشراب فإنَّ حُثَالَتَهُ التي

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ....

تكون غير مرغوبة في شراب الدنيا إلا أنه في الآخرة تكون حثالته مرغوبة لأنها من المسك، مما يدل على فضيلته وحسنه.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في نعيم الجنة ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ليتسابق أصحاب الهمَمِ العالية بتقديم الأعمال الصالحة التي تجعل العباد ينالون هذا.

قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾: أي: أن هناك شرابًا في الجنة آخر لصنف أقل من الصنف الأول يُمْزَجُ معه غيره، فقال سبحانه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ والتسنيم عَيْنٌ في الجنة، قال الله عنها: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ذكر الله عز وجل طبيعة العلاقة بين المجرمين والمؤمنين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: أن المجرمين الذين يتعدون حدود الله ويتجاوزونها إلى معاصي الله يَضْحَكُون ويستهزئون بالمؤمنين في الدنيا، وهذه سنة كونية من قيام الساعة أن أهل الإجرام يستهزئون بأهل الخير والصلاح بتمويه الكلام وقلب الحقائق، واستعمال الألفاظ غير الصادقة، وهذا يلحظه الإنسان في ما يقابَلُ به أنبياء الله، تجدهم يقولون لأنبياء الله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] وقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧] ونبينا ﷺ قد قوبل

وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ....

بشيء من هذا، فقيل عنه كاهن وساحر وكاذب وشاعر، إلى غير ذلك من ألفاظ الإفك، وهكذا لا زال أولياء الله من دعاة دينه والعلماء الصالحين المصلحين يجدون من أهل الإجرام مَنْ يَسْتَهْزِئ بهم ويضحك منهم، ولكن الله جل وعلا يجعل العاقبة في الدنيا لأهل الإيمان زيادة على ما ينتظرهم من الأجر العظيم.

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: يشيرون بالإشارات الخفية بأعينهم وألسنتهم وأيديهم على جِهَةِ الاستهزاء بالمؤمنين، ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: إذا انقلب هؤلاء المجرمون إلى مجالسهم الخاصة وإلى أهاليهم انقلبوا (فكهين)؛ أي: يَتَفَكَّهُونَ بِالْكَلامِ في نسبة أوصاف كاذبة إلى المؤمنين وإلى دعاة الحق.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾: يعني إذا رأى هؤلاء المجرمون أهل الحق [قَالُوا إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّونَ] فهم يَتَكَلَّمون بذلك بِأَلْسِنَتِهِمْ لكن قلوبهم فيها ضد ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣] فرد الله عز وجل عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: ليست هذه مهمتكم التي خلقكم الله مِنْ أجْلِهَا، فَلَيْسَ من مُهِمَّتِكُمْ أن تستهزئوا بعباد الله وأنبياء الله وأولياء الله، لكن ما هي العاقبة في الآخرة؟

فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ
ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦.

قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾: [**فَالْيَوْمَ**] يعني في يوم القيامة [**الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ**] جزاء وفاقًا؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فإن الله عز وجل يمكن المؤمنين من الاطلاع على الكافرين في نَارِ جَهَنَّمَ فيُشَاهِدون ما يُقَاسونه من أنواع العذاب فيضحكون، كيف كانت حالهم في الدنيا! كانوا يعجبون بأنفسهم، ثم إن الكفار يريدون أن يخرجوا من النار، فإذا شاهدهم المؤمنون وهم يريدون الخروج من النار، ضحكوا عليهم بسبب هذا.

ثم قال: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥﴾: أي: أن المؤمنين سيكونون على السرر الحسنة ذات المفارش الطيبة ينظرون، ماذا ينظرون؟ فَسَّرَها ما بعدها، فقال: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾: أي: هل ما لحقهم من العقوبة مقابل أفعالهم في الدنيا، وقَرَّت أعينهم بأن نزلت العقوبة بأولئك الذين كانوا يَسْخَرُون بدين الله وبعباد الله.

فوائد السورة:

في هذه السورة مِنَ الفوائدِ:

١. تحريم التطفيف في المكاييل والموازين، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب ولو كان شيئًا يسيرًا، ولو كان تمرة واحدة، ويُلْحَقُ بذلك تلك الذنوب التي فيها استيلاء على أموال الآخرين، سواء كانت أموالا خاصَّة أو كانت من الأموال العامَّة، وقد قال النبي ﷺ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا، فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قَالَ: «**وَمَا لَكَ؟**» قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «**وَأَنَا أَقُولُهُ الآنَ، مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى**»(١).

٢. أن العبد يجب عليه أن يسير على العدل في التعامل مع الآخرين، فإذا كان هذا في المعاملات الماليَّة فهكذا في بقية المعاملات؛ فإذا عَامَلَ الناس في خصومة فإنه يعاملهم بالعدل، وإذا تعامل مع الآخرين في المسائل العِلْمِيّة والمناقشات عاملهم بالعدل، فلا

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٣) وأبو داود (٣٥٨١) وابن حبان (٥٠٧٨) وأحمد ٤/١٩٢ والبيهقي ٧/١٦ من حديث عدي بن عميرة رضي الله عنه.

يكتفي بذكر حججه هو، بل يبين لخصمه الحجج التي يستند إليها حتى يكون عادلاً معه.

٣. تحذير الناس مِنْ مَغبَّة عقوبة أفعالهم يوم القيامة، وأنهم سيحاسبون على أعمالهم كلها.

٤. بيان أن حجج الله قد قامت على العباد، وأن الآيات الشرعية واضحة بيِّنة، ولكن الناس يُعْرِضون عن الاستماع لها والاستجابة لها بسبب ما غُطِّي على قلوبهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

٥. أن أهْلَ الإيمان يَرَوْنَ رَبَّهُم عز وجل يوم القيامة، وأن الفجَّار والكفار يحجبون عن رؤية الله جَلَّ وَعَلا.

٦. عظم أهوال يوم القيامة.

٧. الترغيب في خصال البر، سواء كان برًّا في عبادة الله، أو برًّا بالوالدين أو برًّا في معاملة عباد الله، وأن من كان كذلك أعْقَبَهُ الله العاقبة الحسنة.

٨. أن كتاب الأبرار والسّجِلّ الذي تسجل فيه أسماؤُهم مُقَدَّر مرفوع موضوع في أوسع مكان، ولتكريمِهِ يجعل الله الملائكة المُقَرَّبِينَ يشهدونه.

٩. عِظَمُ النعيم الذي يكون لأهل الجنة.

١٠. تفاضُلُ أهل الجنة فيها، وأنهم ليسوا على مرتبة واحدة، مما

يدل على أن الإيمان ليس على رتبة واحدة، وأن الناس يتفاضلون فيه، فالإيمان يزيد بأنواع الطاعات.

١١. الترغيب في الأعمال الصَّالحة المؤدية إلى دخول الإنسان لجَنَّة الخلد.

١٢. تعويد نفوس أهل الإيمان على احتمال الاستهزاء والضحك من المجرمين بالمؤمنين، وأن هذا لا يَضُرّهم شيئًا، وأنهم ينبغي بهم أن يستمِرّوا على طريقتهم في الدعوة إلى الله وتعليم الناس أحكام الله.

١٣. أن العبرة بالخَوَاتيم؛ فإن الإنسان وإن حصل له شيء من الخير، وإن حصل له شيء مما تهواه نفسه في الدنيا، لكن ليس هذا دليلاً على أن الله قد رضي عن فعله، والعبرة بخَوَاتِيم الأمور.

١٤. أن أهل المناهج الباطلة والأديان الفاسدة إذا تَكَلّموا بالاستهزاء بالمؤمنين، فإنما يكون هذا قولاً بألْسِنَتِهِمْ، وما في قلوبهم وضمائرهم بِضِدِّ ذلك، ففي قلوبهم توقير لأهل الإيمان لكن الشياطين قد استولت عليهم، ومِنْ ثَمَّ تعصبًا لمبدئهم استهزئوا بأهل الإيمان؛ لئلا يستجيب أحد لدعوتهم.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ
مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾
يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا
﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ
ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ
فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ
كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا
وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾
فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا
يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ....

موضوع السورة:

هذه السورةُ تتحدثُ عن الاستجابةِ لله عز وجل، وتتكلمُ عن الأسبابِ التي تدعو الإنسانَ إلى أن يستجيبَ لأوامرِ الله ويسمعَ ويطيعَ لها، وتفرقُ الناسَ بناءً على هذا المعيارِ: الاستجابةُ لأوامرِ الله جل وعلا.

معاني الألفاظ:

أولُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ في هذه الآياتِ ما يتعلقُ بالسماءِ فقال سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾: ظاهرُ هذا أن المرادَ به في يومِ القيامةِ وأنه انشقاقٌ لها في ذاتِهَا، وانشقاقُ السحابِ والغيمِ أَمْرٌ آخَرُ؛ لأن الأصلَ في الإطلاق؛ إطلاقِ الانشقاقِ على السماءِ أن يكونَ حقيقةً.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾: أي: أنها اسْتَمَعَتْ لأوامرِ الله وَاسْتَجَابَتْ لما أَمَرَهَا اللَّهُ به، [وَحُقَّتْ] أي: حُقَّ لها أن تَسْتَجِيبَ لأمرِ الله وأن تسمعَ وتطيعَ له، فإذا كانت هذه السماءُ العظيمةُ تستجيبُ لأمرِ الله فكيف بِكَ يا أيها العبدُ لا تستجيبُ لأمرِ الله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾: أي: أنه أُزِيلَ مَا بِهَا من الجبالِ، وأصبَحَتْ مُسَطَّحَةً وممدودةً ليس بها عائقٌ ولا شيءٌ، وَوُسِّعَتْ هذه الأرضُ يومَ القيامةِ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾: أي: أن الأَرْضَ أَلْقَتْ ما فيها من الأمواتِ الذين قُبِضوا فيها، وَأَلْقَتْ ما فيها من الكنوزِ؛ لأَمْرِ اللهِ.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ ....

قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾: أي: اسْتَجَابَتْ لأمرِ اللهِ، أَذِنَتْ: مِنَ الأُذُنِ؛ لأنها سَمِعَتْ لأمرِ الله وَاسْتَجَابَتْ له، وحُقَّ لها أن تستجيبَ لأوامرِ ربِّ العزةِ والجلالِ، فإذا كانت هذه الأرضُ الكوكبُ العظيمُ يسمعُ لأوامرِ الله ويستجيبُ، فكيف بِكَ يا ابنَ آدَمَ لا تستجيبُ لأمرِ الله، ثم إن عاقبةَ الاستجابةِ لأمرِ الله العاقبةُ الحسنةُ، أما تَرْكُ الاستجابةِ لله فتُوقِفُ العبدَ موقفَ الذُّلِّ والمهانةِ بين يَدَيِ اللهِ.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ أي: سوف تَسْعَى لا محالةَ إِلَى رَبِّكَ، وستسعى وتعملُ أعمالاً شَتَّى، وهناك مَنْ يَعْمَلُ بالخيرِ وهناك مَنْ يَعْمَلُ بالشَّرِّ، وسوف تُلاقِي عَمَلَكَ؛ لأنك إذا لَقِيتَ جزاءَ عَمَلِكَ في الخيرِ أو الشرِّ فقد لاَقَيْتَ عَمَلَكَ.

وكذلك قوله تعالى: [فَمُلاقِيهِ] أي: مُلاَقِي رَبَّكَ جل وعلا فَيُحَاسِبُكَ على أعمالِك قَلِيلِهَا وكثيرها، مَنِ اسْتَجَابَ لأمرِ الله فإنه سيقفُ موقفَ عِزٍّ بَيْنَ يَدَيِ الله، وأما مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لأوامرِ الله فإنه سَيَقِفُ موقفَ الذُّلِّ بين يَدَيِ الله.

وَانْظُرْ لهذه المواقفَ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ هذا مقامُ عزٍّ يُعْطَى الإنسانُ فيه سِجِلَّهُ الذي سُجِّلَتْ فيه أَعْمَالُهُ، أو الذي كُتِبَ فِيه مَصِيرُهُ، مصيرُ السعادةِ، فإعطاءُ الإنسانِ كتابَه بيمينه في ذلك الموقفِ إعزازٌ له، لذلك يقولُ: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾: أي: أن مُحاسَبَتَهُ في ذلك اليومِ لن يكونَ فيها عُسْرٌ ولا طولٌ ولن يُدقَّقَ عليه في الحسابِ وَلَنْ يُؤْتَى بتفاصيلِ أعمالِه، وَمِنْ ثَمَّ سيكونُ مَوْقِفُهُ موقفَ عِزٍّ لاَ ذُلٍّ؛ لأنه استجابَ لأوامرِ الله، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عُذِّبَ**» فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فَقَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**»(١).

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾: أي: له مقامُ عِزٍّ؛ لأنه اسْتَجَابَ لأَمْرِ الله في الدنيا، [**يَنْقَلِبُ**] أي: يَرْجِعُ. [**إِلَى أَهْلِهِ**]: الذين كانوا معه في الدنيا؛ مِنْ زَوْجِهِ وَأَبْنَائِهِ وَقَرَابَتِهِ، [**مسرورًا**] أي: أنه مُغْتَبِطٌ بموقفِه في ذلك اليومِ؛ لأنه قد استجابَ لأوامرِ الله جل وعلا، وقد قال بعضُ المفسرين بأن المرادَ بقوله: [**إِلَى أَهْلِهِ**] الحورُ العينُ، لكن قوله: [**وَيَنْقَلِبُ**] يعني أنهم كانوا أهلاً له قَبْلَ ذلك، وكان بينَه وبينَهم علاقةٌ قَبْلَ ذلك اليومِ.

ثُمَّ ذَكَرَ أصحابَ الصنفِ الثاني؛ أصحابَ الموقفِ الذليلِ في يومِ القيامةِ؛ لأنهم لم يَسْتَجِيبُوا لأوامرِ اللهِ، ولم يَسْمَعُوا ولم يُطِيعُوا، قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾: إتيانُ الإنسانِ وإعطاءُ الإنسانِ كتابَه وراءَ ظهرِه ما ذَاكَ إلا أنه في مقامِ الذُّلِّ والتحقيرِ؛ لأنه لم يَسْتَجِبْ لأوامرِ اللهِ تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦).

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ ....

وَقد وَرَدَ في آيةِ أخرى أنهم يُؤْتَوْنَ كتابَهم بِشِمَالِهِمْ، فمعناه أنه تُمَدُّ يده اليسرى لِتَكُونَ وراءَ ظهرِه؛ لِيَسْتَلِمَ كتابَه بالشمالِ مِنْ وراءِ ظهرِه تحقيرًا له، وإظهارًا لِذُلِّهِ في ذلك الموقفِ؛ لعدمِ استجابتِه لأوامرِ الله، وفي ذلك الموقفِ ماذا سيكونُ مَوْقِفُهُ؟

قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١﴾: أي: يَطْلُبُ الخسارةَ لنفسه؛ لأنها لم تَسْتَجِبْ لأوامرِ الله، وَيَطْلُبُ الهلاكَ والإعدامَ لِيَسْلَمَ من العاقبةِ السيئةِ في نارِ جَهَنَّمَ.

قال تعالى: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾: السَّعِيرُ: النارُ المُحْرِقَةُ، نارُ جهنمَ، وَيَصْلاَهَا؛ لأنها تحيطُ به فَتُحْرِقُهُ.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾: أي: أن السببُ الذي جَعَلَهُ كَذَلِكَ أنه كان في الدنيا مُغْتَبِطًا بِحَالِهِ غير ملتفت للآخرة بحيث لا يستجيبُ لأوامرِ الله، فيقول: أنا في نعيمٍ وفي سعادةٍ وفي سرورٍ؛ وبالتالي أَعْرَضَ عن أوامرِ الله، وإذا تَأَمَّلَ الإنسانُ أحوالَ أولئك الذين يُعْرِضُونَ عن أوامرِ الله فإنهم وَإِنْ كَانَتْ حالتُهم الظاهرةُ قد تُعْجِب مَنْ تغرُّهُ الأمورُ لَكِنَّ بواطنَهم مُقْلِقَةٌ مُفْزِعَةٌ غيرُ مقبولةٍ وغيرُ مَرْضِيَّةٍ.

قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾: أي: من الأسبابِ التي جَعَلَتْهُ لا يستجيبُ لأوامرِ الله فَوَقَفَ ذلك الموقفَ المخزيَ أنه لم يكن يؤمنُ بيومِ القيامةِ، فهو ظَنَّ أن لن يرجعَ إلى الله، ولن يُحَاسَبَ على أعمالِه، إنه ظن

﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨
لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾ ....

ظنًّا كاذبًا [**أَنْ لَنْ يَحورَ**] أي: لن يرجعَ إلى رَبِّ العزةِ والجَلالِ فَيُحَاسِبُهُ على أعمالِه، [**بَلَى**] سَيَرْجِعُ، وَسَيُحَاسَبُ على أَعْمَالِهِ.

قال سبحانه: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾: أي: أن الله مطَّلِعٌ على حَالِهِ، قَادرٌ على عقوبتِه في الدنيا، عارفٌ أنه لم يَسْتَجِبْ لأَوَامِرِهِ.

ثم أَقْسَمَ رَبُّ العزةِ والجلالِ فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾: والمرادُ بالشفقِ: الحمرةُ التي تَبْقَى مِنْ نُورِ الشَّمْسِ بعد غُرُوبِهَا أو تكون في السماء قبل طلوع الشمس.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾: الليلُ هو المقابلُ للنهارِ، [**وَمَا وَسَقَ**] أي: ما جَمَعَ من الأشياءِ، فإن الناسَ يَأْوُونَ إلى بيوتِهم بالليلِ فيجتمعونَ، والحيواناتُ تَأْوِي بالليل إلى مواطنِها، وهكذا سائرُ الدوابِّ تَأْوِي إلى مَوَاطِنِهَا وتجتمعُ في الليلِ.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾: يُقْسِمُ اللهُ بالقمرِ إذا اتَّسَقَ؛ أي: اتَّضَحَ وتبيَّنَ حالُه وكان بَدْرًا، فإن منظرَ القمرِ عند كَوْنِهِ بَدْرًا مُضِيئًا منظرٌ هائلٌ، فَأَقْسَمَ اللهُ جل وعلا بِهِ.

ثم قال سبحانه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾: أي: لَتَنْتَقِلُنَّ مِنْ حَالٍ إلى حالٍ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَجِيبًا لأوامرِ الله فسينتقلُ من حالٍ إلى حالٍ أطيبَ منها، وَمَنْ كان مُعْرِضًا عن أوامرِ الله غيرَ مُسْتَجِيبٍ لها فسينتقلُ من حالٍ إلى أَسْوَأَ منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ ....

ثم وجَّهَ اللهُ السؤالَ على جهةِ الإنكارِ لحالهم: لماذا لا يستجيبُ الإنسانُ لله؟ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠﴾ والإيمانُ يشملُ اعتقادَ القلبِ ويشملُ أقوالَ اللسانِ، ويشملُ أيضًا أعمالَ الجوارحِ، لماذا لا يَسْتَجِيبُونَ لأوامرِ الله في الالتزام بأركانِ الإيمانِ وشعبه؟

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ٢١﴾: أي: إذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُ اللهِ لم يَلْتَفِتُوا إليها ولم يَسْتَجِيبُوا لها، ولم يَسْجُدُوا عندَ وجودِ الأمرِ بالسجودِ فيها.

وَجُمهورُ أهلِ العلمِ على أن سورةَ الانشقاقِ فيها سجدةٌ مَشْرُوعَةٌ، وَذَهَبَ الإمامُ مَالِكٌ إلى أن سورةَ الانشقاقِ لاَ تُشْرَعُ السجدةُ فيها، وقد ثَبَتَ أن النبيَّ ﷺ قد سَجَدَ في سورةِ الانشقاقِ.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾: أي: أن الكفارَ لا يَسْتَجِيبُونَ لأوامرِ الله بسببِ تكذيبهم بوعدِ الله، فهم كَذَّبُوا بِخَبَرِ اللهِ وَبِوَعْدِ اللهِ؛ ومِنْ ثَمَّ لم يستجيبوا لأوامرِ اللهِ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾: أي: بما يُخْفُونَ في صدورِهم؛ فإن الله عالمٌ بِكُلِّ شيءٍ حتى بما في الضمائرِ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى سبحانه وتعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾: أي: وبَشِّرْ هؤلاء الذين لم

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾.

يستجيبوا لأوامرِ الله بعذابٍ مُؤْلِمٌ، مأخوذٌ من الألمِ، والمرادُ به المُوجِعُ، فإن عذابَ جهنمَ عذابٌ مُوجِعٌ، وفي هذا حَثٌّ على الاستجابةِ لأوامرِ الله وتحذيرٌ من عدمِ الاستجابةِ لها؛ لأَنَّ من لم يَسْتَجِبْ لأوامرِ الله فهو مُتَوَعَّدٌ بهذا العذابِ الأليمِ.

وقوله سبحانه: [فَبَشِّرْهُمْ] الأصلُ في البشارةِ أن تكونَ في الخيرِ، وقد تكونُ في الشرِّ، قيل لها بِشَارَةٌ؛ لأن بشرةَ الوجهِ تتغيَّرُ عند وُرُودِ هذا الخبرِ؛ فإن الإنسانَ إذا وَرَدَ إليه خبرٌ سَارٌّ تَهَلَّلَ وَجْهُهُ، وإذا وَرَدَ إليه خَبَرٌ غيرُ سَارٍّ فإن وَجْهَهُ سَيَتَكَدَّرُ ويَتَغَيَّرُ عن حَالِهِ.

ثم قال سُبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾: أي: أن المؤمنين يسلمون من العذاب الأليم، وقوله (آمَنُوا): يدخلُ في ذلك تصديقُ القلبِ وأعمالُ القلبِ، وتصديقُ اللسانِ وأقوالُ اللسانِ، وأعمالُ الجوارحِ كُلُّهَا مما يدخلُ في مُسَمَّى الإيمانِ، فإن النبيَّ ﷺ قال: **«الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً أَعْلاهَا قَوْلُ: لاَ إِلَهَ إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»**(١).

فَإِنْ قَالَ قائلٌ إن الله تعالى قد قال بعد ذكر الإيمان: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والواوُ تقتضي المغايرةَ؟

قلنا: الواوُ لا يصحُّ أن يقالَ فيها أنها تقتضي المغايرةَ، وإنما الواوُ

---

(١) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

تقتضي عدمَ المُماثلة، وَمِنْ أَوْجُهِ العطفِ أن يُعْطَفَ الخَاصُّ على العَامِّ، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] والرُّمَّانُ نَوْعٌ مِنْ أنواعِ الفاكهةِ، وكما قال جل وعلا: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] فَعَطَفَ جِبْرِيلَ ومِيكَالَ عَلَى الأَنْبِيَاءِ، مِنْ بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وهكذا قولُه هنا: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عندما عُطِفَتْ على قولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا مِنْ عَطْفِ الخاصِّ على العَامِّ.

قال سبحانه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ۝٢٥﴾: أي: لهم ثوابٌ وجزاءٌ يَنالُونَهُ يومَ القيامةِ غيرُ مُنْقَطِعٍ ولا ناقصٍ في يومِ القيامةِ، وليس المرادُ بذلك غيرَها من المَنِّ، فإن الله جل وعلا يَمُنُّ على عبادِه بأن يُدْخِلَهُمُ الجنةَ، وأن يهديهم سُبُلَ السلامِ، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فوائد السورة:

في هذه السورة مِنَ الفوائدِ:

١. وجوبُ الاستجابةِ لأوامرِ الله، فإذا كانت السماواتُ والأَرَضون تُسَارِعُ وَتُبَادِرُ للاستجابةِ لأمرِ الله، فابنُ آدَمَ من بابِ أَوْلَى.

٢. وجوبُ أن يُصْلِحَ الإنسانُ عَمَلَهُ لِيَجِدَ العاقبةَ الحسنةَ في الدنيا والآخرةِ، وإحسانُ العملِ يكونُ بالاستجابةِ لأوامرِ اللهِ.

٣. أَنَّ مَنِ اسْتَجَابَ لأَوَامِرِ اللهِ فسيقفُ موقفَ العِزِّ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لأوامرِ اللهِ فسيقفُ موقفَ الذُّلِّ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ جل وعلا.

٤. وجوبُ الاستعدادِ ليومِ القيامةِ، وأن تكونَ القيامةُ والآخِرَةُ بَيْنَ عَيْنَيِ الإنسانِ لا يَغْفَلُ عنها، فَقَبْلَ أن تَتَقَدَّمَ على أي: فِعْلٍ، وقَبْلَ أن تَفْعَل أي: عَمَلٍ فَكِّرْ فيه: هل يَنْفَعُكَ فِي الآخِرَةِ أو لا؟ هَلْ تكونُ به مُسْتَجِيبًا لأوامرِ اللهِ أو ليس كذلك؟

٥. التنبيهُ باستشعارِ الناسِ لمراقبةِ اللهِ لهم؛ فإنه سبحانَه بصيرٌ بالناسِ لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أحوالهم، بل هو يَعْلَمُ ما في القلوبِ.

٦. وصف الله بصفة العلم.

٧. أن الناسَ يَتَحَوَّلُونَ من حالٍ إلى حالٍ بحسبِ اسْتِجَابَتِهِمْ لأوامرِ اللهِ جل وعلا، سواء كانت هذه الأحوالُ في أنفسِهم وفي قلوبِهم سعادةً وَاسْتِقْرَارًا وَسُرُورًا أو كانت فيما يتعلقُ بغيرِهم وَبِمَا يُنْعِمُ اللهُ به عليهم من النعمِ بأبدانِهم أو في أموالهم أو فيما يتعلقُ بعلاقتِهم بغيرهم ومحبةِ الناسِ لهم ونحوِ ذلك.

٨. أن نَعِيمَ الجنةِ دائمٌ لاَ يَنْقَطِعُ أَبَدًا، وأنه لا ينقصُ منه شيءٌ، وأن نعيمَ الجنةِ مستمرٌّ أبدَ الآبادِ.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ
وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ
شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ
﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ
الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾
فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن
وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ ....

موضوع السورة:

سورةُ البروجِ سورةٌ مكيةٌ كان الرسول ﷺ يقرأ بها في العشاء[1]، والسورة تتحدثُ عن إيذاءِ الكفارِ للمسلمينَ ومحاولتهم لِصَدِّهِمْ عن دينِهم ومحاولةِ طمسِ دينِ الله وتحريفِ هذا الدينِ، ولا شَكَّ أن هذا المشهدَ لا زَالَ موجودًا في جميعِ الأعصارِ، فَمَا مِنْ عَصْرٍ من العصورِ أو زمنٍ من الأزمانِ إلا وتكونُ هناك مظاهرُ عديدةٌ يحاولُ فيها الكفارُ صَدَّ المؤمنين عن دينِهم ويحاولون طَمْسَ شيءٍ من معالمِ هذه الشريعةِ، وَنَسْمَعُ في أزمانِنا هذه وقائعَ شَتَّى وأخبارًا متتابعةً فيها محاولات لإلزام المسلمين بِتَرْكِ شيءٍ من شعائرِ دينهم.

معاني السورة:

يقول الله جل وعلا: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾: أي: أنه سبحانه يُقْسِمُ بالسماءِ هذا البناءِ العظيمِ المُحْكَمِ، [ذَاتِ الْبُرُوجِ] أي: التي فيها مناظرُ وقصورٌ وأنواعٌ من أنواعِ النجومِ ذاتِ البروجِ، سُمِّيَ الواحدُ منها بُرْجًا؛ لأنه ظاهرٌ بَيِّنٌ كما يقالُ: تَبَرُّجُ المرأةِ أي: ظهورُها، ويقالُ لِلْقُصُورِ بروجٌ لأنها ظاهرةٌ واضحةٌ فهكذا [ذاتُ البروجِ] أي: أن السماءَ فيها منازلُ واضحةٌ، تكون فيها النجومُ وتكون فيها عددٌ من المَعَالِمِ العظيمةِ.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٣٢٦.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ ....

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾: أي: أنه يُقْسِمُ جل وعلا باليومِ الذي وَعَدَ فيه الناسَ أن يحاسبهم على أعمالهم وهو يومُ القيامةِ لِيَذْكُرَ الناسُ أن الدنيا إنما هي مَمَرٌّ وليست بِمُسْتَقَرٍّ، وأن الدارَ الحقيقيةَ هي الآخرةُ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾: أي: أنه جل وعلا يُقْسِمُ بأولئك الذين يَشْهَدُونَ على غيرهم عند الله عز وجل؛ فَيَوْمُ الجُمُعَةِ يشهدُ عند الله عز وجل لمن يَحْضُرُهُ، وهكذا جوارحُ الإنسانِ تشهدُ له أو عليه، وهكذا أيضًا ما يُؤَدِّيهِ الإنسانُ من عملٍ صالحٍ يشهدُ له يومَ القيامةِ، والأنبياء يشهدون على أممهم، وهذه الأمة تشهد على غيرها من الأمم، ومحمد ﷺ يشهد، [وَمَشْهُودٍ] أي: يُقْسِمُ الله جل وعلا بالمَشْهُودِ به والمَشْهُودِ له ومن ذلك يوم عرفة الذي يشهده المسلمون.

ثم قال سبحانه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾: (الأخدودُ) هي الحُفَرُ العظيمةُ التي تُوضَعُ فيها النيرانُ الكبيرةُ، وقوله: [قُتِلَ] أي: نَزَلَتْ بهم العقوبةُ الغليظةُ، وهذه قصةٌ ذَكَرَهَا اللهُ عز وجل كنموذجٍ لأولئك الذين يَضْطَهِدُونَ المؤمنين في دينِهم ويعذبونهم من أجلِ أن يتركوا دينَهم أو شيئًا من شعائرِه، والأخدود الحفر العظيمة، يصنعها الظلمة لتعذيب عباد الله.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾: أي: النار التي فيها أشياءُ يتم إيقادُها من الحطبِ العظيمِ ونحوه.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾........

قوله سبحانه: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾: أي: أن هؤلاء من جريمتهم ومن قساوةِ قُلُوبِهِمْ أنهم كانوا جَالِسِينَ يَتَفَكَّهُونَ فوقَ تلك النارِ التي يُعَذَّبُ بها مَنْ يُعَذَّبُ، وهذا من أعظمِ قسوةِ القلبِ أن يكونَ الإنسانُ بين يديه مَنْ يُعَذَّبُ بالنارِ فلا يتحركُ قلبُه لذلك ولا يتأثرُ.

قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾: وهم على ما يفعلونَ بالمؤمنين من الإحراقِ شهودٌ ينظرونَ وَيَطَّلِعُونَ وَيُشَاهِدُونَ ولا يتحركُ في قلبهم ذرةُ رحمةٍ، لَكِنْ ما هي الجريمةُ التي جَعَلَتْهُمْ يُلْقُونَ المؤمنين في النارِ؟

قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾: أي: السببُ الذي جعلهم يُدْخِلُونَ هؤلاء في هذه النارِ هو إيمانُهم باللهِ، **[وَمَا نَقَمُوا]** أي: لم يجدوا عليهم ذَنْبًا ولم يكن سببُ فِعْلِهِمْ هذا إلا لأن هؤلاء القومَ آمَنُوا باللهِ العزيزِ الحميدِ، وَانْظُرْ كيف وصف الله بأنه **[العزيز الحميدُ]**، أما أنه عزيزٌ فهو ذُو القوةِ الذي مَنْ لاذَ بجانبه فقد احْتَمَى، وهو جل وعلا القادرُ على إنزالِ أنواعِ العقوباتِ بأعدائه، و**[الحميدُ]** أي: المتصفُ بالصفاتِ الجليلةِ التي يَسْتَحِقُّ الحمدَ عليها.

قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾: أي: أن السماواتِ والأَرَضِينَ وما بينهما وما فيهما مِلْكٌ له يتصرفُ فيه كيف يشاءُ.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾: أي: أنه حاضرٌ شاهدٌ على

....

أفعالهم عالمٌ بأحوالهم مطلعٌ عليهم لا يخفى عليه شيءٌ من شأنهم.

هذه الآياتُ جمهورُ أهلِ العلمِ قالوا بأنها قد نزَلَتْ في أهلِ نَجْرَانَ؛ فعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ**

....

الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلامِ، فَجِيءَ بِالْغُلامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي

صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»(١).

فَإِنْ قال قائلٌ: لِمَ لَمْ يَنْصُرِ اللهُ هؤلاء؟

قيل: أرادَ اللهُ جل وعلا ابتلاءً أو أن الله عز وجل إنما ينصرُ عبادَه متى بذلوا السببَ، وهؤلاء لم يَبْذُلُوا سَبَبًا؛ ولذلك فلا بد أن يبذلَ المؤمنون في نصرهم لدينِ اللهِ الأسبابَ ويتوكلوا على الله جل وعلا؛ وقد أَمَرَ اللهُ ببذلِ الأسبابِ في مواطنَ عديدةٍ من كتابه، قال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) وأحمد ٦/١٦ والنسائي في الكبرى ١١٦٦١.

....

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والنبيُّ ﷺ في بَدْرٍ اسْتَنْجَدَ بالله عز وجل ودعا ربه وَاسْتَغَاثَ به واستنصره[1]، قال تعالى: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩].

وقد ورد أيضًا في سببِ نزولِ هذه الآياتِ أن إنَّ مَلِكًا من أهل فارسَ سَكِرَ فَوَقَعَ عَلَى أُخْتِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ شَرْعًا فِي رَعِيَّتِهِ فامتنع عليهم عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يقبلُوا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَخْطُبَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَلَّ نِكَاحَ الأَخَوَاتِ، فَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَخُدَّ لَهُمُ الأُخْدُودَ، وَيُلْقِيَ فِيهِ كُلَّ مَنْ عَصَاهُ، فَعَمَدَ إِلَى حَفْرِ أُخْدُودٍ فَقَذَفَ فِيهِ مَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ. وَبَقَايَاهُمْ يَنْكِحُونَ الأَخَوَاتِ وَهُمْ الْمَجُوسُ، وَاسْتَمَرَّ فِيهِمْ تَحْلِيلُ الْمَحَارِمِ إِلَى الْيَوْمِ[2].

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة ٣٥٨/٧ بسنده قال: كَانَ أَبُو بَكْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى الْعَرْشِ، قَالَ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدْعُو يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ انْصُرْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمْ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: "بَعْضَ مُنَاشَدَتِكَ رَبَّكَ، فَوَاللَّهِ لَيُنْجِزَنَّ لَكَ الَّذِي وَعَدَكَ".

(٢) تفسير القرطبي ٢٩٠/١٩، تفسير ابن كثير ٣٥٩/٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ ....

ثم قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾: أي: جعَلُوهُمْ يبتعدون عن مُقْتَضَى إيمانهم فينتقلون من الإيمانِ إلى الكفرِ أو ينتقلون من الطاعةِ إلى المعصيةِ.

وقوله سبحانه: [ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا]: فيه رحمةُ رَبِّ العالمين بجميعِ الناس، فهؤلاء القومُ الذين حَارَبُوا دينَ اللهِ، وصدوا عن سبيلِ الله، وآذَوْا أولياءَ اللهِ، ومع ذلك يَعْرِضُ لهم رَبُّ العزةِ والجلالِ التوبةَ، ويبينُ أنهم إن تَابُوا تَابَ اللهُ جل وعلا عليهم.

وقوله سبحانه: [فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ] أي: العذابُ المحرقُ.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾: وتقدَّم معنا أن الإيمانَ يشملُ اعتقاداتِ القلوبِ وأعمالَها وأقوالَ اللسانِ وأعمالَ الجوارحِ، ثم عطفَ عليها العملَ الصالحَ؛ لئلا يظنَّ بعضُ الناسِ أن العملَ لا يدخلُ في مُسَمَّى الإيمانِ.

قال سبحانه: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾: [جناتٌ]، جَمَعَهَا وَنَكَّرَهَا لعظيمِ مكانتها، [ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ] أي: هذه الجناتُ التي يدخلونها هو الفوزُ الكبيرُ، أما الفوزُ في الدنيا فإنه مَهْمَا كانَ فهو فوز مؤقت.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ ....

ثم تَهَدَّدَ اللهُ جل وعلا أولئك الذين يصدون عن دينه فقال سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾: أي: إن العقوباتِ التي يُنْزِلُهَا رَبُّ العالمين للمخالفين لأمرِهِ المعادين لأوليائه المقاتلين لأهلِ دينِه شديدٌ، أي: عظيمٌ قوي مؤلم، فهو سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾: أي: يخلقُ الخلقَ لأولِ مرةٍ، والخالقُ الذي يخلقُ الخلقَ أولَ مرةٍ قادرٌ على إنزالِ العقوبةِ بهذا الخلقِ، وهو كذلك يُعِيدُ الخلقَ فيخلقُهم مرةً أخرى لِيُحَاسِبَهُمْ على أعمالِهم، وهو سبحانه مع ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾: أي: يغفرُ الذنبَ لمن تَابَ وَعَادَ إلى الحقِّ، (الودودُ) أي: المُتَحَبِّبُ إلى عبادِه فهو سبحانَه يُحِبُّ من العبادِ أن يُحِبُّوهُ؛ ولذلك فنحن نُحِبُّ اللهَ جل وعلا ونتقربُ بذلك له فالمذنب التائب يغفر الله له ويحبه.

ثم قال سبحانه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾: (العرشُ) هو ذلك المخلوقُ العظيمُ الذي لو جُمِعَتِ السماواتُ وَالأَرَضون فَوُضِعَتْ فيه لم تكن إلا كحلقةٍ في فلاةٍ، (المجيدُ) أي: الواسعُ العظيمُ، وصفةُ المجيدِ بقراءةِ الرفعِ صفةٌ لله عز وجل فهو سبحانه مَجِيدٌ واسعُ الصفاتِ عَظِيمُهَا، وبقراءةِ الجرِّ يكونُ العرشُ مجيدًا؛ فالعرشُ واسعُ الأطرافِ عَظِيمُهَا.

ثم قال سبحانه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾: أي: أن الله جل وعلا إذا أراد شيئًا فإنه يَفْعَلُهُ لا يتمكنُ أحدٌ من رَدِّهِ عن ذلك لأنه قادرٌ على كل شيء وهذا من خصائص الله عز وجل، والمرادُ بالإرادةِ هنا الإرادةُ الكونيةُ.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩﴾ ....

ثم قال سبحانه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾: أي: أَلَمْ تَتَذَكَّرُوا قِصَصَ الأممِ الماضيةِ الذين كان عندهم قوةٌ وعندهم أتباعٌ عظيمةٌ وعندهم أسلحةٌ وعندهم خيراتٌ عظيمةٌ فلم تمنعهم من نزول عذاب الله بهم، ومنهم: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾: قومُ فرعونَ الذين أُرْسِلَ إليهم موسى، وقومُ ثمودَ الذين أُرْسِلَ إليهم صَالِحٌ نماذجُ من أممٍ سابقةٍ كان لديهم قوةٌ وقدرةٌ، قَصَّ اللهُ قِصَصَهُمْ في سورٍ أخرى أنهم لَمَّا صَدُّوا الناسَ عن طاعةِ الله أَنْزَلَ اللهُ بهم العقوبةَ، فَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ.

وأما ثمودُ فَأُرْسِلَتْ عليهم الصيحةُ، وأُهْلِكُوا في لحظاتٍ، وهكذا ألا يخشى هؤلاء الظلمةُ الذين يَصُدُّونَ الناسَ عن دينِ اللهِ أو يصدونهم عن شيءٍ من شعائرِ اللهِ أن ينزلَ اللهُ بهم العقوبةَ التي تكونُ في لحظاتٍ، ونحن نشاهدُ ما بين وقتٍ وآخرَ عقوباتٍ عظيمةً تنزلُ على أممٍ متعددةٍ مختلفةٍ فَتُنْزِلُ بهم في لحظات قليلة من المصائبِ الشيءَ الكثيرَ.

ثم قال سبحانه مع هذه الآيات العظيمة: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩﴾: أي: مع النظرِ في صفاتِ اللهِ وَعِظَمِهَا وقدرته، ومع النظرِ في السننِ الكونيةِ في الأممِ الماضيةِ ومع النظرِ في أن اللهَ هو الخالقُ لهذا الكونِ المالكُ له المتصرفُ فيه إلا أن الكفارَ يَسْتَمِرُّونَ على غَيِّهِمْ وتكذيبهم لأنهم يظنون أنهم بذلك سيتمكنون من طَمْسِ دينِ اللهِ، ووَاللهِ لن يستطيعوا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾.

قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾: أي: أنه سبحانه عَالِمٌ بِهِمْ قادرٌ عليهم؛ وإنما يجعلهم يَسْتَمِرُّونَ في مَكْرِهِمُ اسْتِدْرَاجًا لهم وإلا فهو قادرٌ على إنزالِ العقوبةِ بهم في لحظةٍ، وهو في نفسِ الوقتِ حافظٌ لِدِينِهِ مَهْمَا حَاوَلُوا وَمَكَرُوا، وإنما يريدُ اللهُ أن يَسْتَمِرُّوا في غَيِّهِمْ لئلا يكونَ لهم حظٌّ في الآخرةِ، ومن أجلِ أن يكونَ ذلك سببًا لاختبارِ المؤمنين، هل يَثْبُتُونَ على دينهم أو أن هذه الفتنَ تجعلُهم يَزِيغُونَ عَمَّا هم فيه من حَقٍّ وَهُدًى إلى الضلالِ.

وكذلك يريدُ اللهُ للمؤمنين الصادقين أن ترتفعَ درجاتُهم بحصولِ أعمالٍ صالحةٍ لديهم من الصبرِ على أقدارِ اللهِ المؤلمةِ ومن الجهادِ في سبيلِ اللهِ دعوةً إلى الله وتعليمًا لعبادِ اللهِ وَنَشْرًا لأحكامِ اللهِ ومقاتلةً لأعداءِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١﴾: أي: هذا الكتابُ قرآنٌ مجيدٌ عظيمُ الصفاتِ مُتَّسِعُ المعاني؛ وَمِنْ ثَمَّ فقد تَكَفَّلَ اللهُ بحفظِه.

فقال سبحانه: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾: أي: أن اللهَ قد تَكَفَّلَ بحفظ هذا الكتابِ فمهما حَاوَلَ الناسُ أن يُحَرِّفُوا فيه أو أن يزيدوا فيه أو أن ينقصوا منه أو يصدوا أولياءَه عنه فإن هذا الدينَ سيبقى وهذه الشريعةَ سَتَبْقَى لا مَحَالَةَ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. التذكيرُ باليومِ الآخِرِ، وأن الناسَ سَيُحَاسَبُونَ على أعمالِهم في ذلك اليومِ، وستكونُ الشهاداتُ في ذلك اليومِ، وهذه الأمةُ تَشْهَدُ على غَيْرِهَا من الأممِ، والأنبياءُ يشهدونَ على أُمَمِهِمْ، ومحمدٌ ﷺ يشهدُ على سائرِ الأنبياءِ.

٢. أن محاولةَ الكافرينَ صَدّ الناسِ عن دينِ اللهِ ستستمرُّ إلى قيامِ الساعةِ، ولن تتوقفَ، وأن المطلوبَ من المؤمنين أن يبذلوا جُهْدَهُمْ وغايةَ ما لديهم من أَجْلِ إبطالِ مكرِ هؤلاء ومحاولاتهم، وتثبيتِ بعضِهم بعضًا على الالتزامِ بهذه الشريعةِ والاستجابةِ لأوامرِ اللهِ جل وعلا.

٣. قَسْوَةُ قلوبِ الكافرين؛ فَإِنَّهُمْ يُعَذِّبُونَ المؤمنين لا لِذَنْبٍ ولا لشيءٍ، يُعَذِّبُونَهُمْ بأقصى العقوباتِ ثم بعد ذلك يتفرجون على ذلك كأنه لم يحصل شيء، ثم يَدَّعُونَ أنهم أهلُ حقوقِ الإنسانِ.

٤. التذكيرُ بصفاتِ الله العظيمةِ، فهو العزيزُ الحميدُ، وهو الذي له مُلْكُ السماواتِ والأرضِ، وهو على كل شيء شهيدٌ، وهو الذي بَطْشُهُ شديدٌ، وهو الذي يبدئ ويعيد، وهو الغفورُ الودودُ، وهو ذو العرشِ المجيدِ، وهو فعالٌ لما يريد، فَمَنْ كان بهذه الصفاتِ كيف يُعَارَضُ أَمْرُهُ، وكيف يُصَدُّ الناسُ عن دينِه؟!

٥. التذكيرُ بِقِصَصِ الأممِ الماضيةِ الذين أَعْرَضُوا عن أمرِ اللهِ وصدوا عن دينِ الله فنزلت بهم العقوباتُ في لحظاتٍ وأن الذي أنزلَ العقوباتِ بالأممِ الماضيةِ قادرٌ على إنزالِ العقوباتِ بالأممِ الحاضرةِ، ولا زلنا نسمعُ عقوباتٍ متتاليةً في عصورٍ مختلفةٍ بأممٍ متعددةٍ بسببِ صدهم الناس عن دينِ اللهِ.

٦. تحذيرٌ لأولئك الذين يُعَذِّبُونَ المؤمنين ويمنعون من التزامِ الناسِ بدينِ اللهِ، ويمنعون الناسَ من أن يستجيبوا لأوامرِ اللهِ؛ فإن اللهَ وَصَفَ نفسَه بأنه العزيزُ، وَوَصَفَ نفسَه بأن له مُلْكَ السماواتِ والأرضِ، ووصف نفسَه بأنه على كُلِّ شَيْءٍ شهيدٌ، وأنه فعال لما يريد، وأن بطشه شديد.

٧. مشروعية محبة المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى، بل الله مقدم على غيره في المحبة، والمودة هي المحبة الصافية.

٨. حِفْظُ اللهِ لكتابِه ودينِه مهما حاول مَنْ حاول، وَمَكَرَ مَنْ مَكَرَ مِنْ أجلِ صَدِّ الناسِ عن دينِ اللهِ، أو مِنْ أجلِ تحريفِ هذا الدينِ وتبديلِه فإن اللهَ حافظٌ دينَه.

تفسير سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ
الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ
مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ
وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾
فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾
وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ
بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾
فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤

موضوع السورة:

هذه السورة المكية تختصر مراحل الحياة، من خلق الإنسان إلى بعثه وحسابه، بما لديه من أعمال وأسرار معرفة بقدرته، مع التذكير بدعوة الحق الصادقة الجادة، والإشارة إلى كيد الفجار في محاربة الإسلام مما سيوصلهم إلى العاقبة السيئة.

معاني الآيات:

قال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾: أقسم اللهُ جَلَّ وعلا في بدايةِ هذه السورةِ بالسماءِ؛ هذا البناءُ العظيمُ المُحْكَمُ، ثُمَّ أَقْسَمَ بالطارقِ، والأصلُ في الطارقِ أنه ما يأتي ليلاً، ثم على جِهَةِ التأكيدِ له والتعظيمِ لِشَأْنِهِ، سَأَلَ اللهُ عنه مِنْ أَجْلِ أن يلفتَ الأذهانَ له، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢﴾: ما هو الطَّارِقُ؟ وَمَا شَأْنُ الطَّارِقِ؟

فَسَّرَهُ ربنا بقولِه: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾: والأظهرُ أن المرادَ بـ (النجم) ليس نَجْمًا بخصوصِه، وإنما هو اسمُ جنسٍ للنجومِ كُلِّهَا، و(الثاقبُ) أي: المضيءُ، أي: أن له نُورًا مضيئًا يثقب حُجُبَ السماواتِ.

ثم قال سبحانه مبينًا جواب القسم: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾: أي: أنه مَا مِنْ نَفْسٍ إلا وقَدْ وَكَّلَ اللهُ بها حَفَظَةً يحفظونها مِنْ أَمْرِ اللهِ، يحفظونها من السّوء والشياطين، ويكونون عونًا لها على الخير، وهكذا أيضًا مَا مِنْ نَفْسٍ إلا وَقَدْ وَكَّلَ اللهُ بها حَفَظَةً يُسَجِّلون أعمالَها، ويحصون أقوالَها.

إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ
ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ ....

وهكذا قوله: [إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ]، أي: إن كل نفس حافظةٌ لأعمالها، كما قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾.

ثم أَمَرَ اللهُ تعالى بالتفكرِ والاعتبارِ، فقال سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾: أي: يا أيها الإنسان، ما هي المادةُ التي خلقكَ الله منها؟ لتعرفَ قيمتَكَ وَلِتَعْرِفَ قُدْرَةَ الله عليكَ.

فقال سبحانه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾: أي: هذا الرجلُ وهذا الإنسانُ الذي في تصوّرِهِ أنه بَلَغَ ما بَلَغَ أَصْلُهُ ماء مَنِيٍّ دافِقٍ، أي: أنه يَدْفَعُ بَعْضُهُ بَعْضًا، قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾: أي: أن هذا الماءَ -المَنِيَّ الذي هو أصلُ الإنسانِ - أخرجه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من بين (الصلب) وهو عظامُ الظهرِ، و(الترائبُ) وهي عظامُ الصدرِ، وقد قيل بأن ابن آدم يُخْلَقُ من مَائَيْنِ؛ ماءِ الرجل الذي يأتي من الصلب، وماءِ المرأةِ الذي يخرجُ من الترائبِ، وقيل: بل قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾: أي: أن المنيَّ الذي من الرجل يخرج من بين صُلْبِهِ وتَرَائِبِهِ.

ولعلَ هذا القولَ أظهرُ لأنه قال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾: معناه أنهما في جسد واحد؛ لقوله: [مِنْ بَيْنِ]، والبينُ يُشعر بأنه بينهما.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾: أي: أنه جل وعلا يُبَيِّنُ أنه قادر على رَجْعِ هذا الإنسانِ بِخَلْقِهِ مرةً أُخْرَى وَبَعْثِهِ للجزاءِ والحسابِ؛

فإن مَنْ خَلَقَكَ أولَ مرةٍ قادرٌ على رَجْعِكَ وَخَلْقِكَ مرةً أُخْرَى، وكذلك رَبُّ العزةِ والجلالِ قادرٌ على إعادةِ الشخصِ الكبيرِ في السنِّ إلى شبابِه في يومِ القيامةِ، وقادرٌ على إعادةِ هذا الإنسانِ مَنِيًّا وَنُطْفَةً وَمَاءً دَافِقًا.

قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ ۝٩﴾: قيل: تُخْتَبَرُ ما يُكِنُّهُ الناسُ في ضمائرهم، وقيل: تَظْهَرُ السَّرَائِرُ وَتَبْرُزُ حقيقة ما في الدنيا عندما كان يُظْهِرُ الإنسانُ أنه على طاعةٍ ولا يكون كذلك في يومِ القيامةِ تَتَّضِحُ الحالُ، والمنافقون الذين يُظهرون شيئًا وَيُبْطِنُونَ غَيْرَهُ في يومِ القيامةِ تظهرُ أحوالُهم، وأولئك المراءون الذين يراءون الناسَ تَتَبَيَّنُ أحوالُهم في يومِ القيامةِ.

قال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾: أي: أن الإنسان في يوم القيامة ليس له قوةٌ ولا ناصرٌ، القوةُ: أَمْرٌ من ذاتِ الإنسانِ، والناصرُ: المُعِينُ مِنْ خَارِجِهِ، فكأنه يقول: هو عاجزٌ في ذلك اليومِ بل هو في أَدْنَى درجاتِ العجزِ؛ لأنه ليس لديهِ قوةٌ في نفسِه، ولا يُوجَدُ له مُعِينٌ ولا ناصرٌ من قِبَلِ غَيْرِهِ.

ثم أَقْسَمَ سبحانه مرةً أخرى بالسماءِ، فقال سبحانه: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١﴾: أي: أنها تُمْطِرُ مرةً بعد مرةٍ.

ثم أَقْسَمَ سبحانه بالأرض، فقال: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢﴾: أي: تَنْشَقُّ الأرض لخروج النبات.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾.

قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾: أي: هذا القرآنُ العظيمُ قولُ حقٍّ مبينٌ، ليس فيه شَكٌّ ولا رَيْبٌ، وهذه الأمورُ التي ذكرها اللهُ قبل قليل من بَعْثِ الإنسانِ أيضا قولُ حقٍّ لا شكَّ فيها.

قال عز وجل: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾: أي: هذا الحديثُ ليس باللعبِ، وإنما هو حقٌّ على أَعْلَى درجاتِ الحقِّ.

ثم ذَكَرَ اللهُ جل وعلا صفةَ أعداءِ الدِّينِ في كل زمان وفي كل مكان: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾: المراد بالكيد: المَكْرُ الْخَفِيُّ والتدبيراتُ الخفيةُ التي يسعون بها إلى طمسِ هذا الدينِ وإلى محاربةِ أوليائه.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾: يعني أنهم في ظنهم بَلَغُوا أَكْبَرَ درجاتِ الْكَيْدِ، لَكِنَّ كَيْدَهُمْ في الحقيقةِ ضعيفٌ؛ فإن الله قال: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾: أي: يقابل مكرَهم الخفيَّ وتدبيراتِهم السريةَ بما يكون كذلك، قال تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥].

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾: في قوله: [**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ**] دلالةٌ على أن هذه الآياتِ ليست خاصةً بقومٍ دونَ قومٍ من الكفارِ، بل هي عامةٌ للمحاربين للدِّينِ إلى قيامِ الساعةِ.

وقوله تعالى: [**أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا**] أي: انتظر بهم قليلاً، فَإنه سَتَحِلُّ بهم العقوباتُ؛ لأن من توعده اللهُ فإنه إلى خسارةٍ وإلى قِلٍّ وهزيمة.

فوائد الآيات:

في هذه الآياتِ من الفوائد ما يلي:

١. الإشارةُ إلى عِظَمِ خلقِ السماءِ والنجومِ والأرضِ مما يجعلُ الإنسانَ يتفكرُ فيها.

٢. وفي هذه الآياتِ أن اللهَ عزَّ وجلَّ يحفظُ العبادَ بالملائكةِ، فيحفظونهم من كثيرٍ من الشرورِ، ويُسَجِّلُونَ أعمالَهم.

٣. تذكيرُ الإنسانِ بأصلِ خِلْقَتِهِ؛ ليتذكرَ معادَه وليبتعدَ عن التكبرِ والتجبرِ على عبادِ الله.

٤. التذكيرُ بقدرة الله جل وعلا على إعادة الناسِ وبعثِهم مرةً أخرى.

٥. أن السرائرَ التي يُضْمِرُهَا الناسُ وَيُخْفُونَهَا عن غيرهم في الدنيا سَتُخْتَبَرُ وَتُظْهَرُ يومَ القيامةِ.

٦. أن الإنسانَ يومَ القيامةِ ليس له قوةٌ ولا ناصرٌ إلا ما اسْتَمَدَّهُ من ربه جَلَّ وعلا.

٧. التذكيرُ بنعمةِ اللهِ بإنزالِ الأمطارِ وشقِّ الأرضِ من أجلِ إنباتِ النباتِ.

٨. التأكيدُ على أن هذا الكتابَ حَقٌّ، وَمِنْ ثَمَّ لا بد من التمسكِ به والسيرِ عليه، فإن مَنْ سار على هذا القرآنِ واهتدى بهداه فإن اللهَ سَيُوَفِّقُهُ للهُدى ويجعله من أهل التقوى، وسيجعلُ له العاقبةَ

الحميدةَ دُنْيا وَآخِرَةً.

٩. أن الكفارَ لا يزالونَ يكيدونَ لأهل الإسلامِ وَيَمْكُرُونَ بهم ويحاولونَ طمسَ معالمِ هذا الدِّينِ.

١٠. أن كيدَ الكفار لن يُوصِلَهُمْ إلى طمسِ هذا الدِّينِ، بل سيكون فِعْلُهُمْ وَبَالاً عليهم، وسينزل اللهُ بهم العقوباتِ.

١١. أن اللهَ يُمْهِلُ الكافرينَ قليلاً ؛ ليزدادوا في إثمهم فتنزل بهم العقوبةُ العظيمةُ.

تفسير سورة الأعلى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ
فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥
سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا
يَخۡفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩
سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ
ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ
۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦
وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨
صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ ....

موضوع السورة:

سورةُ (الأَعْلَى) سورةٌ مكية عظيمةُ الشأنِ، فيها منهجُ حياةِ المسلمِ؛ ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقرأُ بها في صلاةِ العيدِ، ويَقْرَأُ بها في صلاةِ الجمعةِ[١]، ويقرأُ بها في الركعةِ الأُولَى من صلاةِ الشفعِ[٢]، وما ذاك إلا لأهميتها وَعِظَمِ المعانِي التي اشْتَمَلَتْ عليها هذه السورةُ[٣].

معاني الآيات:

أولُ هذه السورةِ قولُه تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾: سَبِّحْ بمعنى: نَزِّهْ؛ فإن الله جل وعلا مُنَزَّهٌ عن النقائصِ، وتنزيهُ اللهِ يشمل عددًا من الأمور منها:

أولاً: عدمُ نسبةِ النقص إليه سبحانه.

ثانياً: عدمُ تعطيلِ صفاتِ اللهِ وإلغائها؛ فإن النصوصَ قد دَلَّتْ على إثباتِ صفاتٍ لله جل وعلا وأسماءٍ، ومن هنا فإن مِنْ تَنْزِيهِ الله أن نُثْبِتَ هذه الأسماءَ وهذه الصفاتِ؛ لأنه لا يَنْتَفِي عن هذه الصفاتِ إلا مَنْ هو

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبح باسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٣) والنسائي (١٧٣٠) وابن ماجة (١١٧١) وابن حبان (٢٤٥٠) والحاكم ٢/٢٨٢ من حديث أبي بن كعب.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦/١) أن النبي ﷺ كان يحب هذه السورة.

....

ناقصٌ من الجماداتِ ونحوِها ، ومن هنا فإن المنهجَ أننا نُثْبِتُ لِلهِ ما أَثْبَتَهُ لنفسِه ، وَأَثْبَتَهُ له رسولُه من الأسماءِ والصفاتِ والأفعالِ ، وننفي ما نَفَاهُ اللهُ ورسولُه ونقفُ عما لم يَرِدْ فيه شيءٌ عن الله ولا عن رسولِه ﷺ ؛ وذلك لأن اللهَ أعلمُ بنفسِه مِنَّا ، ورسولُه ﷺ أعرفُ بصفاتِ الله منا ؛ وَمِنْ ثَمَّ فنحن نُثْبِتُ لله ما وَصَفَ به نفسَه ، ثم إن الله جل وعلا قد أنزل كتابَه على أعلى درجاتِ البيانِ ، فلو كانت هذه الصفاتُ لا يتصفُ اللهُ بها لَمَا وصف نفسَه بها ، ولما أَتَى بالألفاظِ التي ليس فيها إبهامٌ وليس فيها إيهامٌ للناس بأن الله يتصفُ بذلك ، فَلَمَّا وَصَفَ نفسَه بذلك سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَثْبَتْنَا لِلهِ ما أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ.

ثم إن الله جل وعلا صادقٌ : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] فلا يمكن أن يُخْبِرَ بخبرٍ في صفاتِه إلا ويكون صحيحًا مُطَابِقًا ، ولا يمكن أن يكونَ خَبَرُهُ مُخَالِفًا للواقع.

قوله تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ : فيه أَمْرٌ للعبادِ بأن يُنَزِّهُوا اسمَ الله الأَعْلَى ؛ فإن الأَعْلَى من أسماءِ اللهِ جل وعلا ، ويشمل عُلُوَّ الذاتِ ؛ فهو سبحانه مُتَّصِفٌ بصفةِ العلوِّ ، وليس العلوُّ جهةً محصورةً بحيث يقال : إن الله قد انحصر فيها ، بل هي لا نهايةَ لها ، ثم إن النصوصَ قد دَلَّتْ على إثباتِ هذه الصفةِ ، ودلت السُّنَّةُ النبويةُ عليها ، وَدَلَّتِ العقولُ السليمةُ على إثباتِ هذه الصفةِ ، ودلت الفِطَرُ التي في الناسِ على إثباتها ، إذ ما دَعَا دَاعٍ رَبَّهُ جل

....

وعلا إلا وَجَدَ في نفسِه رغبةً في التوجهِ إلى العلوِّ، وما ذاك إلا لاتِّصَافِ اللهِ بهذه الصفةِ، ومع ظهورِ الأدلةِ على هذه المسألةِ إلا أن أَكْثَرَ الطوائفِ قد نَفَتْ صفةَ العلوِّ عن الله جل وعلا، ومن هنا يظهرُ المعنى في هذه الآية: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ أي: نَزِّهِ اسمَ رَبِّكَ الأعلى فَأَثْبِتْهُ ولا تُعطِّلْهُ ولا تُؤَوِّلْهُ ولا تُكَيِّفْهُ، بل أَثْبِتَ لله ما أثبتَه لنفسِه جل وعلا.

والتسبيحَ لهذا الاسمِ وهو الأعلى؛ لأنه من الأسماءِ التي نَفَاهَا وَجَحَدَهَا طوائفُ كثيرةٌ، جَحَدُوهُ بِاسْمِهِ أو جَحَدُوهُ بمعناه؛ فإن اسمَ (الأَعْلَى) اسمٌ يَدُلُّ على معنًى ولا بد من إثباتهما معًا الاسم والمعنى، وكما أن الله له صفة العلوِّ في الذاتِ فَلَهُ جل وعلا أيضًا صفةُ عُلُوِّ القهرِ وَعُلُوِّ المنزلةِ، لكنها ليست هي المراد أصالةً بهذا اللفظِ، وإنما يدلُّ اللفظُ عليها تَبَعًا، جاء في مسندِ أحمدَ وَسُنَنِ أبي داودَ وابنِ مَاجَهْ من حديثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قال: «لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ، وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»**[(١)]، ومن هنا ذَهَبَ الإمامُ أحمدُ وطائفةٌ من الفقهاءِ إلى أن قولَ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى) في السجودِ، وقولَ: (سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ) في الركوعِ واجبٌ من واجباتِ الصلاةِ لا يسقطُ إلا في حالِ النسيانِ، وَاسْتَدَلَّ على ذلك بِوُرُودِ الأمرِ في قولِ النبيِّ ﷺ: **«اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ» «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»**[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ ....

والجمهورُ على عَدَمِ وجوبِ هذا اللفظِ في الركوعِ والسجودِ، لكنهم قالوا بأنه مُسْتَحَبٌّ؛ لأن النبيَّ ﷺ قد رَغَّبَ فيه وكان يُلازِمُهُ.

ثم قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾: أي: أنه سبحانه خَلَقَ أنواعَ المخلوقاتِ، ومنها هذا الإنسانُ وهذه بقيةُ أنواعِ الحيوانِ، وهذه الأرضُ وهذه السماواتُ، وهذه أنواعُ الجماداتِ كُلُّها قد خَلَقَهَا رَبُّ العزةِ والجلالِ، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ۝١٦﴾ [الرعد: ١٦] ثم قال: [فَسَوَّى] أي: أنه جَعَلَ هذا الْخَلْقَ معتدلاً مُسْتَوِيًا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾: أي: قَدَّرَ الأقدارَ في هذا الكونِ (فَهَدَى)، أي: أَرْشَدَ الخلقَ لمصالحهم، فهذا الرضيعُ يَلْتَقِمُ ثَدْيَ أُمِّهِ، مَنْ عَلَّمَهُ ذلك، وهذه الحيواناتُ تأتي بمصالحها صغيرِها وكبيرِها، مَنِ الذي عَلَّمَها وَأَرْشَدَهَا وهداها للقيامِ بمصالحها، هو رَبُّ العزةِ والجلالِ.

فالهدايةُ هنا يُرَادُ بها: الهدايةُ فيما يتعلقُ بأمورِ مصالحِ الدنيا، والهدايةُ قد تُطْلَقُ ويرادُ بها هذا المعنى، ومرةً تُطْلَقُ وَيُرَادُ بها هدايةُ الدلالةِ إلى الخيرِ والإرشادِ إليه كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهكذا أيضًا تُطْلَقُ لفظةُ الهدايةِ ويراد بها الإلهامُ والتوفيقُ مما يختصُّ به رَبُّ العزةِ والجلالِ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهي المنفيةُ في قولِه جل وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۝ ....

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝﴾: أي: أَخرجَ النباتَ مِنَ الأرضِ، فـ(المَرْعَى): ما تَرْعَاهُ البهائمُ وقد يشمل بقيةَ أنواعَ النباتاتِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝﴾: أي: جَعَلَ هذا المَرْعَى بعد مدةٍ غُثَاءً أَحْوَى، والغثاءُ هو الهشيمُ، والأَحْوَى: الأسودُ المتغيرُ، [**غثاءً أَحْوَى**] أي: هَشِيمًا مُتَغَيِّرًا، فانظروا إلى قدرةِ الله كيف حَوَّلَ ذلك النباتَ الأخضرَ الذي يُبْهِجُ النفسَ إلى أن كان هَشِيمًا مُسْوَدًّا تَذْرُوهُ الرياحُ.

فهذه الآياتُ فيها تذكيرٌ بقدرةِ اللهِ جل وعلا مما يجعل النفوسَ تتعلقُ به سبحانه وتعالى.

ثم قال جل وعلا: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۝﴾: أي: أن الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ: سنقرؤك هذا الكتاب، ونجعلك تحفظه ويبقى في صدرك، وهذا فيه معجزةٌ عظيمةٌ؛ فإن النبيَّ ﷺ لم يكن قارِئًا، ولم يكن يَكْتُبُ الخطَّ ومع ذلك جعله الله عز وجل يحفظ كتابَه، وأعطاه من الحكمةِ والسنةِ ما أَعْجَزَ أصحابَ العقولِ الباهرةِ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

قوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۝﴾: أي: أن اللهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِنَبِيِّهِ ﷺ أن لا يَنْسَى هذا الكتابَ، وقد كان النبيُّ ﷺ في أولِ الأمرِ إذا نَزَلَتْ عليه الآياتُ عَالَجَ منها شِدَّةً؛ لئلا يَنْسَاهَا فَيُؤَاخَذَ بذلك، فَتَكَفَّلَ اللهُ له بأن يَحْفَظَهَا له.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧﴾ ....

ثـم قـال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: أي: أن هنـاك آيـاتٍ سَيَنْسَخُهَا اللهُ جل وعلا من كتابه، ومن ثم سَيَنْسَاهَا هذا النبيُّ الكريمُ، أو قد يكون نِسْيَانًا مُؤَقَّتًا فيتذكر ذلك كما في الحديث عَنْ أُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَترَكَ آيَةً، وَفِي الْقَوْمِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُسِّيتَ آيَةَ كَذَا وَكَذَا، أَوْ نُسِخَتْ؟ قَالَ: «**نُسِّيتُهَا**»(١).

وقال طائفة من أهل العلم: إن الخطابَ في هذه الآياتِ -وإن كان مُوَجَّهًا للنبيِّ ﷺ أصالةً - إلا أنه يَشْمَلُ الأُمَّةَ عَامَّةً، فإن الله قد تَكَفَّلَ بحفظِ هذا الكتابِ إلى قيامِ الساعةِ، مهما كادَه الكائدون، ومهما حاولوا طَمْسَ مَعَالِمِهِ وإلغاءَ شعائره، فإن الله جل وعلا مُتَكَفِّلٌ بحفظِ دينِه، وإن كان بعضُ المَوَاطِنِ قد يتغلب فيها الجبارون المتكبرون الظالمون المجرمون فَيَصُدُّونَ الناسَ عن دينِ اللهِ ولا يجعلونهم يُقْدِمُونَ على طاعةِ اللهِ ويُكرهونهم على تَرْكِ دِينِ اللهِ إلا أن ذلك قليلٌ نادرٌ ما يَلْبَثُ أن يعودَ فينشرُ اللهُ دينَه.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧﴾: أي: أن اللهَ جل وعلا لا يخفى عليه شيءٌ من الأحوالِ، سواء أحوال بني آدمَ أو أحوال أي: أَحَدٍ من مخلوقاته، فهو يعلمُ الجهرَ وهو ما أُظْهِرَ من الكلامِ والأفعالِ، وسبحانه أيضًا يَعْلَمُ (ما يَخْفَى)، أي: ما تَوَاصَى أصحابُه على كِتْمَانِهِ وأغلقوا عليه

(١) أخرجه الطبراني ٢٠/٢٧ وابن خزيمة (١٦٤٧) والدارقطني ١/٤٠٠.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ ....

الأبوابَ، وهكذا يعلمُ سبحانه ما في الضمائرِ والصدورِ، فإنه يعلمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، فَرَبٌّ هذه صِفَتُهُ كيف يُعْصَى، وفي هذا دلالةٌ على أن اللَّهَ جل وعلا يعلمُ بما قد يَفْعَلُهُ غيرُ المسلمين من اضطهادٍ لأهلِ دينِ اللَّهِ، لكنه يُؤَخِّرُهُمْ قليلًا، ثم يُنْزِلُ بهم العقوباتِ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾: أي: نسهل عليك أفعال الخير، ومن معانيها أننا نجعل لك شرعاً سهلاً.

ومن معانيها أن اللهَ جل وعلا قد تَكَفَّلَ لِنَبِيِّهِ ﷺ بأن يُسَهِّلَ له ما تَحْصُلُ به السعادةُ والخيرُ والهناءُ في الدنيا والآخرة.

ومن معانيها أن المؤمنين وإن لَحِقَهُمْ شَيْءٌ من الأذى في أولِ أمرهم فَلهم العاقبةُ الْحَسَنَةُ، كما تَكَفَّلَ اللهُ بذلك في عددٍ من الآياتِ القرآنيةِ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] ففي الدنيا يَنْعَمُ المؤمنون بِنِعَمِ الله جَلَّ وَعَلاَ، وما ذاك إلا أن الله يُيَسِّرُهُمْ لِلْيُسْرَى، وقد جاء في آياتٍ أخرى بيانُ الأسبابِ التي يُيَسَّرُ الإنسانُ بِفِعْلِهَا إلى الْيُسْرَى كما قال جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ -٧].

ثم قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾: أي: أن مهمةَ المؤمنِ

....

التذكيرُ والدعوةُ إلى الله جل وعلا، وبيانُ الطريقِ التي ينجو بها الناسُ من عذابِ جهنمَ وكيف يفوزون بالسعادةِ العظيمةِ الحقيقيةِ.

وقوله: [**إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**]: يُرَادُ به أنه في بعضِ المَوَاطنِ قد يكون الذكرى بشيء مخصوصٍ فيه مَضَرَّةٌ فَيُجْتَنَبُ التذكيرُ بذلك المخصوصِ وَيُذَكَّرُ بغيره.

وَمِنْ أمثلةِ ذلك: ما لو كان هناك أناسٌ عندهم عقولٌ لا تُدْرِكُ دقائقَ مِنْ مسائلِ القضاءِ والقَدَرِ مثلاً، فإذا حُدِّثُوا بها قد يكون هذا سَبَبًا لورودِ الشبهاتِ على نفوسهم، وبالتالي فَيُخْتَارُ لهم موضوعٌ آخرُ كما وَرَدَ في الخبرِ: «**مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**»(١).

وَمِثْلُ ذلك أيضًا ما لو وُجِدَ عند الواعظِ أناسٌ عندهم نوعُ وَسَاوِسَ فإذا حَدَّثَهُمْ بالطلاقِ وأحكامِه وتفاصيلِه قد يُورِثُهُمْ هذا الوساوسَ في مسائلِ الطلاقِ، فَيَظُنُّ كلُّ واحدٍ منهم أن أي: لفظٍ تَكَلَّمَ به فإن الطلاقَ قد وَقَعَ به، فحينئذ نقولُ: هذا الحديثُ ليس مما يَنْفَعُ هنا، بل فيه مَضَرَّةٌ، ومثل ذلك أيضًا: لو حدَّث الإنسانُ بحديثٍ لبعضِ الإِعْلاَمِيِّينَ وهو يَعْلَمُ أنهم فَسَقَةٌ سَيُحَرِّفُونَ هذا الحديثَ وَيُغَيِّرُونَهُ عن مَجَارِيهِ ومعانيه، وسيضعون له عناوينَ لا تدل على حقيقته، ولا تدل على ما في مضامينه،

---

(١) أخرجه مسلم (٥) عن عمر ﷺ.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ ....

فمثلُ ذلك يجعلُ الإنسانَ يَجْتَنِبُ تذكيرَهم والحديثَ معهم.

أما إذا كان الإنسانُ الداعيةُ يَظُنُّ أن مَنْ سَيَدْعُوهُ سَيُعْرِضُ عنه ولن يُقْبِلَ عليه فهذا ليس مما لا تَنْفَعُ فيه الذكرى؛ لأن ذِمَّةَ الداعيةِ تَبْرَأُ بهذا الحديثِ فيكونُ ممن انتفعَ بهذه الذكرى؛ ولذلك قال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ فَكَوْنُ الأَشْقَى يَتَجَنَّبُهَا لا يَعْنِي أنه لن تَنْفَعَهُ الذكرى؛ لأن الداعيةَ ينتفعُ بإبراءِ ذِمَّتِهِ وبتبليغِ دعوةِ رَبِّهِ ودينِ ربه جَلَّ وَعَلاَ.

قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾: أي: مَنْ كَانَ في قلبه خشيةٌ من الله جل وعلا فإنه سينفعُه ذلك التذكيرُ؛ وسيتذكرُ وسيكونُ سَبَبًا من أسبابِ التزامِه بطاعةِ اللهِ وَسَيْرِهِ على منهجِ الله.

قال سبحانه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾: أي: أن ذلك الذي قَدَّرَ اللهُ عليه الشقاءَ سيتجنب دعوةَ دُعَاةِ دِينِ اللهِ، وسيشقى، ما هو مصيرُه إذن؟

مصيرُه ذَكَرَهُ اللهُ بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾: أي: يُوَاقِعُهَا وَتُحِيطُ به وَيُحِسُّ بها بجميعِ جَوَارِحِهِ حتى تصلَ إلى فؤاده، ووَصَفَهَا بأنها كبرى؛ لأنها أعظمُ من نارِ الدنيا؛ فقد وَرَدَ في الحديثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**»[1]، ونارُ جهنمَ دائمةٌ أبدًا، لا

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣).

﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ ....

يتمكنُ أحدٌ من إطفائها، ونارُ الدنيا يمكن أن تكونَ جزئيةً لبعضِ أجزاءِ الإنسانِ بخلافِ تلك النارِ الكبرى، ثم هذا الأَشْقَى إذا وصلَ النارَ وَصَلاَهَا، ماذا سيكون حاله؟

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾: أي: أنه يَبْقَى أبدَ الآبادِ في نارِ جهنمَ، فلا يموتُ فيستريحُ من العذابِ، مع أنه يتمنى الموتَ، ولا يحيا بمعنى أنه لا يحيا حياةَ نعيمٍ وكرامةٍ، وإنما هي حياةُ شقاءٍ وَذُلٍّ ومهانةٍ.

ثم قال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾: أي: أن الفلاحَ والنجاحَ يكونُ لِمَنِ اتصفَ بالصفاتِ التاليةِ:

أولها: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، أي: طَهَّرَ نَفْسَهُ من الشركِ فأصبحَ من أهلِ التوحيدِ، ومن أمراضِ القلوبِ فأصبحَ صاحبَ قلبٍ سليمٍ، وَمِنَ الشُّحِّ بالمالِ والبخلِ فأصبحَ باذلاً لماله في سبيل الله.

ثانيها: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾: أي: أَكْثَرَ من ذِكْرِ الله جل وعلا ليلاً ونهارًا صُبْحًا وعِشَاءً.

ثالثها: ﴿فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾: أي: أنه حَافَظَ على صلواتِه التي أَمَرَ اللهُ بها.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾﴾: أي: أنكم تُقَدِّمُونَ هذه الحياةَ الدنيا أي: القريبةَ القليلةَ الفانيةَ تُقَدِّمُونَهَا على الآخِرَةِ، وهذا ليس من العقلِ في شيءٍ، للفروقاتِ العظيمةِ بين دارِ الدنيا ودارِ الآخرةِ.

قال سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾: الآخرةُ نعيمُها كَامِلٌ بخلافِ

إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾.

الدنيا، الآخرةُ ليس فيها مُكَدِّرَاتٌ ولا مُنَغِّصَاتٌ لِمَنْ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، بخلافِ نعيمِ الدنيا فإنه مَكْدُورٌ مُكَدَّر فيه أنواعٌ من أنواعِ الأَذَى والألمِ والإصاباتِ.

ثم قال: [**وَأَبْقَى**] أي: أن نعيمَ الدنيا قليلٌ فَانٍ زائلٌ بخلاف نعيمِ الآخرةِ، فإنه بَاقٍ لا يَزُولُ، نعيمُ الدنيا يزولُ بأسبابٍ كثيرةٍ منها الموتُ، فإن الإنسانَ إذا مَاتَ انقطعَ نعيمُه من الدنيا، وانتقل مالُه لوارثِه، وهكذا تتوقفُ كثيرٌ من نِعَمِ الدنيا بسببِ المرضِ، فذلك المريضُ الذي يتألمُ بأنواعِ الآلام لن يَنْعَمَ في حياتِه ولن يَسْعَدَ فيها إلا إذا كان من أهلِ الإيمانِ والتقوى، فَرَضِيَ بقضاءِ الله وَقَدَرِهِ.

هكذا أيضًا ينقطعُ نعيمُ الدنيا بسببِ الفقرِ؛ فإن الغَنِيَّ إذا افتقرَ فإنه تذهبُ عنه كثيرٌ من النعمِ التي لَدَيْهِ، وَيَبْأَسُ في حياتِه إلا أهلَ الإيمانِ والتقوى، ونحن نشاهدُ الواحد من هؤلاء، عنده أموالٌ طائلةٌ، في لحظاتٍ انْقَلَبَتْ حياتُه بدلَ أن تكونَ حساباتُه بالزائدِ أصبحت بِالسَّالِبِ، وأصبحت عليه ديونٌ كثيرةٌ عظيمةٌ، وهكذا أيضًا بقيةُ أنواعِ الْمُنَغِّصَاتِ في الدنيا.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾: أي: هذه المواعظُ وهذا الذِّكْرُ موجودٌ معناها في صُحُفِ الأنبياءِ السابقين، فلم تأتِ هذه الشريعةُ في أُصُولِهَا بأمرٍ جديدٍ، بل قد وَافَقَتْ ما في شرائعِ الأنبياءِ السابقين.

قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾: خَصَّ اللهُ إبراهيمَ وموسى عليهما السلام؛ وذلك لأنهما أفضلُ الأنبياءِ بعدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ولكثرةِ أَتْبَاعِهِمَا.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. وجوبُ تنزيهِ اللهِ جل وعلا من النقائصِ ووجوبُ إثباتِ صفاتِ اللهِ له.

٢. إثباتُ صفةِ العُلُوِّ واسمِ الأعلى لله جل وعلا.

٣. التذكيرُ بِنِعَمِ اللهِ على العبادِ فهو قد سَوَّى الخلقَ، وَهَدَى المخلوقاتِ لِمَصَالِحِهَا، وَأَخْرَجَ النباتَ وَقَلَبَهُ من حالٍ إلى حالٍ.

٤. فضلُ الله جل وعلا على نَبِيِّهِ ﷺ وَعِظَمُ مكانةِ هذا النبي عند رَبِّهِ جل وعلا.

٥. أن الله قد تَكَفَّلَ بحفظِ كتابِه فلا بد أن يَبْقَى إلى قيامِ الساعةِ.

٦. أن الله تَعَهَّدَ بالتيسيرِ لِلْيُسْرَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ولمن سَارَ على طريقتِه.

٧. الأمرُ بالتذكيرِ بدينِ اللهِ وترغيبِ عبادِ الله في دخولِه، وَمَنْ كان كذلك فهو على أعلى الدرجات: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

٨. أن الحديثَ الخاصَّ إذا كان سيؤدي إلى فتنةٍ أو إلى مَضَرَّةٍ فحينئذ لا ينبغي أن يُحَدِّثَ الإنسانُ به، وينبغي أن يحدثَ بما يَتَنَاسَبُ مع الحالِ بما يُصْلِحُ أحوالَ الناسِ.

٩. أن المُعْرِضَ عن الحقِّ ينبغي أن تُوصَلَ له دعوةُ الحقِّ على سبيلِ العمومِ، فذلك ليس مما يقالُ فيه بأن الذكرى لا تنفعُ، بَلْ تَنْفَعُ؛

لأن فيها إبراءً لذمةِ الداعيةِ وتحصيلاً للأجرِ والثوابِ وإقامةً للحجة على ذلك المُعْرِضِ.

١٠. أن صفةَ الخشيةِ إذا كانت في القلبِ فإنه سيكونُ لها ثمراتٌ عظيمةٌ، منها: أن يكون الإنسانُ قادرًا على فَهْمِ مواعظِ القرآنِ والسنةِ.

فَازْرَعْ يا أيها المؤمنُ الخشيةَ في قلبك حتى تتمكن مِنْ فَهْمِ القرآنِ وتدبُّره.

١١. وفي هذه الآياتِ الوعيدُ الشديدُ لأولئك الذين يُعْرِضُونَ عن دعوةِ الحقِّ ولا يستجيبون لها؛ لأنهم سَيَصْلَوْنَ النارَ الكبرى ثم لا يموتون فيها ولا يحيون حياةَ نَعِيمٍ.

١٢. الترغيبُ في تزكيةِ النفوسِ وتطهيرِها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ و(تزكى) أي: طَهَّرَ نفسَه، مِنْ كُلِّ دَنَسٍ فيشملُ تطهيرَها من الشِّرْكِ، ويشمل تطهيرَها من الذنوبِ والمعاصي، ويشمل تطهيرَها من أمراضِ القلوبِ، ويشملُ تَطْهِيرَهَا من الغِلِّ والحقدِ والحسدِ، ويشمل تطهيرَ النفوسِ من كُلِّ ما نَهَتْ عنه الشريعةُ، وكذلك يشمل تطهيرَ النفسِ من الشحِّ والبخلِ بأن يُنْفِقَ الإنسانُ في سُبُلِ الخيرات.

١٣. الترغيبُ في ذِكْرِ أسماءِ اللهِ؛ فإن العبدَ متى ذَكَرَ الله فإن ذلك سيكونُ من أسبابِ فَلاَحِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَمَنْ ذَكَرَ اللهَ ذَكَرَهُ اللهُ كما قال: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

١٤. الأمرُ بالمحافظةِ على الصلواتِ، وخصوصًا صلواتِ الفرائضِ فلا بد أن يحافظَ المؤمنُ عليها.

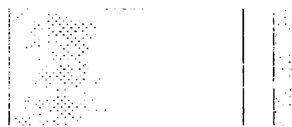
١٥. أن المؤمنَ لابد أن يجعلَ الآخرةَ بين عَيْنَيْهِ، وأن يعملَ من أجلِ آخِرَتِهِ، وأن يجعلَ الدنيا مَزْرَعَةً للآخرةِ.

١٦. التحذيرُ من تقديمِ الدنيا على الآخرةِ، بحيث إذا وَرَدَ عليه أمرٌ من أمورِ الآخرةِ وَقَابَلَهُ طَمَعٌ من أطماعِ الدنيا يُقَدِّمُ أطماعَ الدنيا، فهذا من إيثارِ الدنيا على الآخرةِ الذي وَرَدَ ذَمُّهُ في هذه الآياتِ، أما مَنْ كَانَ يكتسبُ ويرتزقُ بأنواعِ الأرزاقِ فهذا ليس مذمومًا خصوصًا إذا اسْتَعْمَلَ هذه الأنواعَ من أنواعِ الرزقِ في طاعةِ اللهِ عز وجل فَتَنَعَّمَ بها وَأَنْفَقَ على نفسِه وعلى مَنْ تَحْتَ يدِه تَقَرُّبًا لله؛ فإنه يكون بذلك مَأْجُورًا مُثَابًا المقارنةُ بين الآخرةِ والدنيا بلفظٍ وجيزٍ: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾.

١٧. أن شرائعَ الأنبياءِ عليهم السلامُ قد اتَّفَقَتْ على أصولِ ما دَعَتْ إليه، وإن كانت هناك مسائلُ وشرائعُ وفروعٌ قد تختلفُ فيها.

١٨. فَضْلُ إبراهيمَ وموسى عليهما السلام للنصِّ على اسْمَيْهِمَا هنا.

والله تعالى أعلم.



تفسير سورة الغاشية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾
عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ
﴿٥﴾ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن
جُوعٖ ﴿٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾ فِيهَا
سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾
وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى
ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾
وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ
مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ
وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ
إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ ....

موضوع السورة:

سورةُ الغاشيةِ من السورِ المكيةِ التي تتحدثُ عن مصيرِ الناسِ في يومِ الجزاءِ، سُمِّيَتْ بهذا الاسمِ لقولِه في أوَّلِ هذه السورةِ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾: واستدل على ذلك بالمخلوقات العظيمة الدالة على قدرة الله، وقد كان النبي ﷺ يقرأ بها في الركعة الثانية من صلاة الجمعة والعيد[1].

معاني الآيات:

المرادُ بالغاشيةِ: الأمرُ العظيمُ الذي يَأْتِي مِنْ كُلِّ جانبٍ فيَغْشَى الإنسانَ ويحيطُ به مِنْ كل جهة، وقد يكون ذلك في الشرِّ؛ فإن نارَ جهنمَ تَغْشَى الناسَ الذين يَقَعُونَ فيها من كُلِّ جهةٍ، وقد يكونُ أيضًا في أمرِ الخيرِ؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[2]، وسمي يوم القيامة بالغاشية؛ لأنه غشيَ أهلَ الإيمانِ والتقوى بالرحمةِ والخيرِ والنعيمِ، وكذلك أيضًا لما يحيطُ بالكافرين من سوءِ المصيرِ وأليمِ العذابِ.

قال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾: أي: هَلْ جَاءَكَ نبأُ ذلكَ اليومِ العظيمِ الذي يُحِيطُ أَثَرُهُ بالناسِ من كلِّ جهةٍ، والاستفهامُ هنا مِنْ أَجْلِ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾ .....

لَفْتِ الأنظارِ وتنبيهِ النفوسِ لِعِظَمِ الخبرِ الذي سَيُحْكَى في هذه السورةِ.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢﴾: أي: أن الناسَ في ذلك اليوم ينقسمون إلى قِسْمَيْنِ:

القسمُ الأولُ: مَنْ وُجُوهُهُمْ (**خَاشِعَةٌ**)، والمرادُ بالخاشعةِ الذليلةُ الصاغرةُ الحقيرةُ؛ لما لحقها من الفضيحة والخزي، عَبَّرَ بالوجوهِ عن الإنسانِ؛ لأنَّ الوجهَ هو الذي تَحْصُلُ به المواجهةُ، وهو الذي يُعْرَفُ به الإنسانُ.

ثم قال سبحانه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: أي: أن أصحابَ هذه الوجوهِ الخاشعةِ يعملونَ في ذلك اليومِ؛ يومِ القيامةِ ما بين جَرِّ السَّلاَسِلِ وما بين الصعودِ والنزولِ في أوديةِ جهنمَ، [**نَاصِبَةٌ**] أي: متعبة بسبب هذا العملِ، فالمرادُ بقوله: [**عَامِلَةٌ**] أي: تعملُ يومَ القيامةِ عملاً مُضْنِيًا شَاقًّا، وليس المرادُ بالآيةِ أنهم كانوا يعملونَ في الدنيا، أو كانوا يَنْصَبُونَ في الدنيا وَيَتْعَبُونَ؛ لأن المرادَ هنا أوصافُهم في يومِ القيامةِ؛ ولذلك قال قَبْلَهَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢﴾ وكذلك هي في ذلك اليومِ عاملةٌ ناصبةٌ.

ثم قال سبحانه: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾: أي: أنهم يُجْعَلُونَ في النارِ فتأتيهم النارُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَتُحْرِقُهُمْ، وقوله سبحانه: [**نَارًا حَامِيَةً**]: أي: حاميةٌ شديدةُ الإحراقِ.

ثم قال سبحانه: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾: أي: أنهم يُسْقَوْنَ من عينٍ

لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ .....

فيها ماءٌ لكنه شديدُ الحرارةِ يُقَطِّعُ الأمعاءَ من شدةِ حرارتِه، فإن قال قائلٌ: كيف يشربونَ هذا الماءَ مع أنه يُقَطِّعُ الأمعاءَ من حرارته فيقال: إنهم لَمَّا صَلَوْا نارَ جهنمَ وَأَحْرَقَتْهُمْ ورأوا هذا الماءَ ظَنُّوا أنه سَيُخَفِّفُ ما هم فيه فَشَرِبُوا فكان سببًا لزيادةِ ما هم فيه من العذاب.

ثم قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾: أي: أنهم في جوعٍ شديدٍ ويُبْقِي اللهُ أجسادَهم تتألمُ بدونِ أن تتنعمَ بِأَيِّ نَعِيمٍ حتى الطعام لا يذوقونَ منه شيئًا إلا من (**الضَّرِيعٌ**): وهو نوعٌ من نباتاتِ الصحراءِ إذا يَبِسَ اسْوَدَّ وفيه شوكٌ كثيرٌ وفيه رائحةٌ منتنةٌ، فإذا كان ضَرِيعًا لم تأكله شيءٌ من الحيواناتِ بل ابْتَعَدَتْ عنه؛ لأن له رائحةً كريهةً، فأهلُ النارِ ليس لهم طعامٌ إلا من هذا الضريعِ: نباتُ الشوكِ الذي اسْوَدَّ وَأَنْتَنَ ولم تَسْتَسِغْهُ الحيواناتُ فكيف يستسيغه ابنُ آدمَ.

قال سبحانه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾: أي: أن هذا النباتَ الذي يأكلونه لا يُسْمِنُ فهو لا يَزِيدُ في أبدانهم وفي نفس الوقت لا يُغْنِي من جوعٍ، فلا يزالونَ يَشْعُرُونَ بالجوعِ وَيَتَضَوَّعُونَ منه.

وفي المقابلِ هناك القسمُ الآخرُ قال اللهُ عنهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾: هذه وجوهُ أهلِ الخيرِ، وجوهُ أهلِ العملِ الصالحِ في الدنيا، وجوهُ أولئك الذين أَحْسَنُوا في عبادةِ اللهِ وَأَحْسَنُوا إلى عبادِ الله، [**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ**] أي: في يومِ القيامةِ يومِ الغاشيةِ، [**نَاعِمَةٌ**] أي: أن النعيمَ وَصَلَ إلى جميعِ أجسادِهم

لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١ ....

حتى أَنَّ وُجُوهَهُمْ مُتَنَعِّمَةٌ، كُلُّ مَنْ شَاهَدَهَا وَجَدَ أَثَرَ النَّعِيمِ على وجوههم.

ثُمَّ قَالَ جل وعلا: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩﴾: أي: أنها قد رَضِيَتْ وَهَنَئَتْ بأعمالها في الدنيا، لأن الله عز وجل قد رَضِيَ عنها، وكيف لا يَرْضَوْنَ عن عَمَلِهِمْ وقد قَامُوا بالواجباتِ الشرعيةِ فأقاموا الصلاةَ وَأَدَّوُا الزَّكَاةَ وصاموا رمضانَ وَحَجُّوا بيتَ اللهِ الحرامَ، وَأَمَرُوا بالمعروفِ وَنَهَوْا عن المنكرِ، وجاهدوا في سبيلِ الله، وَأَحْسَنُوا إلى عبادِ الله وَاتَّصَفُوا بالأخلاقِ الفاضلةِ والأقوالِ الطيبةِ؛ ولذلك رَضُوا بِعَمَلِهِمْ، ثم إذا حَصَلَ منهم تقصيرٌ فإنهم يُبَادِرُونَ إلى التوبةِ والاستغفارِ، فَلَهُمُ بذلك الْعَاقِبَةُ الحميدةُ في الآخرةِ.

قَالَ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠﴾: الجنةُ: البساتينُ التي فيها أشجارٌ عظيمةٌ مُزْهِرَةٌ تَسْتَبْشِرُ النفوسُ بها وتكونُ مُلْتَفَّةً يُغَطِّي بعضُها بعضًا، و[عَالِيَةٖ] أي: أنها مرتفعةٌ، وارتفاعُ الشيءِ دليلٌ على حُسْنِهِ وعلى تَطَلُّعِ النفوسِ له.

قَالَ سبحانه: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١﴾: أي: هذه النفوسُ التي دَخَلَتْ هذه الجنانَ لا تسمعُ في الجنةِ إلا حَدِيثًا حَسَنًا طَيِّبًا، أما حديثُ اللغوِ وهو الحديثُ الباطلُ فإنها لا تَسْمَعُهُ في تلك الدارِ، فلا تسمعُ الكذبَ، ولا تسمعُ النميمةَ، ولا تسمعُ السِّبَابَ والشَّتْمَ ولا تسمعُ التلاعنَ، وإنما تسمعُ الكلامَ الطيبَ الذي يُبْهِجُ النفوسَ.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾ .....

قال سبحانه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾: أي: أن تلك الجنةَ فيها عينٌ جاريةٌ، ولعلَّ هذا لِتِلْكَ الجنةِ بحيث أن هناك جِنَانًا مُتعَدِّدَةً، وَلِكُلِّ جَنَّةٍ عينٌ مُسْتَقِلَّةٌ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] فَجمَعَهَا هنا، فَلَعَلَّ لِكُلِّ جَنَّةٍ عَيْنٌ، ويكون في هذه الجنانِ من العيون بحسب أعمالِهم كَثْرَةً وَقِلَّةً، فَمَنْ كَثُرَ عَمَلُهُ استقلَّ وَحْدَهُ بِجَنَّةٍ وَعَيْنٍ له، وَمَنْ كَانَ أَقَلَّ اشْتَرَكَ مع غيرِه في ذلك.

ثُمَّ قال سبحانه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣﴾: السُّرُرُ هي ما يُمَدُّ فَيرْتَاحُونَ عليه؛ إِمَّا لنومٍ أو لِتَمَدُّدٍ في جلسةٍ ونحوها.

وقوله سبحانه: [مَرْفُوعَةٌ]: أي: رُفِعَتْ بِالْفُرُشِ وهي عاليةٌ يتمكنونَ من مشاهدةِ، ما يَرْغَبُونَ في مُشَاهَدَتِه وَهُمْ عَلَى هذه السُّرُرِ لارتفاعها، وَمِنْ خَاصِيَّتِهَا أن صاحبَها إذا جاء يريدُ أن يعلوَ عليها خَضَعَتْ له وَنَزَلَتْ حتى يتمكنَ من رُكُوبِهَا.

قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾: الأكوابُ هي أَوَانِي الشُّرْبِ باختلافِ أنواعها وَتَعَدُّدِهَا. وقوله: [مَوْضُوعَةٌ] أي: قُرِّبَتْ إليهم، فعندهم من الغلْمَانِ مَنْ يَصُفُّ لهم هذه الأكوابَ وَيُقَرِّبُهَا إليهم فلا يحتاجونَ إلى غَسْلِ أَوَانِيهِمْ، ولا يحتاجون إلى أن يُقَرِّبَ أحدُهم الإناءَ لنفسِه، فَكُلُّ شيءٍ يُقَرَّبُ إليه مَتَى رَغِبَهُ.

قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾: المرادُ بالنمارقِ الوسائدُ التي يَتَّكِئُ

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ ....

عليها الناسُ، مصفوفةٌ أي: أنها قد رُتِّبَتْ تَرْتِيبًا حَسَنًا لا يحتاجونَ إلى أن يُرَتِّبُوهَا، بل هي مُرَتَّبَةٌ لهم، فلا يَتْعَبُونَ ولا يعملون في صَفِّهَا.

قال سبحانه: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾: الزرابي: هي أنواعُ الْبُسُطِ قد بُثَّتْ حولهم فَفُرِشَتِ الأراضي التي بِجِوَارِهِمْ بأنواعِ الفُرُشِ التي قد بُثَّتْ حَوْلَهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ المكذبين لَمَّا سِيقَ له حديثُ الجنةِ والنارِ كَذَّبَ بذلك وقال: هو حديثُ خرافةٍ؛ فاحتج الله عليه بأدلةٍ وبراهينَ يعرفها العربُ من حياتهم، ويعرفها كَافَّةُ الناسِ تَدُلُّ على صِدْقِ الْخَبَرِ وعلى قُدْرَتِهِ عز وجل فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾: أفلا يَتَفَكَّرُونَ ويتأملون في هذه الحيواناتِ؛ الإبلِ، وهي البعيرِ والناقةِ، كيف خُلِقَتْ عظيمةَ الشأنِ كبيرةً، ومع ذلك فيها منافعُ عظيمةٌ، فإنها تَأْكُلُ الشوكَ ثم بعد ذلك يأتي منها الحليبُ اللذيذ الذي يَشْتَهِيهِ الناسُ، وتنقلُ ناسَ في أَسْفَارِهِمْ المسافاتِ البعيدةَ، وَيَحْمِلُونَ عليها متاعَهم، وهذا الحيوانُ مع كِبَرِهِ إلا أنه لو جَاءَهُ طِفْلٌ صغيرٌ لَتَمَكَّنَ مِنْ سَوْقِهِ والأخذِ بِزِمَامِهِ فينقادُ له ولا يَنْفِرُ منه، يأكلون لحمه وينتفعون بوبرة، وهذا الجملُ فيه من الخصائصِ والمنافعِ ما يَجْعَلُ الإنسانَ العاقلَ يعرفُ أنه آيةٌ عظيمةٌ من آياتِ اللهِ تَدُلُّ على قدرةِ ربِّ العزةِ والجلال، فإذا كان الله قد خَلَقَ هذا الحيوانَ، وَجَعَلَ فيه هذه الخصائصَ فحينئذ أَفَلاَ يَدُلُّنَا ذلك على قُدْرَةِ اللهِ على خَلْقِ دارِ الجزاءِ والجنةِ والنارِ.

وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾..

ثم قال سبحانه مُنَبِّهًا إلى دليلٍ آخرَ يدلُّ على قدرةِ الله عز وجل فقال: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾: أي: أفلا يتفكرون وينظرون في هذه السماءِ؛ هذا البناءِ المحكمِ الذي يشاهدونه بِأَعْيُنِهِمْ كيف رُفِعَ بحيث لا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ أن يَنَالُوهُ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾: هذا دليلٌ آخرُ على قدرةِ ربِّ العزةِ والجلالِ، هذه الجبالُ العظيمةُ التي قد نُصِبَتْ، فَوُضِعَتْ منتصبةً قائمةً مِنْ أَجْلِ أن تُثَبِّتَ الأرضَ، ومن أَجْلِ أن تكونَ علاماتٍ يَعْرِفُ الناسُ بها معالمَ هذه الأرضِ ويستفيدوا منها فوائدَ أُخْرَى.

فهذه آيةٌ عظيمةٌ تدل على قدرةِ الله عز وجل فَهَذَا الإلهُ العظيمُ القادرُ على نَصْبِ هذه الجبالِ أليس قادرًا على وَضْعِ دارِ الجزاءِ لِيُحَاسِبَ الناسَ على أعمالهم.

ثم ذكر الله دليلاً آخَرَ من الأدلةِ الدالةِ على قدرةِ الله تعالى فقال: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾: أي: أَفَلاَ يَتَفَكَّرُونَ في قدرةِ اللهِ عز وجل الذي مَدَّ هذه الأرضَ فجعلها مُسَطَّحَةً لا يُرَى فيها مَيَلاَنٌ بل هي واسعةٌ، وهذه الأرضُ -وإن كانت كروية الشكل- إلا أنها قد جُعِلَتْ مسطحةً ممتدةً؛ وذلك لِعِظَمِهَا؛ إِذْ لو كانت صغيرةً لَتَبَيَّنَتِ الكرويةُ فيها لَكِنْ لِعِظَمِهَا أصبحت مسطحةً مع أنها كرويةٌ؛ وتسطيح الأرض مكّن الناس من السكنى فيها والبناء والزراعة والتجارة والأسفار عليها مما يدل على

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾ ......

قدرةِ ربِّ العالمين الذي خَلَقَهَا وجعلها على هذه الصفةِ، فالإلهُ الخالقُ الذي خَلَقَ هذه الأرضَ على هذه الصفةِ أليس بقادرٍ على بَعْثِ الأجسادِ وَمُحَاسَبَتِهَا وإدخالِ أهلِ الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ؟ بَلَى قادرٌ على ذلك سبحانه؛ لَكِنَّ هؤلاء المُنْكِرِينَ مستمرون في غَيِّهِمْ ولا يتفكرون في هذه الأدلةِ؛ وَمِنْ ثَمَّ فإنهم لن يَسْتَفِيدُوا من هذه الأدلةِ إلا إذا قَدَّرَ اللهُ لهم الهدايةَ.

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾: وأنت يا أيها النبيُّ الكريمُ اسْتَمِرَّ على وَظِيفَتِكَ في تذكيرِ الناسِ وَتَوْعِيَتِهِمْ وَوَعْظِهِمْ، وأما هدايةُ الناسِ فهي إلى اللهِ عز وجل وهكذا أتباعُ الرسلِ من علماءَ ودعاةٍ وَظِيفَتُهُمُ البيانُ والإرشادُ، وأما الهدايةُ والاستجابةُ لدعوةِ الحقِّ فهذه ليست من وظيفةِ العلماءِ والدعاةِ.

قال عز وجل: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾: أي: ليس لكَ قوةٌ تُجْبِرُهُمْ على الدخولِ في الحقِّ والإيمانِ به والاستجابةِ لِدَاعِي اللهِ والإيمانِ بيومِ الجزاءِ وَجَعْلِهِمْ يَسْتَعِدُّونَ لذلك اليومِ بصنوفِ الأعمالِ.

قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾: أي: لَكِنْ مَنْ تَوَلَّى عن دَعْوَتِكَ وكفر بالحق الذي أتيت به يا أيها الرسولُ، ويا علماءَ الشريعةِ فإن الله يتوعده بالعذابِ الأليمِ، العذابِ الأكبرِ. [**وَكَفَرَ**]، أي: جَحَدَ بما جاء من أَخْبَارِ الله عن يومِ الجزاءِ.

فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾.

قال تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: مَنْ تَولَّى وَأَعْرَضَ عن دعوةِ الحقِّ فإن الله سيعذبه العذابَ الأكبرَ، أي: سَيُدْخِلُهُ نارَ جهنمَ فيجعله يتعذبُ بذلك العذابِ المذكورِ.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾: أي: إن مَرْجِعَ الناس سيكون إلى اللهِ عز وجل، فإذا رَجَعُوا إلى الله فإنه سبحانه سيحاسبهم.

فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾: أي: بعد أن يَرْجِعَ الناسُ إلى الله في يومِ الميعادِ فَيُحْيِيهِمْ بعد موتهم وَيَبْعَثُهُمْ من قبورِهم فإن الله بعد ذلك سَيُحَاسِبُهُمْ على أعمالهم ويناقشهم فيها، فَأَمَّا أهلُ الخيرِ فَيُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا، ويكونون مِنْ أَصْحَابِ الوجوهِ الناعمةِ، وأما أَهْلُ الشَّرِّ وأهلُ الشركِ فإنهم سَيُحَاسَبُونَ حِسَابًا شَدِيدًا وسيكونون من أصحابِ الوجوهِ الخاشعةِ الذليلةِ الذين يَدْخُلُونَ نارَ جهنمَ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. استحبابُ التذكيرِ بأحوالِ يومِ القيامةِ، والتعريفُ بنعيمِ أهلِ الجنةِ، والتعريفُ بشقاءِ أهلِ النارِ؛ لَعَلَّ ذلك أن يكونَ مُحَرِّكًا للنفوسِ إلى طاعةِ اللهِ والابتعادِ عن معصيتِه عز وجل.

٢. ضَرْبُ الأمثلةِ؛ فإن ما ذُكِرَ من نعيمٍ في الجنةِ وَمِنْ شقاءٍ في النارِ وإن تَسَاوَى اسْمُهُ مع ما في الدنيا إلا أن بَيْنَهُمَا بَوْنًا شَاسِعًا وَفَرْقًا كَبِيرًا، وقد أُتِيَ بِاسْمِهِ من أجلِ التمثيلِ الذي يُقَرِّبُ إلى الناسِ هذا المعنى.

٣. أن الدارَ التي يَتَمَحَّضُ فيها الشقاءُ وليس فيها نعيمٌ هي الدارُ الآخرةُ في جهنمَ، فإن جهنمَ هي دارُ الشقاءِ التي ليس فيه خيرٌ ألبتة، وأما الدارُ التي فيها نعيمٌ مَحْضٌ وليس فيها شقاءٌ ولا بؤسٌ ولا موتٌ ولا مرضٌ فهي الجنةُ دارُ المتقين.

٤. إقامةُ الأدلةِ العقليةِ الدالةِ على قدرةِ اللهِ على البعثِ والجزاءِ.

٥. استعمالُ الأقيسةِ العقليةِ الصحيحةِ الدالةِ على المطالبِ الشرعيةِ.

٦. أن وظيفةَ الرسلِ وَأَتْبَاعِهِمْ دِلاَلَةُ الخلقِ وإرشادُهم وتذكيرُهم، وأما هدايةُ الناسِ فليست من وظيفتِهم؛ وبالتالي فإن الأنبياءَ وأتباعَهم لا يَجْزَعُونَ لو أن الناسَ لم يستجيبوا لهم؛ فإن الاستجابةَ للهدايةِ من الله؛ ولذلك فإن عَدَمَ الاستجابةِ لعالِم لا

تَدُلُّ على نقصِ عِلْمِهِ ولا تَدُلُّ على أن مَا مَعَهُ باطلٌ، بَلِ الْعِبْرَةُ بذاتِ الحقِّ وقيامِ الدليلِ عليه، فلو كان مع الإنسانِ أعدادٌ كثيرةٌ فهذا ليس دليلاً على أن ما معه صوابٌ وَحَقٌّ؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال النبيُّ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[١].

٧. بيانُ أن الناسَ كُلَّهُمْ سيعودون إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم صغيرِها وكبيرِها، وأنه لا يَسْلَمُ من ذلك أحدٌ حتى ولو أُحْرِقَ بالنارِ أو فُرِّقَتْ أجزاءُ جسده أو عُمِلَ بجسده ما عُمِلَ، فإنه لا بد أن يرجعَ إلى اللهِ فيحاسبه على أعمالِه.

والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تفسير سورة الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي
ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ
٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩
وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا
ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤
فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ
١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا
تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ
ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠ كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ
ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ
يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣
يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ
رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ ....

موضوع السورة:

سورة الفجر سورة مكية يُذَكِّرُ اللهُ تعالى فيها بتلك العقوباتِ التي أَنْزَلَهَا اللهُ بأممٍ ماضيةٍ لَمَّا انصرفوا عن طريقِ الحقِّ؛ ليَحْذَرْ الذين يُعْرِضُونَ عن سبيلِ اللهِ مِنْ أَنْ تنزلَ بهم العقوباتُ، وهم وإن سَلِمُوا من العقوباتِ في الدنيا فَلَنْ يَسْلَمُوا من عقوبةِ الآخرةِ، وكونُ الإنسانِ عندَه شيءٌ من نعيمِ الدنيا لا يعني أنه سَيَسْلَمُ من عذابِ اللهِ وعقوبتِه.

معاني الآيات:

يقول تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ①﴾: يُقْسِمُ اللهُ تعالى بهذا الوقتِ الفاضلِ الذي هو بدايةُ النهارِ وبدايةُ انتشارِ النورِ، ويشمل هذا ما يُؤَدَّى فيه من أعمالٍ صالحةٍ؛ من صلاةٍ وقراءةٍ لكتابِ اللهِ وَذِكْرٍ له سبحانه وتعالى، ويشمل هذا فجرَ جميعِ الأيامِ سواء تلك الأيام الفاضلة كيومِ النحرِ أو يومِ عرفةَ أو غيرها من الأيامِ، وَقَسَمُ اللهِ بالفجرِ فيه إشارةٌ إلى أن الحقَّ لا بد أن يظهرَ ولا بد أن ينتشرَ في الناسِ كما يكون النورُ في الفجرِ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ②﴾: يُقْسِمُ سبحانه بالليالي العشرِ الفاضلةِ، سواء كانت عشرَ رمضانَ الأخيرةَ أو العشرَ الأُوَلَ مِنْ شهرِ ذي الحجةِ، وَكُلُّهَا أيامٌ فاضلةٌ، فَيُقْسِمُ اللهُ جل وعلا بها؛ لأنها وقتٌ لعباداتٍ فاضلةٍ، كما أن الفجرَ وقتٌ لعبادةٍ فاضلةٍ.

ثم يُقْسِمُ سبحانه فيقول: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③﴾: المرادُ بالشفعِ ما كان زوجًا

من اثنين فأربع فهكذا، وأما الوترُ فهو الشيءُ الواحدُ، وفي هذا قَسَمٌ بكل شيءٍ؛ لأنه ما من شيء إلا وسيكونُ إما شَفْعًا وإما وترًا؛ ولذلك وَرَدَ في الحديثِ: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ»[1]. وقال جل وعلا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩] وفي عَصْرِنَا الحاضرِ اكتشفوا أنه ما من ذرةٍ من الذراتِ ولا نواةٍ من أوسطِ هذه الذرات والخلايا إلا وفيها أشياء زوجيةٌ؛ مما يَجْعَلُ كلمةَ الشفعِ تشملُ أشياءَ كثيرةً.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾: الليلُ هو هذا الجزءُ من اليومِ المقابلِ للنهارِ، ويَسْرِ، أي: يمضي وينتهي؛ وذلك أن الليلَ في آخِرِه وقتُ عباداتٍ فاضلةٍ؛ من صلاةِ الليلِ ودعاءٍ وتَضَرُّعٍ، ثم إن آخِرَ الليلِ هو وقتُ الاستغفارِ ووقتُ السَّحَرِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن الضلالةَ سينتهي وقتُها، كما أن الليلَ الذي أَظْلَمَ بظلامِه سينتهي وقتُه، هذا القَسَمُ من اللهِ جل وعلا على مُقْسَمٍ محذوفٍ تقديره: "مَنْ أَعْرَضَ عن شرعنا ولم يَسْتَجِبْ لأوامرِ اللهِ ورسولِه فإن الله سيُنْزِلُ به العقوباتِ".

قال تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾: الْحِجْرُ: هو العقلُ، يقول جل وعلا: هَلْ بَعْدَ هذا القَسَمِ الذي أَقْسَمْنَا به قَسَمٌ لأصحابِ العقولِ، وليس في هذا دلالةٌ على جوازِ القسمِ بغيرِ اللهِ؛ لأن القسمَ حقٌّ خالصٌ لله؛ لأَنَّ الْقَسَمَ تعظيمٌ بالْمُقْسَمِ، والتعظيمُ المتناهي لا يكونُ إلا لِلهِ جل وعلا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٧) ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ ....

ومنه تعظيمُ القَسَمِ لا يكونُ إلا لِلهِ ؛ ولذا قال النبي ﷺ : «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

ثم ذَكَرَ اللهُ جل وعلا عددًا من الأممِ الماضيةِ كان عندهم قوةٌ، وعندهم أنواعٌ من أنواعِ النِّعَمِ لم تكن لدى غَيْرِهِمْ، ومع ذلك لم تجعلهم هذه النعمُ يَسْلَمُونَ من عقوبةِ اللهِ وعذابِه لما خالفوا أمره، وأولُ هؤلاء قومُ عادٍ، قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ : أَنْزَلَ بهم العقوبةَ ؛ أَرْسَلَ عليهم رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَةٍ، فجعلتهم كأعجاز نخل خاويةٍ، مع أنهم كانوا قبلَ ذلك يقولون : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وقد تَفَضَّلَ اللهُ عليهم بأنه زَادَهُمْ قوةً على مَنْ قَبْلَهُمْ، ومع ذلك لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ شرعِ اللهِ ولم يستجيبوا لنبيِّ الله أَنْزَلَ اللهُ بهم العقوبةَ.

وقد ذكر الله من أمثلةِ ما أَعْطَاهُمْ فَقَالَ : ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ : (إِرَمَ) : اسمٌ لقبيلةِ عادٍ أو هو اسمٌ لجزءٍ منها، [**ذَاتِ الْعِمَادِ**] أي : أصحابُ الأجسادِ الكبيرةِ العظيمةِ، وقيل بأن المرادَ بإرم بيت مملكة عاد، والعماد عمادُ القصورِ أي : الأعمدةُ التي تُبْنَى بها البيوتُ أو أعمدةُ الخيامِ ؛ لأنهم كانوا يتخذونها رفيعةً لِعِظَمِ أجسادِهم.

قال تعالى : ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ : أي : أن قومَ عادٍ كان لهم أجسادٌ لم يكن لأحدٍ من الناس مِثْلُهُمْ وبيوتهم لم يوجد مثلها في زمانهم،

---

(١) متفق عليه، سبق تخريجه ص (٣٩).

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ ....

ثم يمضي السياقُ مذكرًا بقومٍ آخَرِينَ قد أُوتُوا شيئًا من النعم وأوتوا شيئًا من القوةِ، ومع ذلك لم ينجهم هذا من عذاب الله، فقال سبحانه: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾: (ثمودُ): قومُ صالحٍ عليه السلام، **[جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ]** أي: أنهم نَحَتُوا الصخرَ فجعلوا منه بيوتًا ومقابرَ لهم، ومع ذلك ومع ما أُوتُوهُ من القوةِ التي تجعلهم ينحتونَ الصخرَ إلا أنهم لَما أَعْرَضُوا عن دَاعِي الله، ولم يستجيبوا لِنَبِيِّ الله، أنزل الله بهم الصيحةَ فأخذتهم في لحظاتٍ.

ثم ذكر الله قومًا آخرين فقال سبحانه: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾: (فرعونُ) هو الذي أُرْسِلَ إليه موسى، وكان مَلِكًا مُعَظَّمًا في قومِه وكان عنده من القوةِ والقدرة ما جعله يتكبر ويتجبر ويطغى حتى قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقوله سبحانه: **[ذِي الأَوْتَادِ]** قيل: المرادُ به الجنودُ الكثيرةُ الذين يُثَبِّتُونَ مُلْكَهُ، وقيل: إن المرادَ به الأهراماتُ التي عَظُمَ بِنَاؤُهَا.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١﴾: أي: أن هذه الأممَ: عادًا وَثَمُودَ وفرعونَ، **[طَغَوْا فِي البِلادِ]**، أي: تَجَاوَزُوا الحدَّ الذي حُدَّ لهم فلم يَسْتَجِيبُوا لأنبياءِ الله، ولم يعبدوا الله، وَتَجَاوَزُوا إلى حقوقِ عبادِ اللهِ فَظَلَمُوهُمْ وأخذوها بغيرِ وجهِ حقٍّ.

قال تعالى: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾: أي: أَكْثَرُوا في الأرضِ الفسادَ،

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ ....

وأعظمُ الفسادِ الشركُ ومعصيةُ اللهِ ومعصيةُ أَنْبِيَائِهِ.

ثم من أنواعِ الفسادِ الظلمُ وأَخْذُ حقوقِ الآخَرِينَ بغيرِ وجهِ حَقٍّ، ثم قال سبحانه ما هي عاقبتهم وما مآلهم.

قال جل وعلا: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾: الصبُّ يكونُ بإنزالِ الشيءِ من الأعلى إلى الأسفلِ، يقال: صَبَّ الماءَ أي: أَنْزَلَهُ من أعلى إلى أسفلَ وهو مُشْعِرٌ بالشيءِ القليلِ، [رَبُّكَ] أي: خالقُك المُتَصَرِّفُ في الكونِ [سَوْطَ عَذَابٍ] عَبَّرَ هنا بالسوطِ لِيُبَيِّنَ أنه عذابٌ قليلٌ، ومع ذلك أَهْلَكَ أُمَمًا كبيرةً عندهم من القوةِ وعندهم من الإمكاناتِ والمالِ ما ليس عند غيرهم، فَسَمَّى العذابَ الواقعَ عليهم سوطًا؛ مما يدل على أن عند الله عقوبةً أكبرَ من ذلك، وَمِمَّا يدل على أن عقوبتَهم في الآخرةِ أَعْظَمُ وأكبرُ من عقوبةِ الدنيا.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾: أي: أن الله جل وعلا مُطَّلِعٌ على أحوالِ عبادِهِ يرصدُ أفعالَهم كُلَّهَا، ثم هو سَيُجَازِيهِمْ على أعمالهم وَيُنْزِلُ بهم العقوباتِ متى ابْتَعَدُوا عن شريعتِه؛ ولذلك يَحْذَرُ العقلاءُ من نزولِ العقوباتِ بهم متى لم يستجيبوا لأمرِ اللهِ ولم يطيعوا أنبياءَ اللهِ عليهم السلامُ.

ثم ذَكَرَ اللهُ أحوالَ الإنسانِ في حالِ الرخاءِ وحالِ الشدةِ؛ وذلك أن هذه الأممَ السابقةَ جاءتهم أنواعٌ من أنواعِ الرخاءِ والقوةِ والإمكاناتِ الماليةِ

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ ....

ومع ذلك لم يكن هذا من أسبابِ شُكْرِهِمْ لنعمةِ الله عليهم.

فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥﴾:

قوله: (الإنسانُ) المراد به جنسُ الإنسانِ وإن كان يَسْلَمُ من ذلك قليلٌ لَكِنَّ غالبَ الناسِ على هذه الطريقةِ، [**إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ**] أي: اخْتَبَرَهُ لِيَرَى: هَلْ يشكرُ اللهَ على نِعَمِهِ وهل يَسْتَعْمِلُهَا في طاعتِه أو لا؟

[**فَأَكْرَمَهُ**] أي: صَرَفَ له أنواعًا من أنواعِ النعمِ، فإنه حينئذ يقول: رَبِّي أَكْرَمَنِ، ولا يقول ذلك على سبيلِ الشكرِ لِنِعَمِ الله، وإنما يقوله على سبيلِ التكبرِ والتجبرِ، أو يقول هذا اللفظَ على سبيلِ الافتخار، فيقول: بأنه قد حَصَّلَ النعيمَ، فَاللهُ رَاضٍ عني ولو لم أَتقَرَّبْ إلى الله بالاستجابة له وإفراده بالعبادة وطاعة نَبِيِّهِ.

وهذا الاستدلالُ استدلالٌ خاطئٌ؛ فإن اللهَ قد يُرْسِلُ النعمَ على بعضِ العبادِ على ما هم فيه من المعاصي اسْتِدْرَاجًا لهم؛ ليزدادَ إِثْمُهُمْ وَتَعْظُمُ آثامُهم وليقيمَ الحجةَ عليهم، ثم يُنْزِلُ بهم العقوباتِ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾: أي: أن الله إذا ابتلى الإنسانَ فضَيَّقَ عليه الرزق ولم يَجْعَلِ الرزقَ كافيًا بحوائجه فإنه يقول حينئذ: [**رَبِّي أَهَانَنِ**] أي: أن اللهَ لم يُكْرِمْنِي بل أهانني بكونِ الدنيا لم تَصِلْ إِلَيَّ، وهذا لا شَكَّ من نقصانِ دِينِهِ وعقله؛ فإن العبرةَ

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ ....

بالآخرةِ، وأما كمالُ الدنيا ونقصانُها فَلَيْسَ دليلاً على السعادةِ أو الكرامةِ أو ضدهما، بل السعادةُ في الدنيا لأهلِ الإيمانِ الذين إذا أصابَ أحدَهم السراءُ شَكَرَ فكان خَيْرًا له، وإذا أَصَابَتْهُ الضراءُ صَبَرَ فكان خيرًا له.

هذه الصفةُ التي في الناسِ وهي تقديمُ الدنيا على الآخرةِ التي جعلتهم يخسرونَ الآخرةَ؛ لأنهم لم يقصدوها، وجعلتهم أيضًا يتركون الطاعة وتَنْزِلُ عليهم العقوباتُ في الدنيا، وهذه الصفةُ -تقديم الدنيا- جعلتهم يتصفونَ بصفاتٍ أخرى.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧﴾: أي: أن مَنْ قَدَّمَ الدنيا فإنه لن يقومَ بإكرامِ اليتيمِ، والمرادُ باليتيمِ: مَنْ فَقَدَ أباه والعائلَ له فاحتاجَ إلى من يَرْعَاهُ، وإكرامُه يكون بالقيامِ بشأنِه والتخلقِ معه ورحمتِه وتوجيهِه وتأديبِه: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧﴾: نَظْرَتُكُمْ للدنيا جعلتكم تنزلون الناسَ على وَفْقَ ما أُوتُوا في الدنيا من النِّعَمِ؛ وَمِنْ ثَمَّ فهذا اليتيمُ الضعيفُ المسكينُ لا تلتفتون إليه ولا تُعْطُونَهُ حَقّهُ، بخلافِ ما إذا كان هناك صاحبُ سَطْوَةٍ أو صاحبُ مالٍ فإنكم تلتفتون إليه وتقدرونه، وهذا ناتجٌ من صفةِ تقديمِ الدنيا على الآخرةِ، ولو كنتُم تنظرونَ للآخرةِ لأَكْرَمْتُمُ اليتيمَ وَقَدَّرْتُمُوهُ وَتَقَرَّبْتُمْ إلى اللهِ بذلك.

ومن الصفاتِ التي نَتَجَتْ من تقديمكم للدنيا أنكم: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨﴾: أي: لاَ يُرَغِّبُ بعضُكم بعضًا في تقديمِ الطعامِ للمساكين الذين لا يَجِدُونَ ما يَسُدُّ حاجتَهم.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ ....

ثـم قـال سـبحانه : ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩﴾ : أي : أن هـذه الصـفة هي من الصفاتِ التي نَتجَتْ عن تقديمكم للدنيا ، والمرادُ بالتراثِ : الميراثُ الذي تَرَكَهُ الميتُ ، وَأَكْلُهُ أَكْلًا يُرَادُ به أن يقومَ بعضُ الناسِ بِأَخْذِ حقوقِ الورثةِ وعدمِ إعطائِهم إِيَّاهَا ، فإن بعضَ الورثةِ الكبارِ يقومُ بأخذِ حقِّ الورثةِ الصغارِ ، وبعضُ الورثةِ الذكورِ يأخذُ حقَّ الورثةِ النساءِ ، وهذا مِنْ كبائرِ الذنوبِ وشنائعِ الآثامِ ، وقوله سبحانه : [أَكْلاً لَمًّا] أي : تَلُمُّونَهُ لَمًّا ، وَتَجْمَعُونَهُ جَمْعًا من أجلِ أن تأكلوه ، فلا تَكْتَفُونَ بالمقدارِ اليسيرِ.

ثـم قـال سـبحانه : ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ : أي : أنكـم تُحِبُّونَ المالَ وَتُؤْثِرُونَهُ على غيرِه لِذَاتِهِ ؛ وذلك لأنكم تُقَدِّمُونَ الدنيا على الآخرةِ ، ومن هنا فإن الذي يُقَدِّمُ الآخرةَ على الدنيا يَجْعَلُ المالَ بمثابةِ الوسيلةِ التي يُحَقِّقُ بها أهدافَه فهو بمثابةِ -أكرمكم الله- مَحَلِّ قضاءِ الحاجةِ يحتاج إليه ؛ وَمِنْ ثَمَّ يطلبه ويجعله عنده ليقضيَ حاجتَه به ؛ وبالتالي فهي في اليد يَسْتَعْمِلُهَا فيما يعودُ عليه بالنفعِ دنيا وآخرةً.

وأما الآخرون فهم الذين أَحَبُّوا المالَ لذاتِ المالِ فجمعوه وبذلوا الأسبابَ لتحصيلِه لا لِيَنْتَفِعُوا به وإنما ليكونَ عندهم نصيبٌ كبيرٌ فيكونَ وَبَالاً عليهم ؛ وذلك لأنهم لم ينتفعوا به وكان المُنْتَفِعُ به غيرهم أو انتفعوا به في ما لا يعودُ عليهم بالنفعِ من معاصِي الله ، أو فيما يجلبُ عليهم السوءَ والشرَّ ، وإذا كان الأمرُ كذلك فَإِنَّ سَعْيَ الإنسانِ في التكسبِ من أجلِ أن

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ ....

يتمكنَ من أداءِ الواجباتِ المُنَاطَةِ به مِنْ نفقةٍ وصدقةٍ وتفقدٍّ أحوالِ المحتاجين وإطعامِ المساكين فَمِثْلُ هذا مأجورٌ مثابٌ على تَكَسُّبِهِ بخلافِ مَنْ جَمَعَ المالَ تَكَثُّرًا؛ ليكون مُفَاخِرًا لغيرِه، عنده ما ليس عِنْدَ غيره فحينئذ لا يكون جَمْعُهُ وَتَكَسُّبُهُ مَحْمُودًا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ -٨٩] أي: أن من أتى بقلبٍ سليمٍ نَفَعَهُ مالُه وولدُه في ذلك اليومِ؛ وذلك لأنه استعملَ المالَ والولدَ في طاعةِ اللهِ، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧] فالذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ هؤلاء تُقَرِّبُهُمْ أموالُهم وأولادُهم عندَ اللهِ زُلْفَى؛ لأنهم استعملوها في طاعةِ الله جل وعلا.

ثم قال سبحانه مُذَكِّرًا باليومِ العظيمِ الذي فيه العقوبةُ الكبرى، فإنَّ عقوبةَ الدنيا مَهْمَا كانت عقوبة قليلة؛ ولذلك ينبغي بنا ألا تَقْتَصِرَ نظرتُنا على الدنيا وعقوباتها، وأن نَخْشَى من عقوباتِ الآخرةِ، ذلك اليومُ العظيمُ الذي فيه من الأهوالِ ما تشيبُ منه الرءوسُ.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾: أي: أن الأرضَ جُعِلَتْ بِسَاطًا واحدًا وَدُكَّتْ حتى أَصْبَحَتْ على مِنْوَالٍ واحدٍ ليس فيها مرتفعاتٌ ولا جبالٌ، وليس فيها منخفضاتٌ.

ثم قال عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾: أي: جَاءَ رَبُّ العزةِ والجلالِ لِفَصْلِ الحسابِ بَيْنَ العبادِ.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ٢٣﴾ ....

والأصلُ في الآياتِ القرآنيةِ أن نُفَسِّرَهَا بظاهرِها ؛ لأن اللهَ جل وعلا أعلم بنفسه منا، فلو كان سبحانه يريد: (وجاء أمر ربك) لقال ذلك، فليس عاجزًا عن أن يتكلمَ بمثلِ هذا، وهو جل وعلا أعلم بنفسه منا، ولا شكَّ أن خبرَ اللهِ صادقٌ تمامَ الصدقِ، وَمِنْ ثَمَّ فإننا نؤمنُ بهذا، وَنُسَلِّمُ به على ظاهرِه بمقتضى لغةِ العربِ بدونِ أن نُشَبِّهَهُ بأفعالِ المَخْلُوقِينَ أو بِتصَرُّفَاتِهِمْ.

ثم قال سبحانه: [**وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**] أي: حالةَ كونِ الملائكةِ قَدِ اصْطَفُّوا صفوفًا متعددةً شَمِلُوا بها الإنسَ والجنَّ فقد أَحَاطُوا بهم، (وَالمَلَكُ) هنا اسمُ جنسٍ يرادُ به جميعُ الملائكةِ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ٢٣﴾: جهنمُ هي النارُ العظيمةُ التي أَعَدَّهَا اللهُ عِقَابًا وعذابًا لأعدائه: [**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ**] جاءَ في الحديثِ أن النبيَّ ﷺ قال: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»(١) فَانْظُرْ: ما أعظمَ هذه النارَ، في هذا اليومِ [يتذكرُ الإنسانُ]، أي: يَتَذَكَّرُ أعمالَه في الدنيا فيتذكرُ المعاصيَ التي أَقْدَمَ عليها، كَمْ مِنْ مَعْصِيَةٍ أَقْدَمَ عليها في خَلَوَاتِهِ عندما أَغْلَقَ عليه الأبوابَ يتذكرُ معاصيَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) والترمذي (٢٥٧٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الْعَيْنَيْنِ، وكم شَاهَدَ بهما من المحرماتِ ويتذكرُ معاصيَ الأُذُنَيْنِ، وكم سَمِعَ بهما من المحرماتِ من غِيبَةٍ ونميمةٍ وكَذِبٍ واستهزاءٍ بالله ورسوله، وتكذيبٍ بشرعِ اللهِ وكلامٍ على أحكامِ الشريعةِ.

وهكذا يتذكرُ الإنسانُ في ذلك اليوم كُلَّ حَرْفٍ كَتَبَتْهُ يداه؛ فإنه في ذلك اليوم سَيُحَاسَبُ، فحروفُ كتابتِك تتذكرها في ذلك اليومِ، وهكذا كُلُّ مَالٍ حرامٍ أَدْخَلْتَهُ على نفسِك تتذكره في ذلك اليوم؛ لأنه سيكونُ وَبَالاً عليكَ.

وهكذا كل خطوةٍ خَطَوْتَهَا إلى شيءٍ من المعاصي سَتَتَذَكَّرُهَا في ذلك اليومِ، لَكِنْ: هَلِ الذِّكْرَى بهذه الأعمالِ سَتَنْفَعُكَ؟ لا واللهِ. إنما هي حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ تَتَحَسَّرُ على ما فَعَلْتَهُ في الدنيا من أنواعِ المعاصي والذنوبِ، [**وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى**] يعني ماذا تفيدُه هذه الذكرى في ذلك اليومِ وقد فَاتَ وقتُ العملِ ولم يَبْقَ إلا وقتُ الجزاءِ والحسابِ!

فيا أيها العاقلُ تَدَارَكْ نَفْسَكَ بتوبةٍ صادقةٍ من الذنوبِ؛ لئلا تتذكرَ هذه الذنوبَ في يومِ لقائِكَ لِرَبِّكَ جل وعلا.

ثم قال سبحانه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾: أي: في ذلك اليومِ يَنْدَمُ أَشَدَّ الندمِ فيقول: (يَا ليتني)، أَتَمَنَّى أن أكونَ قد قَدَّمْتُ عَمَلاً صالحًا لحياتي؛ لأن الحياةَ الحقيقيةَ هي حياةُ الآخرةِ، أما حياةُ الدنيا فهي حياةٌ قليلةٌ زائلةٌ فانيةٌ، فلَيْسَتَ هي الحياةَ؛ ولذلك قال: [**يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**]

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾....

الحقيقيةِ ؛ الحياةِ الباقيةِ التي فيها نعيمٌ دائمٌ أو عذابٌ دائمٌ.

قال سبحانه : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥﴾ : في ذلك اليومِ لا يُعذِّبُ ربُّ العزةِ والجلالِ أحداً من الخلقِ على ما فعله هذا الكافرُ النادمُ، بل يُعَذَّبُ كلّ إنسان بعمله، ولا يتحملُ إنسانٌ عن آخرَ شيئًا من أنواعِ العقوباتِ.

وفي قراءةٍ: [**لا يُعَذَّب**] -بفتحِ الذالِ - أي: أن العقوبةَ المقدرةَ على الإنسانِ لا تُصْرَفُ لغيرِه.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ : وفي القراءةِ الأخرى: [**وَلا يُوثَقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ**] أي: أن أصحابَ العملِ السيئِ يُقَيَّدُونَ يومَ القيامةِ، فيُؤْتَى بالأغلالِ والسلاسلِ فَتُرْبَطُ بها أيديهم وَأَرْجُلُهُمْ ؛ ثم يُسْحَبُونَ بهذه الأغلالِ والسلاسلِ على وُجُوهِهِمْ إلى نارِ جهنمَ والعياذُ بِاللَّهِ.

أما القِسْمُ الآخَرُ الذين يُنَعَّمُونَ يومَ القيامةِ فقد قال جل وعلا عنهم: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ : يُخَاطِبُ اللهُ النفسَ المطمئنةَ، والمرادُ بالمطمئنةِ الواثقةُ بِوَعْدِ اللَّهِ، وَالمُصَدِّقَةُ لخبرِ اللهِ والمُوقِنَةُ بكلامِ أنبياءِ الله، فهي قد مَلأَتْ قلبَها طمأنينةً بصدقِ وَعْدِ اللهِ جل وعلا ؛ فَجَعَلَهَا تُقْدِمُ على أنواعِ الطاعاتِ فَاطْمَأَنَّتْ إلى الطاعاتِ ؛ فإن الله عز وجل يقول لها: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ : أي: يأيتها النفسُ المطمئنةُ عُودِي إلى جنةِ

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

الْخُلْدِ، عُودِي إلى رَبِّكِ، وَالْعَوْدُ إلى الربِّ فيه تكريمٌ ورفعُ شَأْنٍ عندما يكونُ الإنسانُ عائدًا إلى رَبِّهِ.

قال سبحانه: [**رَاضِيَةً**] أي: أنها هانئة غيرُ مُتَسَخِّطَةٍ؛ لأنها قد قَدَّمَتْ عَمَلاً صَالِحًا، [**مَرْضِيَّةً**] أي: أن الله رَضِيَ عنها وَرَضِيَ عن عَمَلِهَا.

قال تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩﴾: أي: كُونِي مِنْ ضِمْنِ عبادِ اللهِ الذين قَامُوا بعبوديةِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾: أي: هذه النفسُ المطمئنةُ يَأْمُرُهَا اللهُ بدخولِ الجنةِ.

وقد دَلَّتِ النصوصُ على أن النفوسَ على ثلاثةِ أنواعٍ:

١ - نفسٌ أمارةٌ بالسوءِ: وهي الغالبُ في نفوسِ الناسِ.

٢ - ونفسٌ لَوَّامَةٌ تَلُومُ صاحبَها على ما يَفْعَلُهُ من خيرٍ وشرٍّ.

٣ - ونفسٌ مطمئنةٌ.

والنفسُ الواحدةُ قد تَتَقَلَّبُ فتكونُ مرةً بهذه الصفةِ، ومرةً بهذه الصفةِ، ومرةً بهذه الصفةِ، والحكمُ للغالبِ الذي يُخْتَمُ الإنسانُ عليه.

متى يقالُ للنفسِ المطمئنةِ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾؟

يقال ذلك عند سياقِ الموتِ؛ لِيَكُونَ بِشَارَةً للمؤمنِ وطمأنينةً لِنَفْسِهِ، ويقال ذلك عند دخولِ القبرِ، ويقال ذلك في يومِ القيامةِ عندما يُقَسَّمُ الناسُ إلى أصحابِ يمينٍ وأصحابِ شِمَالٍ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. أَنَّ وَقْتَ الفجرِ وقتٌ فاضلٌ، فيه أعمالٌ صالحةٌ يَتمكَّنُ الإنسانُ بها من عبوديةِ اللهِ ويَعْظُمُ أَجْرُهَا أَكْثَرَ مِنْ عِظَمِ أَجْرِ غَيْرِهَا؛ قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

٢. فَضْلُ الليالي العَشْرِ، قيل: بأنها العشرُ الأواخرُ مِنْ شَهْرِ رمضانَ؛ لأن فَضِيلَتَهَا تكونُ في الليلِ، وقيل: إن المرادَ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ التي قال فيها النبيﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْعَشْرِ**»(١) ولا يمتنعُ أن يكون المرادُ الجميعَ.

٣. فضلُ آخرِ الليلِ، وأن فيه مِنَ الفضائلِ والخصائصِ ما ليس في غيرِه من الأوقات.

٤. التخويفُ مِنَ العقوباتِ الدنيويةِ التي يُنْزِلُهَا اللهُ بأولئك الذين أَعْرَضُوا عن منهجِ اللهِ وعن دِينِ اللهِ، وأن اللهَ قَدْ أَنْزَلَ عقوباتٍ مماثلةً بِأُمَمٍ ماضيةٍ، فإنهم وَإِنْ أُعْطُوا صُنُوفًا من القوةِ وَصُنُوفًا مِنَ النِّعَمِ، فهذا لا يعني أنهم يَسْلَمُونَ من عَذَابِ اللهِ، وكونُ اللهِ يَبْتَلِي بعضَ العبادِ بأن يُعْطِيَهُمْ شيئًا مِنَ النِّعَمِ لا يعني أنهم على الطريقةِ الصوابِ، بل قد يكونُ اسْتِدْرَاجًا لهم، وليزداد إِثْمُهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٩٢٦) وأحمد ١/٣٤٦ من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

فتنزلُ بهم العقوباتُ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

[الأعراف: ٩٤ -٩٥].

٥. الترغيبُ بإكرامِ اليتيمِ والحثُّ على ذلك، وَأَنَّ في ذلك أَجْرًا عَظِيمًا، والتحذيرُ من إهمالِ الأيتامِ.

٦. الحضُّ على إطعامِ المساكين والترغيبُ في هذا، وَأَنّ مَنْ حَثَّ غَيْرَهُ على إطعامِ المساكين فإن له مثلَ أَجْرِهِ.

٧. التحذيرُ مِنْ أَكْلِ شيءٍ مِنَ التَّرِكَاتِ سواءً بِأَخْذِ شيءٍ من حقوقِ الوَرَثَةِ وأموالِهم أو بِعَدَمِ تنفيذِ الوصايا التي يُوصِي بها الأمواتُ.

٨. التحذيرُ من تقديمِ مَحَبَّةِ الدنيا ومحبةِ المالِ، والتنبيهُ إلى أنها وسيلةٌ، وأن الغايةَ هي الآخرةُ؛ وتَكَسُّبُ الإنسانِ لِتَحْصِيلِهَا إنما هو لتكونَ سببًا للإعانةِ على أمورِ الآخرةِ.

٩. التحذيرُ من مصائرِ الكافرين والمجرمين والظالمين يومَ القيامةِ حيث يومَ يُؤْتَى بجهنمَ، وفي هذه الآياتِ وَصْفُ اللهِ جل وعلا.

١٠. أن اللهَ جل وعلا يومَ القيامةِ يجيءُ للفصل بين العباد، وَمَا يُنْسَبُ إلى الله على أربعةِ أنواعٍ:

النوعُ الأولُ: أَسْمَاء؛ مِنْ مِثْلِ الكريمِ فهذه يُؤْخَذُ منها صفةٌ فيقالُ: كَرَمُ اللهِ، وَيُؤْخَذُ منها فِعْلٌ فيقال: تَكَرَّمَ اللهُ، وَيُؤْخَذُ منها خَبَرٌ فيقال: أَكْرَمَ اللهُ فُلانًا.

النوعُ الثاني مِمَّا يُنْسَبُ إلى اللهِ: الصفاتُ؛ فإن اللهَ جل وعلا مُتَّصِفٌ بصفاتٍ، أما الصفاتُ السمعيةُ فإنه يُقْتَصَرُ على وَصْفِهِ بها، وأما الصفاتُ الفعليةُ فإنه يُوصَفُ اللهُ بها، ويوصفُ بالفعلِ المشتقِّ منها، من أمثلةِ الصفاتِ التي لا نَأْخُذُ منها أسماءً: قوله تعالى: ﴿۞اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فإن [**نورًا**] من صفاتِ اللهِ، فلا يصحُّ أن نأخذَ منه اسمًا؛ وبالتالي لا يجوزُ أن نعبدَ فنقول: عبد النورِ؛ لأن النورَ ليس من أسماءِ الله، والتعبيدُ إنما يكونُ لأسماءِ اللهِ، والنورُ من صفاتِ اللهِ، وليس من أسمائه.

النوعُ الثالثُ مما يُنْسَبُ إلى اللهِ: الأفعالُ، وَمِنْ ذلك فِعْلُ المجيءِ الواردُ هنا، فَهَذَا لاَ يُؤْخَذُ منه اسمٌ ولا صفةٌ، وإنما يُؤْخَذُ منه خَبَرٌ.

النوعُ الرابعُ مما يُنْسَبُ إلى اللهِ: الأخبارُ، مِنْ مثله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩] فهذا إخبارٌ عن اللهِ بأنه شيءٌ، لَكِنْ لا يجوزُ أن نُثْبِتَ هذا اسمًا لِلهِ، ولا يجوزُ أن نُثْبِتَ صفةً لله من هذا الخبرِ، ولا يجوزُ أن نُثْبِتَ فِعْلاً لله من هذا الخبرِ.

١١. أن العبادَ يومَ القيامةِ سَيَتَذَكَّرُونَ أعمالَهم في الدنيا، ولن يَفُوتَهُمْ شيءٌ منها؛ ولهذا فإن العاقلَ مَنْ يَسْتَدْرِكُ ما دام في الدنيا بالإِقْدَامِ على الأعمالِ الصالحةِ والإحجامِ عن المعاصي والمبادرةِ إلى التوبةِ النَّصُوحِ.

١٢. أن عذابَ الآخرةِ وما يُوثَّقُ به الكافرون يختصُّ به كُلُّ واحدٍ منهم وحدَه، وأنه لا يُعَذَّبُ أحدٌ عن عذابِ أحدٍ، وهذا من تمامِ عَدْلِ اللهِ أنه لا يَظْلِمُ أَحَدًا بِأَنْ يُعَذِّبَ أحدًا بعقابِ وعذابِ أحدٍ آخَرَ.

١٣. الترغيبُ في الصفاتِ المؤديةِ إلى طمأنينةِ النفسِ من الإيمانِ الصادقِ ومن اليقينِ التامِّ بأخبارِ اللهِ جل وعلا.

١٤. أن أهلَ الإيمانِ رَاضُونَ عن الله مَهْمَا قَدَّرَ عليهم مِنَ الأَقْدَارِ، وَمَهْمَا جاءهم من الأمورِ التي لا يَرْغَبُونَ فيها، والله جل وعلا رَاضٍ عنهم، وإذا جاءهم شيءٌ مما لا يرغبونه فهذا للاختبارِ والابتلاءِ وللتمحيصِ وتخليصِهم من الذنوبِ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

١٥. أن صفةَ العبوديةِ لله مِنْ أَعْظَمِ الصفاتِ التي يَتَشَرَّفُ الإنسانُ بها؛ ولهذا يقالُ للنفسِ المطمئنةِ يومَ القيامةِ: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا
وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ
عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ
يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ
﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ
﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ② ....

موضوع السورة:

سورة البلد سورة مكية في قول الجمهور، وقيل: مدنية، وقيل مدنية إلا الأربع آيات الأول منها، وهي عشرون آية بلا خلاف؛ ولما ذم سبحانه وتعالى فيما قبلها من أحب المال، وأكل التراث أكلا لمّا، ولم يحض على طعام المسكين، ذكر جل وعلا في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال من مثل فك الرقبة، وإطعام الطعام في يوم ذي مسغبة، وكذلك لما ذكر الله عز وجل في السورة التي قبلها النفس المطمئنة ذكر سبحانه هاهنا بعض ما يحصل به هذا الاطمئنان.

معاني الآيات:

ثم قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ①﴾: يؤكدُ اللهُ عز وجل القَسَمَ بهذا البلدِ، والمرادُ بهذا البلدِ مكةُ المكرمةُ شَرَّفَهَا اللهُ عز وجل وَقَسَمُ اللهِ عز وجل بهذا البلد بِشَرَفِهَا وَعِظَمِ مكانتِها عنده جل وعلا؛ ولذلك على المسلمِ أن يُعَظِّمَ هذا البيتَ وهذا البلدَ؛ مكةَ المكرمةَ.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ②﴾: أي: أنتَ ساكنٌ مقيمٌ بهذا البلدِ؛ لأن المحرم مجتاز بهذه البلد غير مقيم فيها؛ لأن هذه السورةَ نَزَلَتْ على النبيِّ ﷺ وهو بمكةَ، وكذلك يُرادُ بهذه الآيةِ أن أهلَ مكةَ كانوا يُؤْذُونَ النبيَّ ﷺ فَمَعَ أنه بلدٌ حرامٌ لاَ بُدَّ من القيامِ بِحَقِّهِ إلا أنهم لم يحفظوا ذلك في حَقِّ النبيِّ ﷺ بل كانوا يُؤْذُونَهُ ويفعلونَ به ما وَرَدَتْ أخبارُه في السيرةِ

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ ....

يضعُ أحدهم سَلَى الجزور على ظهره، ويضعونَ الحشائشَ والشوكَ في طريقِه ﷺ.

ففي هذه الآيةِ إخبارٌ بأن اللهَ عز وجل سيفتحُ هذا البلدَ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَسَيُحِلُّهَا له ساعةً من نهارٍ، كما كان ذلك في فتحِ مكةَ.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾: أي: يُقْسِمُ اللهُ عز وجل بكلِّ والدٍ وبما وَلَدَ لِيَشْمَلَ جميعَ مَنْ كان والدًا من الإنسِ والجنِّ والبهائمِ وغيرها، وقال تعالى: [**وَمَا وَلَدَ**]: لِيَشْمَلَ الموجوداتِ كُلَّهَا، ومما يدخلُ في ذلك آدمُ عليه السلام وذريتُه وأنبياءُ اللهِ الذين لهم ذريةٌ وذرياتُهم، وذكر بعضُ الناس بأن قوله: [**وَمَا وَلَدَ**]: أي: المخلوقات التي ليس لها ولدٌ، وأن (ما) نافية، لكن هذا يخالف ظاهرَ الآيةِ؛ فإن الأصلَ في (ما) التي تكونُ بعدَ واوِ القسمِ أن تكونَ موصولةً.

ثم قال تعالى مُبَيِّنًا جوابَ القَسَمِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾: أي: أن هذا الإنسانَ مخلوقٌ في كَبَدٍ، فَأُمُّهُ تُقَاسِي الويلاتِ والشدائدَ عند ولادته، ثم هو في حياته من كَبَدٍ في كَبَدٍ، ومن شَقَاءٍ في شقاءٍ، في الدنيا أقدارٌ تِلْوَ أقدارٍ، وفي القبرِ سؤالٌ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وكذلك يُرَادُ بهذه الآيةِ أن اللهَ خَلَقَ الإنسانَ على أحسنِ هيئةٍ وأكملِ خِلْقَةٍ من أَجْلِ أن يتمكنَ من مقاساةِ ومعاملةِ الأمورِ الكائدةِ الشديدةِ.

ومع ذلك فإن الإنسان في أحسن خلقة وأفضل هيئة؛ إلا أنه لم يشكر

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ ....

الله تعالى على ذلك.

وهذا الإنسانُ الذي في كَبَدٍ يُغَرُّ بنفسه ويُعْجَبُ بها ؛ ولذلكم يَظُنُّ أنه لا يَقْدِرُ عليه أحدٌ، فقال سبحانه : ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ : فيا أيها الإنسان: مَنِ الَّذِي خَلَقَكَ؟ أليسَ الذي خَلَقَكَ قادرًا عليكَ؟ من الذي أسبغَ عليكَ نِعَمَهُ ؛ نعمةً تِلْوَ نعمةٍ؟ أليس ذلك بقادرٍ عليكَ؟ مَنِ الَّذِي قَدَّرَ عليكَ هذه الأقدارَ وَالمُؤْلِمَاتِ والمصائبَ؟ أليس قادرًا عليكَ؟

بلى والله، إن الله قادرٌ عليه، والله على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ : أي: أن الإنسانَ مِنْ تَجَبُّرِهِ يقول: قد أضعتُ مالاً كثيرًا، (أهلكتُ) أي: أَضَعْتُ مالاً كثيرًا في ما لا فائدة فيه، [مَالًا لُّبَدًا] أي: مُتَجَمِّعًا بعضُه على بعضٍ، وَمَجْعُولاً بعضُه على بعضٍ ؛ وذلك أن الإنسانَ يُضَيِّعُ مالَه في شهواتِه التي لا تنفعُه دنيا ولا أُخْرَى، بل وآخَرُ يُضِيعُ هذا المالَ في الصدِّ عن دينِ اللهِ ؛ وبالتالي فقد أهلكَ المالَ فيما يعودُ عليه بالضررِ، ولذلك كان إنفاقه إهلاكاً للمال لا إعماراً له.

ثم قال سبحانه : ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ : أَيَظُنُّ هذا الإنسانُ أن اللهَ لا يَطَّلِعُ على شَأْنِهِ ولا يَعْرِفُ بأحوالِه، ألم يعلم أن اللَه لا يخفى عليه شيءٌ من شأنه، إن الله (عز وجل) يعلم السرَّ وأخفى، ثم إن الله قد وَكَّلَ بابنِ آدمَ ملائكةً يحفظونه وَيُسَجِّلُونَ أعمالَه.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ ....

ثم أقام اللهُ دليلاً على قُدْرَتِهِ على ابنِ آدمَ فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾: مَنِ الذي جَعَلَ لك العينين يا ابنَ آدمَ تُشَاهِدُ بهما؟ أليس الذي جَعَلَ لابنِ آدمَ بصرًا يُشَاهِدُ به أليس أحقَّ بالكمالِ من المخلوقِ، فإن كُلَّ كَمَالٍ للمخلوق لا يتطرق إليه نقصٌ بحالٍ؛ فإن الخالقَ أَوْلَى به.

ثم قال سبحانه مُعَدِّدًا نعمَه على الإنسانِ: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾: مَكَّنَكَ من الكلامِ بهذا اللسانِ، ثم إن الله كما أَنْعَمَ عليكَ في بدنِك بهذه النعمِ الدنيويةِ أَنْعَمَ عليك بنعمٍ دينيةٍ، فقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾: أي: دَلَلْنَاهُ إلى الطريقين؛ طريقِ الخيرِ وطريقِ الشرِّ، فَأَوْضَحَ له السبيلَ، لَكِنَّ الغالبَ في ابنِ آدمَ أنه لا يَسْتَجِيبُ للحقِّ ولا يَسْلُكُ سبيلَ الخيرِ؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾: أي: أن ابن آدم لم يَقْتَحِمِ العقبةَ، والاقتحامُ هو الدخولُ في الشيءِ بقوةٍ، وَالْعَقَبَةُ في الأصلِ الجبلُ الذي يُصْعَدُ بنوعِ كلفةٍ وإن لم يكن كبيرًا؛ فإن ابنَ آدمَ لم يُكَلِّفْ نفسَه الولوجَ لسبيلِ الخيراتِ.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾: ما هي هذه العقبة التي مَنْ تَجَاوَزَهَا تجاوزَ القنطرةَ؟

ذَكَرَ اللهُ تعالى أعمالاً صالحةً مَنْ فَعَلَهَا فَقَدِ اقْتَحَمَ العقبةَ، فقال سبحانه: أَوَّلُ ذلك: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾: أي: إعتاقُ المماليكِ؛ وهذا يَدُلُّكَ على

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾ ....

أن الشريعةَ تُرَغِّبُ في إعتاقِ المماليكِ، وقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَعْتَقَ مَمْلُوكًا أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ**»[1].

ثم قال سبحانه ذاكرًا الخصلةَ الأخرى من خصالِ العقبةِ التي يتجاوزُ بها الإنسانُ هذه العقبةَ: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾: المسغبةُ: الجوعُ الشديدُ، فكأن الله عز وجل بَيَّنَ أن من خصالِ التقوى التي يتجاوزُ بها الإنسانُ العقبةَ الإطعام في اليومِ شديدِ الجوعِ، وأما مَنِ الذي نُطعمهم؟

فقد ذكر الله صنفين من هؤلاء:

أولهما في قوله تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾: اليتيمُ مَنْ فَقَدَ أَباهُ، والمرادُ به هنا المحتاجُ، وقوله: [**ذَا مَقْرَبَةٍ**] أي: الذي له صلةٌ بهذا المُتَصَدِّقِ، «فإن الصدقةَ على القريبِ ثِنْتَانِ: صلةٌ وصدقةٌ»[2]، فإذا كانت على يتيمٍ جَمَعَتْ مَعْنًى ثالثًا.

وثانيهما في قوله سبحانه: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾: المسكينُ: من لا يجد تمامَ حاجته، وقوله: [ذَا مَتْرَبَةٍ] أي: أنه اشتد جوعُه وحاجته حتى التصقَ بطنُه بالترابِ، وما ذاكَ إلا لحاجتِه الشديدةِ، هذه الخصالُ التي فيها رحمةٌ لعبادِ اللهِ وخصوصًا المساكينَ والضعفاءَ وَمَنْ قَلَّتْ درجاتُهم من المماليكِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٧) ومسلم (١٥٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج الترمذي (٦٥٨) والنسائي ٥/٩٢ وابن ماجه (١٨٤٤) عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**».

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ١٩﴾ ....

والأيتامِ والمساكين هي التي تجعلُ الإنسانَ من أهلِ الإيمانِ ومن أهل الرحمة؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: وفي هذا دلالةٌ على أن الإيمانَ يشملُ العملَ الصالحَ؛ فإن الأعمالَ الصالحةَ تدخلُ في مُسَمَّى الإيمانِ.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ١٧﴾: أي: أنهم يُوصِي بعضُهم بَعْضًا بالصبرِ، والمرادُ بالصبرِ حَبْسُ النفسِ عَمَّا لا يليقُ من معصيةِ اللهِ أَوْ مِنْ تَرْكِ طاعةِ اللهِ أو من الجزعِ والتسخطِ عند نزولِ أقدارِ اللهِ المؤلمةِ، ثم قال سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ١٧﴾: أي: أن بعضهم يوصي بعضًا بالمرحمةِ، بأن يرحموا بعضًا؛ فيوصي بعضُهم بَعْضًا برحمةِ المسكينِ وبرحمةِ اليتيمِ وبرحمةِ صاحبِ الحاجةِ.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ١٨﴾: أي: الذين اتصفوا بهذه الصفات هم مَنْ يَسْتَلِمُونَ الكتابَ باليمينِ، وهم أصحابُ اليمينِ الذين يدخلونَ الجنانَ وترتفعُ درجاتُهم في تلك الدارِ.

قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ١٩﴾: أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ هم الذين يَسْتَلِمُونَ كُتُبَهُمْ بشمائلهم من وراءِ ظهورهم، الذين كَفَرُوا وجحدوا آياتِ الله؛ وبالتالي فهم لم يصدقوا بما في الكتابِ، وجحدوا بِنِعَمِ اللهِ فلم يَصرِفُوهَا فيما يرضي الله؛ ومن ثم هم أصحابُ المشأمةِ في نارِ جهنمَ.

﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾.

قال تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾: أي: مغلقة الأبواب لا يستطيعون الخروج منها، وهي موقدةٌ تَصِلُ إلى قلوبهم وأفئدتهم.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. عِظَمُ هذا البيتِ، وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [الحج: ٢٥].

٢. تذكيرُ الإنسانِ بِأَنَّ هذه الدنيا ليست خالصةً مِنَ الأَكْدَار، بل لا بد أن يكونَ فيها أكدارٌ ومشاقٌّ ومصائبُ، وأن أشدَّ الناسِ بلاءً هم الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ، فأنبياءُ الله لا زَالَتْ تَحُلُّ بهم الأقدارُ المؤلمةُ، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقد ابْتُلِيَ النبيُّ ﷺ بأعدائِه الذين قاتلوه بالسنانِ وَجَرَّدُوا ألسنَتَهم للطعنِ فيه وَالنَّيْلِ منه والاستهزاءِ به، فلم يُنْقِصْ ذلك من مكانتِه ولم يَغُضَّ من منزلته ﷺ وهكذا أتباعه على طريقته.

٣. أن تَجَبُّرَ الإنسانِ وَتَكَبُّرَهُ لا يُغْنِيهِ شيئًا، وأن رَبَّ العالمين قادرٌ عليه مُطَّلِعٌ على حاله عارفٌ بأمره.

٤. التذكيرُ بِنِعَمِ الله على العبدِ سواء النعم التي في البدنِ أو النعمِ الدينيةِ.

٥. الترغيبُ بِفَكِّ الرقابِ.

٦. الترغيبُ في إطعامِ المساكين والأيتامِ وخصوصًا في أوقاتِ الجوعِ وأن ذلك من خصالِ الإيمانِ التي يتجاوزُ بها الإنسانُ العقبةَ

ويكونُ من أهلِ الميمنةِ ويكونُ من أهلِ الجنةِ.

٧. الترغيبُ في الدعوةِ إلى الله بأن يدعوَ الناسُ بعضُهم بعضًا إلى التَّخَلُّقِ بالأخلاقِ الفاضلةِ كالصبرِ والرحمةِ.

٨. تقسيمُ الناسِ إلى أصحابِ اليمينِ وأصحابِ الشمالِ، وَأَنَّ من الخطأ جَعْلَ الناسِ على طريقةٍ واحدةٍ، وَمَنْ قال بأن الناسَ كُلَّهُمْ سواءٌ فإن كلامه خاطئٌ ليس بصحيحٍ، بل هناك مؤمنون هم خيرُ البريةِ، وهناك كفارٌ هم شرُّ البريةِ على ما سيأتي في سورة البينة.

٩. التحذيرُ من نارِ جهنمَ، والتحذيرُ من الطرقِ المُوصِلَةِ إليها، وأن تلك النارَ موصدةٌ أبدًا موقدةٌ أبدًا لا تُطْفَأ؛ وبالتالي على العبدِ أن يحذرَ منها بعملِ الأعمالِ الصالحةِ التي تجعلُه من أهلِ الجنةِ وَتُبْعِدُهُ عن النار، أجارنا الله وإياكم من النار.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة الشمس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا
جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا
۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا
۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ
۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ
ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ
رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ ....

موضوع السورة:

سورة الشمس سورة مكية أقسم الله فيها بآيات كونية عظيمة ليلفت النظر إلى تزكية النفس، وإصلاحها، وتذكيرها بعواقب الطغاة الذين لم يصلحوا أنفسهم.

معاني الآيات:

أَقْسَمَ اللهُ في هذه السورةِ بستِّ آياتٍ كونيةٍ، كُلّ واحدةٍ منها تقابلُ آيةً أخرى، فثلاثٌ في مقابلة ثلاثٍ، ثم أَقْسَمَ بأمرٍ سابعٍ لِيُمَهِّدَ بذكرِ جوابِ القسمِ، أولُ ما أقسمَ اللهُ به الشمسُ، هذا الكوكبُ المضيءُ الذي يشرقُ الكونُ بنورِه.

فقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾: الأصلُ في الضُّحَى هذا الوقتُ الذي يكونُ في أولِ النهارِ، وتكونُ الشمسُ فيه أشدَّ إشراقًا ونورُها أكثرَ نورًا، وأقسمَ اللهُ بهذه الآيةِ العظيمةِ (الشمسِ) لبيانِ عِظَمِ فضلِ الله على العبادِ، ثم أقسمَ بوقتِ الضحى؛ لأنه وقتٌ تؤدى فيه الأعمالُ وتحصل فيه المعايشُ، وفيه يتمكنُ الناسُ من إجراءِ مصالِحهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾: هذه الآيةُ الثانيةُ التي أَقْسَمَ بها رَبُّ العزةِ والجلالِ، فهي مُقَابِلَةٌ للآيةِ الأُولَى، ألا وهي القمرُ، هذا الجسمُ المنيرُ الذي يخرج في الغالبِ لَيْلاً، وقوله: [**إِذَا تَلاهَا**] أي: إذا تَبِعَ الشمسَ؛ إِمَّا في مَجْرَاهُ أو في نورِه؛ فإن القمرَ في ليالي نِصْفِ الشهرِ القمريِّ يكون منيرًا

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾

يتمكن به الناسُ من رؤيةِ ما يحتاجون إلى رؤيته.

ثم أقسمَ اللهُ بآيتين كونيتين أُخْرَيَيْنِ متقابلتين ألا وهما النهار والليل فقال سبحانه: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾: النهارُ هو هذا الجزءُ المضيءُ من اليومِ، وقوله: [**إذا جلاها**] أي: أَظْهَرَهَا وَأَوْضَحَهَا إِمَّا أَظْهَرَ الأرضَ وَأَظْهَرَ الكائناتِ والمخلوقاتِ بحيث يتمكنُ الناسُ من رؤيتها أو أنه أظهرَ الشمسَ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾: والليلُ: الجزءُ المظلمُ من أجزاءِ اليومِ، [**إذا يَغْشَاهَا**] يعني يُغَطِّي الكونَ بظلامه.

وهاتان الآيتانِ: النهارُ والليلُ نِعْمَتَانِ عَظِيمَتَانِ من نِعَمِ الله على العباد، ولهذا أقسمَ اللهُ بهما لِيَلْفِتَ أذهانَ العبادِ إلى هاتين النعمتين العظيمتين.

ثم أقسمَ الله بآيتين أُخْرَيَيْنِ متقابلتين، ألا وهما السماءُ والأرضُ فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾: السماءُ: بناءٌ مُحْكَمٌ شديدُ الأركانِ، وقوله: [**وما بناها**] يظهر أن المرادَ: والسماءِ وَبُنْيَانِهَا، هذا البنيانُ العظيمُ المحكمُ، وقد يرادُ: والسماءِ وَالَّذِي بَنَاهَا، وهو رَبُّ العزةِ والجلالِ.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾: وهي الكوكبُ الذي تحتَ أقدامنا، [**وَمَا طَحَاهَا**] أي: وَسَّعَهَا وَجَعَلَهَا ممدودةً مترامية الأطرافِ.

أما المُقْسَمُ به السابعُ فهو النفسُ؛ وذلك لأن جوابَ القسمِ يتعلق بهذه النفسِ، ولهذا أَدْخَلَهُ في هذه الآياتِ الكونيةِ، والنفسُ عظيمةُ الخلقِ؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١] وقد يرادُ بالنفسِ هذا

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ....

الجسمُ المخلوقُ بما فيه من لحمٍ وشحمٍ ومن ماءٍ وَعَظْمٍ، وقد يُرَادُ به الروحُ التي يتفاوتُ الناسُ في مَنْزِلَتِهَا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾: أي: جَعَلَهَا مُسْتَوِيَةً بِمَعْنَى أنها معتدلةُ الأطرافِ ومعتدلةُ الأجزاءِ.

ثم قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾: أي: أَنَّ اللهَ أَوْحَى إليها كما أَوْحَى إلى النحلِ وغيرها -الفجورَ والتقوى، أي: عَرَّفَهَا الطريقين؛ طريقَ الحقِّ وطريقَ الباطل ويسر لها سلوك أحدهما، والمرادُ بالفجورِ مجاوزةُ طريقِ الحقِّ إلى طريقِ الباطلِ، ومجاوزةُ طريقِ الطاعةِ إلى طريقِ المعصيةِ، وأما قَوْلُهُ: [**وَتَقْوَاهَا**] أي: صلاحَها وزكاةَ نَفْسِهَا.

ثم قال سبحانه مُبَيِّنًا جوابَ القَسَمِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾: أي: قد فَازَ وَسَعِدَ ولم يُذْكَرْ موطنُ الفلاحِ؛ مِمَّا يَدُلُّ على أنه يشملُ الدنيا والآخرةَ، والمرادُ بقوله: [**زَكَّاهَا**] أي: قد أَفْلَحَ مَنْ طَهَّرَ نفسَه وأبعدَ عنها الأنجاسَ والأدناسَ، وتزكيةُ النفوسِ تحصلُ بأمورٍ:

أَوَّلُهَا: بتوحيدِ الله وإفرادِه بالعبادةِ، فَيُعْبَدُ اللهُ وحدَه ولا يُعْبَدُ أحدٌ سواه، فإن التوحيدَ مِنْ أَعْظَمِ ما يحصلُ به تطهيرُ النفوسِ.

ثانيها: أنواعُ الطاعاتِ، سواءٌ في العباداتِ أو في غيرِها، فَتَقَرُّبُ الإنسانِ إلى اللهِ بالصلاةِ يُزَكِّي النفسَ، فإن الصلاةَ تَنْهَى عن الفحشاءِ والمنكرِ، والصيامُ يُزَكِّي النفسَ؛ لأنه يَجْلِبُ التقوى، والزكاةُ تُزَكِّي نفسَ صاحبِها، وهكذا الحجُّ، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، والجهادُ في سبيلِ الله.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ ....

ثالثها: حُسْنُ التعامل مع عبادِ الله، والإحسانُ إليهم؛ فإن مَنْ أَحْسَنَ إلى عبادِ الله أَحْسَنَ اللهُ إليه، ومِن أَوْجُهِ إحسانِ الله إليه أن يزكيَ نفسَه ويُطَهِّرَها.

رابعها: دعاء الله، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا**»[1].

ثم قال سبحانه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾: أي: خَسِرَ مَنْ أَخْفَى نفسَه وأصغرَها عن الخيرِ ولم يجعلها تَسْلُكُ سبلَ الخيراتِ، وذلك يكونُ بأمورٍ منها:

أولاً: الشِّرْكُ وهو أَشْنَعُهَا، فإن مَنْ صَرَفَ شيئًا من العبادةِ لغيرِ الله فقد دَسَّا نفسَه، ومن أمثلة ذلك: أن يَدْعُوَ غيرَ الله، أو يصليَ لغيرِ اللهِ، أو يصومَ تَقَرُّبًا لغيرِ اللهِ، أو يَحُجَّ لغيرِ اللهِ، فهذا شِرْكٌ أكبرُ يحصلُ به خسارةُ النفسِ وَخَيْبَتُهَا.

ثانياً: البدعُ بأنواعها، والمرادُ بالبدع: أن يتقربَ الإنسانُ لله عز وجل بعبادةٍ لم يأت بها رسولُ الله ﷺ.

ثالثاً: أن يُقْدِمَ الإنسانُ على أنواعِ المعاصي والذنوبِ؛ فإن لها أَثَرًا شنيعًا في خيبةِ النفسِ وَخَسَارَتِهَا، فإن العبدَ إذا أذنبَ ذَنْبًا نُكِتَ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سوداءُ في قلبه تكون سببًا من أسبابِ طَمْسِ القلبِ وعدمِ تَمْيِيزِهِ بين الحقِّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) والنسائي (٥٤٥٨) وأحمد ٣٧١/٤، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

والباطل(١).

ثم قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾: يَذْكُرُ الله عز وجل أُمَّةً سابقةً من الأممِ لم تُزَكِّ نفسَها، وإنما دَسَّتْ نفوسَها فكان عاقبتُها الخسارةَ والخيبةَ في الدنيا مع ما ينتظرهم من العقوبةِ الشنيعةِ في الآخرةِ، وهذا في قومِ ثمودَ الذين أَرْسَلَ اللهُ عز وجل إليهم صَالِحًا، وكانوا يسكنون في الْحِجْرِ، ولكنهم تَرَكُوا عبادةَ اللهِ وَصَرَفُوا شيئًا من العبادةِ لغيرِ الله، وكانوا قد آتَاهُمُ اللهُ قوةً في أبدانهم، وآتاهم الله قدرةً على نحتِ الجبالِ بيوتًا، وأعطاهم الله من القدراتِ الجسميةِ والماليةِ ما امْتَازُوا به على كثيرٍ من الناسِ، لكنهم لم يَصْرِفُوا نِعَمَ اللهِ فيما يرضِي الله، بل عَبَدُوا غيرَ الله وَعَصَوُا اللهَ، وتجاوزوا الحدَّ الذي رَسَمَهُ اللهُ لهم بإفرادِه بالعبادةِ، فأرسل الله إليهم نَبِيَّه صَالِحًا عليه السلام، لكنهم كذبوه ولم يصدقوه ولم يستجيبوا له، فَأَرْسَلَ اللهُ لهم آيةً عظيمةً بعد طلبهم لوجودِ آيةٍ، وذلك أن صخرةً من الصخرِ حَوَّلَهَا اللهُ إلى ناقةٍ عظيمةٍ، فكانوا يَكْتَفُونَ بِلَبَنِهَا في يومٍ ويشربون من الماءِ في يومٍ آخَرَ، وقد كانت آيةً عظيمةً، وقد نهاهم اللهُ عن أن يَمَسُّوا هذه الناقةَ بسوءٍ فلم يستجيبوا لتحذيرِ نبيِّ الله عليه السلام، قال

---

(١) أخرج الترمذي (٣٣٣٤) وابن ماجه (٤٢٤٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ، زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ**: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]».

إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ ....

تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾: (ثَمُودُ): هذه القبيلةُ هم قومُ صالحٍ، (بِطَغْوَاهَا) أي: بسببِ طُغْيَانِهَا وتجاوزِها لحدودِ اللهِ، كذبت أنبياءَ الله، ومن تكذيبهم لأنبياءِ الله أن أَشْقَاهُمُ انْبَعَثَ إلى هذه الناقةِ، أي: أَتَى بسرعةٍ وَعَقَرَهَا فَذَبَحَهَا، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ مع أن نبيَّ اللهِ قد نَهَاهُمْ أن يتعرضوا لها بسوءٍ، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾: أي: احذروا من أن تَعْتَدُوا على ناقةِ اللهِ، وأضافها إلى اللهِ؛ لأنها آيةٌ من آياتِ اللهِ، ولأن اللهَ عز وجل خَلَقَهَا بأمره (كُنْ)، وما يضاف إلى الله على نوعين:

النوعُ الأولُ: أجسامٌ وَذَوَاتٌ، فهذه تكون مخلوقةً، وليست من صفاتِ اللهِ؛ كقوله: رَسُولُ اللهِ، وَنَاقَةُ اللهِ.

النوعُ الثاني: الصفاتُ والمعاني، فهذه تكونُ صفاتٍ لله كما قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] وكما قال ﷺ: «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ**»(١) فهذه مَعَانٍ؛ لذلك إذا أُضِيفَتْ إلى الله فإنها تكون من صفاتِه، ومن هنا إذا قيل: يدُ اللهِ. أو قيل: قدرةُ اللهِ. فإنها صفاتٌ من صفاتِ الله عز وجل، فإن قال قائلٌ: لو قال لنا أحدٌ: كلمة (خَلْقُ اللهِ) هل هذا من إضافةِ أعيانٍ إلى الله فيكون مخلوقًا، أو من إضافةِ صفةٍ إلى الله فتكون صفةً لله فنقول: كلمة (خَلْقٌ) مرةً تُطْلَقُ ويرادُ بها المصدرُ الذي هو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) وأبو داود (٣٨٩١) والترمذي (٢٠٨٠) وابن ماجه (٣٥٢٢) من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ.

فعلُ اللهِ وخلقُه للمخلوقاتِ، فهذا صفةٌ من صفاتِ الله، ومرةً تُطلَقُ هذه الكلمة: (خَلْقُ اللهِ) ويرادُ بها المخلوقاتُ كأنه قال: (مَخْلُوقَاتُ اللهِ) وهذه أعيانٌ، فإضافتُها إلى الله ليس من إضافةِ المعاني والصفاتِ لله تعالى فلا تكون صفة لله.

فالمقصودُ أن صالحًا عليه السلامُ حَذَّرَ قومَه فقال: انْتَبِهُوا من هذه الناقةِ؛ فإنها آيةٌ من آياتِ الله، منسوبةٌ إليه، فإياكم والتعرضَ لها، فكذبوه فعقروها أي: لم يَلْتَفِتُوا إلى تحذيرِه، وكذبوه عندما خَوَّفَهُمْ من اللهِ، وَبَيَّنَ لهم أنهم مَتَى اعْتَدَوْا على هذه الناقةِ فإن العقوبةَ ستنزلُ بهم، فكذبوه فَعَقَرُوهَا أي: ذَبَحُوا الناقةَ، هناك قال: ﴿إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ فأضافَ الفعلَ إلى واحدٍ قيل بأنه قدارُ بن سالفٍ أو غيره، ثم بعد ذلك قال: فَعَقَرُوهَا، فأضافَ الفعلَ إلى مجموعةٍ، إلى جميعهم فنقول: المباشِرُ واحدٌ والبقيةُ أَمَرُوهُ وَرَغَّبُوهُ، وطلبوا منه ذلك طلبًا جازمًا فكانوا مشتركين في هذا الفعلِ؛ لأن مَنْ أَمَرَ بشيءٍ فهو راضٍ به مُقِرٌّ له: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ أي: أَنْزَلَ اللهُ بهم العقوبةَ في الدنيا لما أغضبوه بتكذيب نبيه وقتل الناقة، جاءتهم الرجفةُ من تحتِ أَقْدَامِهِمْ، وجاءتهم الصيحةُ من فَوْقِ رءوسهم، فلا تَسْأَلْ عن عقوبتهم في أيامٍ قليلةٍ؛ فَارْتَجَفَتْ أبدانُهم وأفئدتُهم وجمدت عُرُوقُهُمْ بسببِ هذه الصيحةِ والرجفةِ، قال سبحانه: [**فَسَوَّاهَا**] أي: استوت تلك البلادُ بأهلها؛ لأنهم

وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥.

وَقَعُوا صَرْعَى فَاسْتَوَتْ بهم البلادُ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾: أي: أن الله عز وجل لا يَخْشَى من نتائجِ إنزالِ العقوباتِ بِالْعَاصِينَ، فهو سبحانه القويُّ القادرُ لن يتمكنَ أحدٌ من إنزالِ شيءٍ من المضرةِ به؛ ولذلك فهو لا يخافُ ولا يَخْشَى من نتائجِ إنزالِه تلك العقوباتِ بالعبادِ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. التنبيهُ إلى عِظَمِ الآياتِ الكونيةِ التي خَلَقَهَا ربٌّ العزةِ والجلالِ وما فيها من خيراتٍ ينتفعُ العبادُ بها، وتكون سببًا من أسبابِ جَلْبِ مصالِحهم في الدنيا.

٢. بيانُ أن ربَّ العزةِ والجلالِ قد أَوْضَحَ الطريقين؛ طريقَ الحقِّ والباطلِ، طريقَ الطاعةِ والمعصيةِ، وأن العبادَ عندهم قُدْرَةٌ على اختيارِ أحدِ الطريقين، لَكِنَّ قُدْرَتَهُمْ مُرْتَبِطَةٌ بِقَدَرِ اللهِ ومشيئتِه جل وعلا.

٣. أن أهلَ الطاعةِ الذين زَكَّوْا أنفسَهم بالتوحيدِ والسُّنَّةِ وأنواعِ الطاعاتِ فإن رَبَّ العزةِ والجلالِ سيجعلُ لهم الفلاحَ والنجاحَ والسعادةَ في الدنيا والآخرةِ، وأما أولئك الذين دَسَّوْا أنفسَهم فارتكبوا أنواعَ الشركِ والبدعِ والمعاصي فإنهم تَنْزِلُ بهم الخيبةُ والخسارةُ دُنْيا وَآخِرَةً.

٤. الوعظُ بِذِكْرِ قِصَصِ الأممِ السابقةِ والتنبيهُ على أنهم لَمَّا تَجَاوَزُوا الطاعةَ إلى المعصيةِ والتوحيدَ إلى الشركِ أَنْزَلَ الله بهم العقوبةَ في الدنيا.

٥. أن ذنوبَ العبادِ يَجُرُّ بعضُها بعضًا، فَمَنْ أَقْدَمَ على ذنبٍ ومعصيةٍ

جَرَّتْهُ إلى معصيةٍ أخرى ما لم يَتُبْ من الذنبِ الأولِ، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ أي: أنهم لَما طَغَوْا فإن ذلك أَنْتَجَ لهم التكذيبَ لأنبياءِ الله.

٦. التحذيرُ من التعرضِ لأولياءِ الله، فإذا كان التعرضُ لهذه الناقةِ المنسوبةِ إلى الله أنزلَ هذه العقوباتِ الشنيعةَ؛ فإن التعرضَ لأولياءِ الله يُنْزِلُ العقوباتِ في الدنيا والآخرةِ، سواء كان ذلك التعرضُ بإنزالِ العقوباتِ بهم أو أَذِيَّتِهِمْ أو السخريةِ والاستهزاءِ منهم، فقد قال الله عز وجل في الحديثِ القدسيِّ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**»[1] وَمَنْ آذَنَهُ اللهُ بالحربِ فلا تَسْأَلْ ما هي العقوباتُ الشنيعةُ التي سَتَحُلُّ به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

٧. أن العلماءَ والصالحين والدعاةَ يَسْتَمِرُّونَ في تحذيرِ الناسِ من أنواعِ المعاصِي مَهْمَا لاقَوُا التكذيبَ والإعراضَ؛ لأنهم يرجون بذلك نجاةَ أنفسِهِم وصلاحَ أحوالِهِم وإقامةَ الحجةِ على العبادِ، ولعل الله عز وجل أن ينفعَ بوعظِهِم وتذكيرِهِم.

٨. أن الله عز وجل قد يُمْهِلُ أهلَ المعاصي والذنوبِ مدةً من الزمانِ، لكن عاقبتَهم العاقبة السيئة الوخيمة في الدنيا قبل الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٩. أن الله عز وجل يُنْزِلُ العقوباتِ بأولئك الذين يُعْرِضُونَ عن سبيلِه وأنه عز وجل لا يُعْجِزُهُ ذلك وأن أمرَه بحرفين: كُنْ فيكون، وأنه عز وجل لا يخشى من عاقبةِ إنزالِ العقوباتِ بمن يكونُ من أهلِها.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾
وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ
وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا
يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا
لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا
إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ
مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾
وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ ....

موضوع السورة:

سورة الليل سورة مكية تقسم الناس في الدنيا والآخرة بحسب أعمالهم فهناك الأشقى وهناك الأتقى كما أن الكون فيه أمور متقابلة كالليل والنهار والذكر والأنثى.

معاني الآيات:

يُقْسِمُ الله عَزَّ وَجَلَّ في بدايةِ هذه السورةِ بِأَمْرَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ هُمَا الليلُ والنهارُ، فَيُقْسِمُ أَوَّلاً بقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ أي: إذا غَطَّى بِظَلامِهِ المخلوقاتِ، ثم يُقْسِمُ ثانياً بـ: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾: والنهار هو المقابلُ لليل، وقوله تعالى: [**إذا تَجَلَّى**]: أي: إذا ظَهَرَ وكانَ واضحًا بَارِزًا تُرى فيه جميعُ المخلوقاتِ، ثم يُقْسِمُ الله عز وجل بـ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾: (ما) هنا مصدريةٌ، فهو يُقْسِمُ جل وعلا بِخَلْقِ الذَّكَرِ والأُنْثَى، والذكرُ يُقَابِلُ الأُنْثَى، وهذا كما يكونُ من بَنِي آدمَ يكونُ كذلك من سائرِ المخلوقاتِ؛ فجميع المخلوقات منها ذَكَرٌ وَأُنْثَى، فَأَقْسَمَ الله عز وجل بهذين الأَمْرَيْنِ المتقابلين.

ما هو جوابُ القَسَمِ؟ وَعَلَى أي شيءٍ أَقْسَمَ اللَّهُ؟

أَقْسَمَ الله بهذه الأمورِ على اختلافِ أحوالِ الناسِ وَتَقَابُلِهِمْ، فهناك أهلُ إيمانٍ وطاعةٍ يكونون هم السعداء، وهناك أهلُ كُفْرٍ ومعصيةٍ يكونونَ هُمُ الأشقياءَ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾: فكما كان هناك نهارٌ

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ ....

يُقَابِلُ الليلَ وَذَكَرٌ يُقَابِلُ الأُنْثَى، هناك أيضًا في أحوالِ الناسِ أهلُ يُسْرَى وسعادةٍ يقابلهم أهلُ شقاءٍ وَعُسْرَى، فقال سبحانه في تقسيمِ الناسِ، الصنفِ الأولِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾: (أَعْطَى) أي: أَدَّى ما رغَّبه الله في أدائه وحثَّ عليه، فهو قد أدَّى النفقاتِ الواجبةَ عليه تجاهَ نفسِه وتجاهَ أبنائِه وزوجِه وَوَالِدَيْهِ وَقَرَابَتِهِ، وكذلك قَدْ أَعْطَى الزكاةَ الواجبةَ في مالِه، بل تجاوزَ ذلك إلى أن يُعْطِيَ في سبلِ الخيراتِ، فعندَه أوقافُ صدقاتٍ جاريةٍ تَبْقَى سنينَ عديدةً، وعنده صدقاتُ تَطَوُّعٍ، وعنده هدايا يتقربُ بها إلى الله جل وعلا.

وقوله تعالى: [واتقى] المرادُ بالتقوى صفةٌ تَنْطَلِقُ من القلبِ تجعلُ الإنسانَ يبتعدُ عن معاصِي الله؛ لئلا يُسْخِطَ اللهَ أو يقعَ في عذابِه أو يكونَ من أهلِ نارِ جهنمَ، هذه هي التقوى؛ ولذلك فُسِّرَتِ التقوى بأنها: أن يطيعَ العبدُ رَبَّهُ ويجتنبَ معصيتَه؛ طاعةً له وَخَوْفًا من عقابِه وَرَجَاءً في ثوابه هذه هي التقوى، وقد ذَكَرَ الله جل وعلا خصالَ التقوى في آياتٍ كثيرةٍ شَمِلَتْ إطعامَ الطعامِ، والنفقةَ في وجوهِ الخيرِ، والعفوَ عن المخطئين، والإحسانَ إلى الناسِ، والإيمانَ بأركانِ الإيمانِ، وأداءَ الصلواتِ، والوفاءَ بالعهودِ، والصبرَ على ما يُصِيبُ الإنسانَ من المصائبِ، كُلُّ هذه خصالِ التقوى.

قوله سبحانه: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾: أي: أنه أَيْقَنَ وَقَابَلَ بالتصديقِ ذلك

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾

الخبرَ الذي جاءَه [**بالحُسْنَى**]، والحسنى: تشملُ الجنةَ، فإن الله يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وتشمل أيضًا التصديقَ بكلمةِ لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ، وتشملُ أيضًا التصديقَ بوعدِ اللهِ، فإن الله عز وجل قد وَعَدَ المؤمنين بسعادةِ الدنيا والآخرةِ، ووعدَ المُنْفِقِينَ بالخَلَفِ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] وكما قال جل وعلا في الحديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدم أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**»(١) وكما قال النبي ﷺ في الحديثِ النبويِّ: «**مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلا ويُنَادِي فِيهِ مُنَادِيَانِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»(٢).

فمَنِ اتَّصَفَ بهذه الصفاتِ: الإعطاءِ، والتقوى، والتصديقِ بالحسنى فإن الله قد وَعَدَهُ بقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾: أي: يُسَهِّلُ له طريقَ اليسرى، ويسوقُ اليسرى إليه، واليسرى تشملُ أمورًا:

أَوَّلُها: طاعةُ الله جل وعلا، فإن الطاعاتِ يَجُرُّ بعضُها بعضًا، مَتَى أَقْدَمَ الإنسانُ على طاعةٍ تقربًا لله يَسَّرَ الله له طاعةً أُخْرَى، ومن ذلك أن يُيَسَّرَ الإنسانُ للتوحيدِ والإبعادِ عن الشركِ فتكونُ كُلُّ أعمالِه وإراداتِه وَنِيَّاتِهِ لله عز وجل.

ثانيها: أن يُيَسَّرُ لليُسْرَى فيما يتعلقُ بسعادةِ الدنيا، فتُسَاقُ له الخيراتُ وَالنِّعَمُ الدنيويةُ، فإن الله قد وَعَدَ المؤمنين بالنصرِ والتَّمْكِينِ، ووعدَ المؤمنين

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٤) ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالرزقِ الحَسَنِ في الدنيا، ووعدَ اللهُ المؤمنين بالطمأنينةِ والراحةِ والسعادةِ.

فَكُلٌّ هذه الأمورِ تُيَسَّرُ لأصحابِ الإعطاءِ والتقوى والتصديقِ بالحُسْنَى.

أما القِسْمُ الثاني من الناس فَهُمُ الأشقياءُ، ما هي صفتُهم؟

اتصفوا بثلاثِ صفاتٍ:

أولها: البخلُ، فَهُمْ لم يُعْطُوا حَقَّ الله فَشَحُّوا وَبَخِلُوا في النفقةِ على أنفسِهم، وَبَخِلُوا في النفقةِ على مَنْ تَحْتَ أيديهم من أولادِهم وزوجاتِهم، وَبَخِلُوا في النفقةِ على وَالِدَيْهِمْ وعلى قراباتهم، وبخلوا في إخراجِ الزكاةِ الواجبةِ، ولم تُطَاوِعْهُمْ أنفسُهم أن يُعْطُوا في سُبُلِ الخيرِ ليرضى الله جل وعلا عنهم بذلك، مع أن هذا المالَ الذي وَصَلَ إليهم نعمةٌ من الله تَفَضَّلَ بها عليهم رَبُّ العزةِ والجلالِ، ولكنهم لم يُقَابِلُوا هذه النعمةَ بِشُكْرِهَا وَصَرْفِهَا في مراضِي الله.

وثاني الصفات: الإعجاب بالنفس ونسبة النعم إليها، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾: (بَخِلَ) عن سُبُلِ الخيرِ، (وَاسْتَغْنَى) أي: ظَنَّ أنه غنيٌّ بنفسه، فتَكَبَّرَ على عبادَةِ رَبِّهِ وتَكَبَّرَ على عباد الله.

وأما الصفة الثالثة ففي قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩﴾: أي: قَابَلَ خبرَ الله ووعدَه بالتكذيبِ، فَكَذَّبَ بالجنةِ، وكذب بلا إله إلا الله، وَكَذَّبَ بوعدِ الله بالخَلَفِ للمُنْفِقِينَ في سُبلِ الخَيْرِ.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ ....

قال تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾: أي: سَيجْعله الله ممن يَسْلُكُونَ سبيلَ العُسْرَى، والعُسْرَى: الشِّدَّةُ والضَّنْكُ فَهُمْ في أمورِ الآخرةِ لم يُوَفَّقُوا للعملِ الصالحِ؛ لأن الطاعةَ تجرُّ الطاعةَ وهم لم يفعلوا الطاعةَ، وإنما فعلوا المعصيةَ فجَرَّتْ معصيةً أخرى.

وكذلك يُيَسَّرُ للشقاءِ في الدنيا، فهو وإن كان عنده مالٌ إلا أنه يَشْقَى بهذا المالِ، ولا يَتَنَعَّمُ به ولا يصرفه فيما يستفيدُ منه لا في دنياه ولا في آخرته، فما فائدةُ هذا المالِ إذن؟!

حتماً سيكونُ وبالاً عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾: هذا استفهامٌ إنكاريٌّ للخبرِ بأن المتردين في أنواعِ الضلالاتِ لن تُغْنِيَ عنهم أموالُهم ولن ينتفعوا بها.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أن أهلَ الهُدَى ينتفعون بأموالهم؛ لأنهم يتقربون بها إلى الله ويبذلونها في مراضي الله، فيخلفها الله عليهم، وَيُعْظِمُ لهم الأجرَ ويرفعُ درجاتِهم في الآخرةِ.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾: أي: أن الله يَعِدُ بِوَعْدٍ مِنْهُ أن يجعلَ سبيلَ الهُدَى واضحًا بَيِّنًا أمامَ الناسِ، فتوضيحُ طريقِ الهدايةِ قد وَعَدَ به الله جل وعلا، وَوَعْدُ اللهِ لن يُخْلَفَ؛ مما يدل على أنه لا بد أن يبقى في كُلِّ زمانٍ دعاةٌ يَدْعُونَ إلى الحقِّ وعلماءُ يُوَضِّحُونَ السبيلَ ويرشدون الخَلْقَ إلى سبيلِ الحقِّ.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥﴾............

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾: أي: أن المِلْكَ الحقيقيَّ في الآخرةِ وما فيها والجنةِ والنارِ، وفي الأُولى وهي الدنيا، هو لله عز وجل، فالملكُ الذي يَمْلِكُهُ ابنُ آدمَ ليس مِلْكًا حَقِيقِيًّا، بل ابنُ آدمَ وما يملكُ مِلْكٌ لله جل وعلا، ومن هنا إذا كان هذا المالُ مِلْكًا لله وقد أَمَرَكَ الله بالنفقةِ في سبلِ الخيراتِ لينفعَك وَليخلفَ عليكَ فَلِمَ تترددُ في ذلك؟!

ثم قال سبحانه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾: أي: أن الله من رحمتِه بالعبادِ يُخَوِّفُهُمْ من نارِ جهنمَ التي تَتَلَظَّى أي: تَتَوَقَّدُ وتستمرُّ في كونها مُحْرِقَةً مُتَوَهِّجَةً.

قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥﴾: أي: أن الأَشْقَى وَهُو المكذب بوعدِ الله، الكافر بِدِينِ الله تصلاه النارُ من كُلِّ جانبٍ.

وليس في الآيةِ دلالةٌ على أن عُصَاةَ المُوَحِّدِينَ لا يدخلونَ النارَ، بل الآيةُ فيها أن الأَشْقَى يصلى النارَ، وَصَلْيُهَا كَوْنُهَا تأتي من كُلِّ جانبٍ، وهذه النارُ تَتَلَظَّى، أي: تستمرُّ في كونها مُوقَدَةً يُعَذَّبُ بها، وأما عُصَاةُ المُوَحِّدِينَ فهم تحتَ المشيئةِ إن شاء الله غَفَرَ لهم ابتداءً وإن شاء عذبهم وأدخلهم في النارِ مدةً ثم مصيرُهم ومآلُهم إلى الجنةِ؛ ومن هنا نعلمُ خطأَ قولِ فريقين من الناس؛ طائفةٌ تقول بأن العصاةَ وأهلَ الكبائرِ من الموحدين لا يدخلون النارَ، فهذا غلطٌ قد دَلَّتِ النصوصُ على خلافِ هذا.

والفِرْقَةُ الثانيةُ التي تقولُ بأن أهلَ الكبائرِ من عصاةِ الموحدين يدخلونَ النارَ فَيُخَلَّدُونَ فيها، وهذا أيضًا غَلَطٌ؛ فقد دَلَّتِ النصوصُ على

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ ....

أن الموحدين يكونُ آخِرُ أَمْرِهِمُ الجنةَ وإن عَصَوْا فعذبوا بسببِ معصيتِهم.

وهناك طائفةٌ ثالثةٌ تقول بأن صاحبَ الكبيرةِ لا بد أن يُعَذَّبَ في الآخرةِ، وقولُ هؤلاء أيضًا غلطٌ؛ فقد دَلَّتِ النصوصُ على أن بعضَ أهلِ الكبائرِ يَشْفَعُ لهم النبيُّ ﷺ فيعفو الله عنهم ويدخلون الجنةَ ابتداءً.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥﴾: مَنْ هُوَ الأَشْقَى؟

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾: (كَذَّبَ) أي: لم يُصَدِّقْ بخبر الله وخبرِ رسولِه ﷺ، (وَتَوَلَّى) أي: أَعْرَضَ عن طاعةِ الله وطاعةِ رسوله ﷺ مما يَدُلُّ على أن دخولَ النارِ هو بسببِ عملِ ابنِ آدمَ جزاءً وِفَاقًا ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا، وقد قال النبي ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَى**» قيل: يَا رسولَ اللهِ، مَنْ يَأْبَى؟ -يعني: مَنْ يَرْفُضُ دخولَ الجنةِ؟- فقال ﷺ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[(١)].

ثم قال سبحانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾: أي: أن الذي يُقْدِمُ على أفعالِ التقوى سَيُجَنَّبُ هذه النارَ بفضلٍ من الله ورحمةٍ بسببِ عملِه، ما هو عَمَلُهُ؟

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾: أي: يبذلُ من مالِه في سبلِ الخيراتِ، فتجدُه يُطْعِمُ المساكينَ وتجدُه يَكْفُلُ الأيتامَ وتجدُه يبني المساجدَ، وتجدُه يَنْشُرُ العلمَ ويطبعُ المصاحفَ ومؤلفاتِ العلمِ وتجدُه يُسَدِّدُ الدَّيْنَ عن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾.

المَدِينِينَ، وتجدُه يشتري الرقابَ فَيُعْتِقُهَا لله، وَمِنْ أَوَّلِ مَنْ يدخلُ في هذه الآيةِ أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه فقد كان هذا من صِفَتِهِ رضي الله عنه؛ ولذلك أَجْمَعَ المفسرون على أن أبا بكرٍ الصديقَ ممن يدخلُ في هذه الآيةِ.

قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾: أي: أنه لا يوجدُ هناك أناسٌ قد تَفَضَّلُوا عليه، بل هو المتفضلُ على غيرِه فهو الذي يُنْعِمُ على الآخَرِينَ، وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ يمكنُ الجزاءُ عليها.

قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾: [**إلا**] تلك النعمَ التي يبذلها أصحابُها [**ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى**]: قيل: المرادَ أن هذا الأَتْقَى يبذلُ النعمَ للناسِ رغبةً في الأجرِ الأخرويِّ وَأَمَلاً في رؤية وجهِ رَبِّ العالمين، ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾.

وقيل: المرادَ أنه لا يُنْعِمُ عليه أحدٌ بِأَيِّ نعمةٍ إلا مَنْ كان راغبًا في الآخرة كما لو دَلَّهُ إنسانٌ على طريقِ خيرٍ أو أوضحَ له حُكْمًا شرعيًّا، مَنْ كانَ بهذه الصفةِ: يُؤْتِي مالَه يَتَزَكَّى ويتفضلُ على الآخرين فإن الله سوفَ يُرْضِيهِ؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾: أي: أن الله جل وعلا سيُرْضِيهِ مِنْ عنده.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. اختلافُ الناسِ في أعمالهم وسعيهم، وتفاوتهم بسببِ ذلك.

٢. أن مَنْ أعطى النفقةَ والزكاةَ والصدقةَ والبذلَ في وجوهِ الخيرِ واتقى وصدَّق بالحسنى، بالجنةِ، وبلا إله إلا الله فإن الله قد وَعَدَهُ بأن يُيَسِّرَهُ لليسرى، وَسَيُسْعِدُهُ في الدنيا والآخرةِ.

٣. التحذيرُ من البُخْلِ والشحِّ قال النبيُّ ﷺ: «**أي داءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ؟!**»[1] وقال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الشُّحُّ**»[2].

٤. الترغيبُ في النفقةِ في سُبُلِ الخيراتِ، وقد جاءت النصوصُ بترتيبِ الأجورِ العظيمةِ والثوابِ الجزيلِ على النفقةِ في سُبُلِ الخيرِ، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

٥. أن أصحابَ الشِّرْكِ والمعاصي لا ينتفعونَ بأموالهم لا في الدنيا ولا في الآخرةِ، بل تكونُ عليهم وَبَالاً وَمَضَرَّةً.

٦. أن أهلَ الإيمانِ والتقوى ينتفعونَ بأموالهم؛ لأنهم سيبذلونها في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٩٨).

الخيرِ وفي طاعةِ الله عز وجل، فتكونُ من أسبابِ رِضَا الله عنهم، وتكونُ من أسبابِ عُلُوِّ الدرجةِ في الجنةِ، ومن أسبابِ الخَلَفِ في الدنيا فيعطيهم الله أحسنَ مما أَنْفَقُوا، وأيضاً من أسبابِ سعادتِهم وطمأنينةِ نُفُوسِهِمْ.

٧. أن الله عز وجل قد وَضَّحَ هذه الشريعةَ وَبَيَّنَهَا وَعَرَّفَ الناسَ بمعالمِ الهُدَى.

٨. أن المُلْكَ الحقيقيَّ في الدنيا والآخرةِ هو لله، وأن مِلْكَ ابن آدمَ لما يملُكه في الدنيا إنما هو مِلْكٌ نِسْبِيٌّ مُؤَقَّتٌ مرتبطٌ بِمِلْكِ الله عز وجل.

٩. التحذيرُ من نارِ جهنمَ والتخويفُ من الأعمالِ المُوصِلَةِ إليها.

١٠. أن سببَ دخولِ النارِ هو عملُ ابنِ آدمَ، وأصلُ ذلك التكذيبُ بأخبارِ الله والإعراضُ عن طاعةِ الله.

١١. أن أهلَ الإيمانِ والتقوى سَيَحْمِيهِمْ من نارِ جهنمَ؛ فإن الناسَ سَيَمُرُّونَ بين يَدَيْ جهنمَ على الجسرِ، وَسَيَرِدُونَ النارَ ولن يُجَنَّبَهَا وَيُجَاوِزَ النارَ إلا أهلُ التقوى.

١٢. الترغيبُ في أن يكونَ الإنسانُ صاحبَ اليدِ الْعُلْيَا المنفقةِ وألا يكونَ صاحبَ اليدِ السُّفْلَى الآخِذَةِ.

١٣. الترغيبُ في إخلاصِ النيةِ لله عز وجل فينوي الإنسانُ بعمله كُلِّهِ وجهَ الله والدارَ الآخرةِ.

١٤. إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لوجهِ الله عز وجل كما وَرَدَتِ النصوصُ بهذا.

١٥. إثباتُ صفةِ الرضا لله وأنه يَرْضَى عن المؤمنين ويرضى عن أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. والأصلُ في الصفاتِ أن المؤمنَ يُصَدِّقُ بما وَرَدَ في الكتابِ والسنةِ من صفاتِ الله؛ فَإِنَّ خَبَرَ الله صدقٌ وهو سبحانه أَعْلَمُ بنفسِه، وهو جل وعلا تَكَلَّمَ بالكلامِ الواضحِ البَيِّنِ بحيث لا يمكنُ أن يقالَ: يُرَادُ به خلاف ظَاهِرِهِ.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة الضحى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ① وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ
③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ
رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا
فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا
تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَحَدِّثْ ⑪

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ....

موضوع السورة:

سورة الضحى سورة مكية، يذكر ربنا سبحانه وتعالى فيها فضله وإحسانه على نبيه الكريم ووعده بأنه يزيده من ذلك.

ومن المعلومِ أن القراءاتِ السبعَ هي أشهرُ القراءاتِ المتواترةِ، وقد رَوَاهَا سبعةٌ مِنَ القُرَّاءِ وهؤلاء القراء بينهم اتفاق في الجملة، وإن كان قد وقع بينهم اختلاف في بعض المواضع، ومن ذلك أن ابن كَثِيرٍ وهو من القراء السبعة لَمَّا قَرَأَ من أول سورةِ الضُّحَى حتى سُورَةَ النَّاسِ كان يضعُ التكبيرَ مع البسملةِ في أولِ كلِّ سورةٍ، يَقُولُ: الله أكبرُ، بسمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَمَنْ قَرَأَ بقراءةِ ابْنِ كَثِيرٍ كَبَّرَ، أما مَنْ قَرَأَ بقراءةِ غيرِه كقراءةِ حفصٍ أو وَرْشٍ أو غَيْرِهِمَا فإنه لا يُسْتَحَبُّ له أن يُكَبِّرَ في بدايةِ هذه السورِ، وَيَكْتَفِي بالبسملةِ فقط.

معاني الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾: أَقْسَمَ اللهُ عز وجل بِالضُّحَى وهو الوقتُ الذي يكونُ بعدَ وقتِ الفجرِ؛ وذلك لأن الضُّحَى وقتُ اشتدادِ نورِ الشمسِ وضيائِه وانتشارِه في الأفقِ.

وَأَقْسَمَ بعدَ ذلك بالمقابلِ له فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾: والمرادُ بقوله: [**سَجَى**] أي: سَكَنَ؛ فَإِنَّ الليلَ إذا سكنَ أظلمَ وَادْلَهَمَّ وَسَكَنَتِ الأشياءُ

فيه، والقسم بالضحى والليل يدلك على قدرة خالقهما.

ثم بين سبحانه الأمر العظيم الذي أقسم عليه فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾: أي: أن اللهَ عز وجل لن يَتْرُكَكَ وَلَنْ يُبْغِضَكَ؛ لأنكَ الداعيَ لدينِه المُسْتَمِرَّ على شَرْعِهِ؛ وذلك أن النبيَّ ﷺ اشتكى ليلتين أو ثلاثًا فلم يَقُمْ لصلاةِ الليلِ، فقالت امرأةٌ من قريشٍ: ما أرى شيطانَه إلا قد قَلاهُ، أي: تركه وأبغضه، فنزلت هذه الآياتُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[1].

وَقِيلَ بأن المرادَ بهذا أن الشيطانَ يُوَسْوِسُ في قلوبِ بعضِ العبادِ أن الله عز وجل سَيَتَخَلَّى عن أوليائِه ولن يَنْصُرَهُمْ، فَرَدَّ اللهُ على هذه الوساوسِ بهذا البيانِ الواضحِ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾: أي: سَيَسْتَمِرُّ اللهُ في معونتك وفي نصرك وتأييدك وإعلاء ذكرك، كما سيستمر في محبتك.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾: أي: أن الأجرَ الحقيقيَّ والثوابَ الجزيلَ سيكون في الآخرةِ، فإذا كان الداعيةُ لم يُشَاهِدْ ثمرةَ دعوتِه في الدنيا ولم يُبْسَطْ له فيها فلا يَعْنِي أن دعوتَه ليست على حَقٍّ؛ لأن النعيمَ الكاملَ هو في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾: أَيْ: وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ يا نَبِيَّنَا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ. وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْظَمَهُمْ لَهَا إِطْرَاحًا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ سِيرَتِهِ، وكذلك فإن المؤمنَ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٤) ومسلم (١٧٩٧) من حديث جندب رضي الله عنه.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ ....

الـذي تَمَسَّـكَ بشـريعةِ الله سَيُنيلُهُ اللهُ خَيْـرًا أفضـلَ مـن الـدنيا، وسـيأتيه في الآخرةِ خيرٌ أَعْظَمُ من ذلك، خيرٌ غَيْرُ مُنَغَّصٍ وَلاَ مُكَدَّرٍ، ولـيس فيـه شـيءٌ من مكروهاتِ النفوسِ.

وقال بعض المفسرين: المراد بالآية أن آخر أمرك أفضل من أوله، وأن كل وقت متأخر أحسن من الذي قبله.

قال جَلَّ وَعَلاَ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾: هذا وَعْدٌ من الله عز وجـل بـأن يعطـيَ نَبِيَّـهُ ﷺ مـا يجعلُـه يرضـى، يعطيـه مـن خيـري الـدنيا والآخرةِ؛ ففي الآخرةِ يُدْخِلُـهُ الجنةَ وَيُنِيلُـهُ مـن المكارمِ والخيراتِ ما لـيس لغيرِه، وفي الدنيا سَيُعِينُهُ اللهُ وينصره وينشرُ ذِكْرَهُ وَيُعْلِي مكانتَه ومنزلتَه، وَلَئِنْ كان هذا لنبينا ﷺ فإن مَنْ سَارَ على طريقتِه وَاتَّبعَ هديَه وَاسْتَمَرَّ على منهجِه في الدعوةِ إلى اللهِ وتعليمِ عبادِ الله بإخلاصٍ ورغبةٍ فيما عندَ اللهِ فإنه سَيَنَالُهُ هذا الثوابُ.

ثُمَّ يُذَكِّرُ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ نَبِيَّهُ ﷺ ببعضِ النعمِ السابقةِ الـتي يَسْتَدِلُّ بهـا علـى صِدْقِ وَعْدِ اللهِ لـه بـالنعمِ الآتيـةِ، فقـال سـبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ اليتيمُ: مَنْ فَقَدَ أَبَاهُ، ويشتد يُتْمُهُ بِفَقْدِهِ لأمِّهِ، والنبيُّ ﷺ قد فَقَدَ أَبَاهُ وهـو جنينٌ في بطنِ أُمِّهِ، ثم إنه ﷺ فَقَدَ أُمَّهُ وعمرُه قرابةُ الستِّ سنواتٍ، ثم فَقَـدَ جَدَّهُ وَعُمْرُهُ قرابةُ الثمانِي سنواتٍ، فَهَيَّأَ اللهُ عز وجل لـه عَمَّـهُ أبا طالـب يَذُودُ عنه ويتولى شأنَه ويحميه ويقوم معه، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾: أي: تَوَلاكَ بولايتِه وَرَعَاكَ بأن هَيَّأَ لكَ مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِكَ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ ....

ثم قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾: يعني لم تكن تعرفُ هذه الشريعةَ، ولم تكن تعرفُ معالمَ هذا الدينِ، وليس عندكَ من الأدلةِ والْحُجَجِ والبراهين ما تَتَمكَّنُ به من دعوةِ الناسِ فأنزلَ الله عليكَ الوحيَ فَهَداكَ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم قال سبحانه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾: العائلُ هو كثيرُ العيالِ الذي عَجَزَ عن بعضِ نفقاتهم ويدخلُ في مُسَمَّى العيالِ مَنْ يعولُه الإنسانُ من أبنائِه وزوجاتِه وقرابته، (فَأَغْنَى) أي: أَنَّكَ كُنْتَ سابقًا في فقرٍ ولا تتمكنُ من القيامِ بِشَأْنِكَ وَشَأْنِ مَنْ تَحْتَ يَدِكَ، فَأَغْنَاكَ اللهُ عن الخلقِ وَجَعَلَكَ تكتفي بفضلِ اللهِ في القيامِ بِشَأْنِكَ وشأنِ مَنْ تَحْتَ يَدِكَ فلم تَحْتَجْ لأحد من الناس فجمع له ﷺ بين مقامي: الفقير الصابر والغني الشاكر.

ثم قال سبحانه مُفرِّعًا على ما سَبَقَ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾: تَذَكَّرْ حَالَكَ السابقَ في اليُتْمِ وبالتالي عَامِلِ الأيتامَ على أحسنِ المعاملةِ، وَتَذَكَّرْ حالَ نَبِيِّكَ ﷺ فقد كان يَتِيمًا وحينئذ فَعَامِلِ الأيتامَ بأحسنِ المعاملة، قوله: [**فَلا تَقْهَرْ**] أي: لا تَأْخُذْ مَالَهُ اعتداءً وظلمًا، ولا تُعَامِلْهُ بقسوةٍ ولا تُهْمِلْهُ وَتَتْرُكْهُ، بل تَقَرَّبْ إلى اللهِ برعايةِ شئونه والقيامِ به، وقد قال النبي ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بِإِصْبَعَيْهِ ﷺ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٩) وغيره من حديث سهل ابن سعد رضي الله عنه.

وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾: النَّهْرُ هو الزجرُ والإبعادُ والإقصاءُ، والسائلُ: الأصلُ أنه يشملُ كُلَّ سائلٍ؛ سواء كان يسألُ عن مسائلِ الدينِ والشرعِ، أو كان يَسْأَلُ ما يَقُومُ بأمورِه الدنيويةِ من معونةٍ ماليةٍ أو طلبِ طعامٍ أو طلبِ الشفاعةِ والقيامِ مع الإنسانِ (فَلاَ تَنْهَرْ) أي: فَلاَ تَزْجُرْهُ وَلاَ تَتَكَلَّمْ معه بغلظةٍ وقسوةٍ.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾: أي: تَكَلَّمْ بنعمِ اللهِ عليكَ التي أَنْعَمَ بها عليكَ سبحانه، سواءً كانت هذه النعمُ من النعمِ الدنيويةِ؛ إما بمالٍ أو بتحصيلِ مطلوبٍ لكَ أو بزواجٍ أو بمسكنٍ أو بتجارةٍ أو بغيرِ ذلك؛ فإن التحدثَ بِنِعَمِ اللهِ وَنِسْبَةَ هذه النعمِ إلى الله أجزاءِ شكرِ هذه النعمِ، وهكذا أيضًا يشمل التحدثَ بنعمِ الله الدينيةِ على العبدِ، فيتحدثُ العبدُ بما مَكَّنَهُ الله من أعمالٍ صالحةٍ خيرةٍ، لكنه لا يَنْوِي بذلك الرياءَ والسمعةَ، وإنما ينوي بهذا شكرَ اللهِ على هذه النعمِ وَجَعْلَ الناسَ يَقْتَدُونَ به في ذلك.

وهكذا مما يَدْخُلُ في هذه الآيةِ التحديثُ بنعمةِ الْعِلْمِ، فإن الله عز وجل يُنْعِمُ على بعضِ العبادِ بأن يرزقهم العلمَ الشرعيَّ النافعَ فيتقربُ المؤمنُ بذلك بالتحدثِ بهذا العلمِ إلى الناسِ فَيُعَرِّفُهُمْ بأحكامِ اللهِ، وَيُفَهِّمُهُمْ لكتابِ اللهِ، ويروي لهم سنةَ رسولِ الله ﷺ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. أن الله عز وجل قد تَكَفَّلَ بحفظِ هذا الدينِ والقيامِ بشأنِ الدعاةِ إلى دينِه، وقد تَكَفَّلَ بنصرِهم وتأييدهم وإعانتهم.

٢. أن ما ينتظرُ المؤمنَ من خيرٍ في الآخرةِ أَعْظَمُ مما يُحَصِّلُهُ في الدنيا.

٣. وَعْدٌ من اللهِ جل وعلا لعبادِه الصالحين الذين يقومون بشريعته ويدعون إلى دينه بأنه سيعطيهم من الخيراتِ ما يجعلهم يرضونَ عن الله.

٤. التذكيرُ بِنِعَمِ اللهِ السابقةِ على العبدِ، فَكَمْ مِنْ نعمةٍ أَنْعَمَهَا عليكَ؟! وَكَمْ من خيرٍ أَوْصَلَهُ إليكَ؟! فله الحمدُ والمنةُ والثناءُ والشكرُ.

٥. الوصيةُ باليتيمِ والقيامُ بشأنه واحتسابُ الأجرِ معه وعدمُ قَهْرِهِ بأخذِ مالِه أو سوءِ معاملتِه.

٦. التقربُ إلى الله بِحُسْنِ التعاملِ مع السائلين فلا يُنْهَرُونَ ولا يُزْجَرُونَ، فإذا كان عند الإنسانِ ما يتمكن من إعطاءِ السائلِ للمالِ أعطاه تَقَرُّبًا لِلهِ، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] وأما إذا لم يكن عند الإنسانِ قدرةٌ لإعطائِه والصدقةِ عليه فيخاطبُه بالخطابِ الحسنِ، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٨] وهكذا أيضًا ينبغي ألا يُنْهَرَ السائلُ عن المسائلِ الشرعيةِ الدينيةِ، وَأَنْ يُخَاطَبَ

بالخطابِ الْحَسَنِ، فإن كان المرءُ عارفًا بهذه المسألةِ أجابَ بما لا يثيرُ فتنةً ولا يكون سَبَبًا لشيءٍ مما يخالفُ مقاصدَ الشرعِ وَحِكَمَهُ.

٧. التحدثُ بالعلمِ وتذكيرُ الناسِ به والتحدثُ بِنِعَمِ اللهِ على العبدِ، سواءً كانت نِعَمًا دينيةً أو كانت نِعَمًا دنيويةً، ولا يكون ذلك على سبيلِ الكبرِ والبطرِ والترفعِ على الناسِ، وإنما على سبيلِ ذِكْرِ نِعَمِ اللهِ والشكرِ له سبحانه وَنِسْبَتِهَا إلى الله جل وعلا.

تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ
﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ
الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ
﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ....

موضوع السورة:

سورة الشرح سورة مكية، نزلت بعد سورة الضحى، وهي شديدة الاتصال بسورة الضحى حتى قيل: هما سورة واحدة، والصحيح المتواتر أنهما سورتان يفصل بينهما بالبسملة.

وسورة الشرح متصلة المعنى بسورة الضحى ويدل عليه ما روي في الحديث أن الله تعالى قال للنبي ﷺ: «**أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالاً فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبُّ**»(١).

معاني الآيات:

ذكر سبحانه في هذه السورة عدداً من نعمه سبحانه على نبيه محمد ﷺ فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾: أي: أَنْعَمْنَا عليكَ فَجَعَلْنَا صَدْرَكَ مُنْشَرِحًا مُتَّسِعًا بعيدًا عن الضيقِ والحرجِ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وكذلك مِنْ نِعَمِ الله على هذا النبي الكريم ﷺ ما ذكره بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٤/ ٧٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٧٣، والضياء في المختارة ١٠/ ٢٨٧، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٥٣٨).

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ ....

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾: الوضعُ هو الإبعادُ والتخفيفُ، والوِزْرُ: الأمورُ الثقيلةُ من المشاقِّ والتكاليفِ أو من الذنوبِ والمعاصِي كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١].

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾: يعني أن الذنوبَ والمعاصيَ هي التي تُثْقِلُ ظهرَ الإنسانِ وتجعلُه تردُ عليه المصائبِ.

ثم قال سبحانه ذَاكِرًا نِعَمًا أخرى أَنْعَمَ بها على هذا النبي الكريم ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾: أي: أن هذا النبيَّ الكريمَ لا يزالُ يُثْنَى عليه ويذكره الناسُ إلى قيامِ الساعةِ، يذكرونَه بالأمورِ الطيبةِ الحسنةِ، ومن هنا فإن النبيَّ ﷺ يُذْكَرُ مع ذكرِ اللهِ في الشهادتين اللتين يدخلُ بهما المرءُ في دينِ الإسلامِ؛ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَذِكْرُ هذا النبيِّ الكريمِ أيضًا يُرْفَعُ عند الأذانِ، فلا يصحُّ أذانٌ إلا بِذِكْرِ محمدٍ ﷺ.

وهكذا رَفَعَ اللهُ ذِكْرَ هذا النبيِّ في أنه يُشْرَعُ للعبدِ إذا دعا أن يصليَ على هذا النبيِّ ﷺ وَتُشْرَعُ الصلاةُ على النبيِّ ﷺ في كُلِّ صلاةٍ مفروضةٍ ونافلةٍ.

وهكذا ذِكْرُ النبيِّ ﷺ يُشْرَعُ للعبدِ أن يصليَ عليه كُلَّمَا ذُكِرَ، بل الصلاةُ على النبيِّ ﷺ من العباداتِ الفاضلةِ التي يَعْظُمُ أجرُها وَيَكْثُرُ ثَوَابُهَا، كما يُذْكَرُ في الدنيا ويرتفعُ ذِكْرُهُ فيها أيضًا يرتفعُ ذكرُ النبيِّ ﷺ في

الآخـرةِ ، فإن النبيَّ ﷺ هو صاحبُ الشفاعةِ ؛ ذلك المقام الذي يتضايقُ الناسُ فيه مِنْ وقوفهم في الموقفِ العظيمِ ؛ موقفِ المحشرِ الذي يطولُ عليهم أمدُه وَتَقْـرُبُ الشمسُ منهم ويتضايقون مما هم فيه ويتطلعون إلى أن يُحَاسَبَ العبادُ لِيَرَى كُلٌّ منهم مصيرَه إلى جنةٍ أو إلى نارٍ، فتأتي الأممُ إلى الأنبياءِ واحدًا واحدًا تسألهم أن يشفعوا عند الله عز وجل أن يفصلَ بينهم القضاءَ، فيعتذرُ الأنبياءُ عليهم السلامُ حتى يَأْتُوا إلى نَبِيِّنَا ﷺ فيقول: أنا لها فَيَسْجُدُ بين يَدَيِ الله وَيُلْهِمُهُ مَحَامِدَ، ثم بعد ذلك يُؤْذَنُ له بالشفاعةِ فَتُقْبَلُ شفاعتُه.

وهكذا تُقْبَلُ شفاعةُ النبيِّ ﷺ في إخراجِ أناسٍ من أمتِه من النارِ إلى الجنةِ، وفي التخفيفِ عن بعضِ الناسِ، وفي رفعِ درجاتِ بعضِ الْخَلْقِ في الجنةِ.

وهكذا في يومِ القيامةِ عندما تُكَذِّبُ الأممُ أنبياءها ويقولون بأنكم لم تُبَلِّغُونَا شرعَ اللهِ يستشهدُ الأنبياءُ بنبينا ﷺ فيشهدُ لهم أنهم قد بَلَّغُوا الرسالةَ وأنهم قد أقاموا الحجةَ في مواطنَ كثيرةٍ يُرْفَعُ فيها ذِكْرُ نبينا الكريمِ ﷺ.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾: (العسرُ) هو الضِّيقُ وَالْحَرَجُ والمشقةُ الشديدةُ، واليسرُ هو تسهيلُ الأمورِ وتخفيفُها وانفراجُها على العبدِ، وهذا وَعْدٌ من الله بأنه إذا كان هناك عُسْرٌ فلا بد أن يكونَ مَعَهُ يسرٌ،

﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾.

واستعمل لفظةَ (مع) الدالةِ على القربِ، وقد جاء في الحديثِ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ الْعُسْرَ دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَتَبِعَهُ الْيُسْرُ**»(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾: كَرَّرَ هذه الجملةَ، ولاحِظُوا أَنَّ العسرَ مُعَرَّفٌ في الآيتين؛ مِمَّا يَدُلُّ على أنه عُسْرٌ وَاحِدٌ، وأما اليسرُ فإنه مُنَكَّرٌ؛ مِمَّا يَدُلُّ على أن هناك يُسْرَيْنِ؛ ولذا ورد في الخبر: «**لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**»(٢).

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾: أي: إذا أَنْعَمَ اللهُ عليكَ بتيسيرِ الأمورِ وزوالِ الأثقالِ فَتَقَرَّبْ إلى الله بصنوفِ الطاعاتِ، أو إذا انتهيتَ من أداء طاعةٍ من الطاعاتِ فَافْتَحْ على نَفْسِكَ بابَ طاعةٍ أخرى، [**فَانْصَبْ**] أي: فَاجْتَهِدْ في طاعةٍ أخرى تتقربُ بها إلى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾: أي: اجْعَلْ نِيَّتَكَ خالصةً لله عز وجل في كُلِّ أعمالِك بأن تنويَ بعباداتِك إرضاءَ رَبِّكَ والحصولَ على الأَجْرِ الأخرويِّ وتنوي بعاداتك التَّقَوِّيَ على طاعةِ اللهِ جل وعلا.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/٢٥٥ والطبراني في الأوسط (٣٤١٦) والبزار (٢٢٨٨) كما في كشف الأستار والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠١٢) بلفظ: (لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر فدخل عليه.

(٢) أخرجه مالك (٩٦١) والحاكم (٣٩٤٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠١٠).

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. فضيلةُ نَبِيِّنَا ﷺ وَرِفْعَةُ مكانته وَعُلُوُّ درجتِه في الدنيا والآخرةِ.

٢. ذِكْرُ ما أَنْعَمَ اللهُ به على ذلك النبيِّ الكريمِ من خيراتٍ عظيمةٍ في الدنيا مِنْ شَرْحِ صَدْرِهِ ووضعِ وِزْرِهِ وَرَفْعِ ذِكْرِهِ.

٣. وَعْدُ اللهِ الصادقُ الذي لا يَتَخَلَّفُ بأن العسرَ إذا كان عندَ مؤمنٍ فإن اللهَ سَيُرْسِلُ له يُسْرًا عن قَرِيبٍ.

٤. أن العبدَ إذا فَرَغَ من أَشْغَالِهِ فعليه أن يجتهدَ بأنواعِ الطاعاتِ؛ لأن المؤمنَ مَخْلُوقٌ لطاعةِ اللهِ.

٥. النهْيُ عن اللهوِ والعبثِ، فإن المؤمنَ يعرفُ أن حياتَه لطاعةِ اللهِ أما المُشْغِلَاتُ والملهياتُ التي لا يستفيدُ منها فلم يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِهَا.

٦. الترغيبُ في إخلاصِ النيةِ لله عز وجل في جميعِ الأعمالِ التي يُؤَدِّيهَا العبدُ.

تفسير سورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ
ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ
رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ
بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ②﴾ ....

موضوع السورة:

سورة التين سورة مكية في قول الجمهور. وقيل: مدنية، وآيها ثمان آيات في قولهم جميعاً. ولما ذكر سبحانه في السورة السابقة حال النبي ﷺ وهو أكمل خلق الله عز وجل، ذكر عز وجل في هذه السورة حال باقي النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره، وما أعده سبحانه لمن آمن به منهم.

معاني الآيات:

أقسم الله في أول هذه السورة بقوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ①﴾: و(التينُ) نوعٌ من أنواعِ الثمارِ ذَكَرُوا له فوائدَ عظيمةً، والزيتونُ أيضًا شجرٌ مَوْسِمِيٌّ يُؤْخَذُ منه الزيتُ ويُؤكل طَرِيًّا، وظاهرُ هذه الآيةِ أنه قَسَمٌ بذاتِ الزيتونِ وبذاتِ التينِ، وقال طائفةٌ: بأن المرادَ بذلك الْقَسَمِ المكان الذي يَكْثُرُ فيه نباتُ الزيتونِ والتينِ، وهو بلادُ الشامِ؛ فإن هذه الآيةَ ذَكَرَتْ سيناءَ التي بُعِثَ فيها مُوسَى، وَذَكَرَتْ مكةَ التي بُعِثَ فيها مُحَمَّدٌ ﷺ، ولما كان الشامُ قد بُعِثَ فيه كثيرٌ من الأنبياء ذَكَرَ اللهُ التينَ والزيتونَ التي يَكْثُرُ نباتها في الشامِ، هكذا قالَ بعضُ المفسرين والقولُ الأولُ أظهرُ؛ لأنه إذا أمكنَ تفسيرُ الآيةِ بدونِ حاجةٍ إلى تقديرٍ فهو أَوْلَى من أن نُقَدِّرَ لها، محلُّ نباتِ التينِ والزيتونِ ونحو ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ②﴾: الطورُ: الجبلُ، وسينين: جبلُ سيناءَ الذي بُعِثَ عليه موسى عليه السلام.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ
سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ ....

وقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾: يريدُ به مكةَ المكرمةَ المُشرَّفَةَ.

وقوله تعالى: [**الأَمِينِ**] أي: من الأمانة، وقيل من الأمن، ولا يمتنع أن يكونَ من مجموعِ الأمرين؛ ففيه أمانةٌ وهو آمِنٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧] أَقْسَمَ اللهُ بهذه الأمورِ الثلاثةِ على مُقْسَمٍ عظيمٍ فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾: أي: أَوْجَدْنَا هذا الإنسانَ من العدمِ في أفضلِ صورةٍ؛ فقد خَلَقَهُ وَسَوَّاهُ وَعَدَّلَهُ وَجَعَلَهُ على أَحْسَنِ الصورِ وَأَكْمَلِهَا.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾: أي: رَدَدْنَا هذا الإنسانَ إلى نارِ جهنمَ والعياذُ بالله.

وقوله: [**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ**] أي: جَعَلْنَاهُ يرجعُ وينكثُ، أو جعلناه يتردد.

وقوله: [**أَسْفَلَ سَافِلِينَ**] أي: في المحلِّ النازلِ الذي هو نارُ جهنمَ.

ثم استثنى من عذاب النار المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾: فهؤلاء لم يَرُدَّهُمُ اللهُ أسفلَ سافلين، ووجهُ العجبِ في هذا أن الله قد خَلَقَ هذا الإنسانَ وَأَنْعَمَ عليه بصنوفِ النعمِ، منها: كَوْنُهُ على أَحْسَنِ تقويمٍ؛ لكنه كَفَرَ هذه النعمَ فكان في أسفلِ سافلين، وَيَدُلُّكَ هذا على أن العبدَ إذا ابتعد عن منهجِ الله فليس كريمًا على

....

الله بل سَيَرُدُّهُ أسفلَ سافلين، ولو كان اللهُ هو الذي خَلَقَهُ، ولو كان الله قد أَعْطَاهُ من صنوفِ النعمِ والخيراتِ ما أعطاه.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فهؤلاء لهم مصيرٌ آخَرُ وثوابٌ أعظمُ، بينه سبحانه بقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

وقوله سبحانه: [**إلا الَّذِينَ آمَنُوا**] أي: فعلوا خصالَ الإيمانِ قولاً وَفِعْلاً واعتقادًا، وَنَصَّ على العملِ الصالحِ مع أنه جزءٌ من الإيمانِ للتأكيدِ عليه، وَلِنَفْيِ ظَنِّ مَنْ يَظُنُّ أن الإيمانَ يَصِحُّ بلا عمل، فقال: [**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**] وأشار إلى أنه ليس المرادُ العملَ لذاتِ العملِ، بل لا بد أن يكون العملُ صَالِحًا، ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا وُجِدَتْ فيه صفتان:

الصفةُ الأُولى: أن يكونَ خَالِصًا لِلهِ؛ فَمَنْ عَمِلَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، أو عَمِلَ تَقَرُّبًا إلى أحدٍ من الخلقِ، فَعَمَلُهُ ليس بِصَالِحٍ، ولا يُؤْجَرُ عليه، بل هو آثِمٌ به.

الصفة الثانية: المتابعةُ لِنَبِيِّنَا ﷺ فَمَنْ عَمِلَ عملاً ليس مُتَابِعًا فيه لهذا النبيِّ الكريمِ ﷺ فليس عملاً صالحًا.

فلا يكونُ العملُ صالحًا حتى يكونَ خالصًا لله، صوابًا على طريقةِ رسولِ الله ﷺ وهذا يَدُلُّكَ على أن العبرةَ ليست بكثرةِ العملِ وإنما العبرةُ بصوابِ العمل.

وقوله سبحانه: [**فَلَهُم أَجْرٌ**] أي: ثَوَابٌ وَجَزَاءٌ، [**غَيْرُ مَمْنُونٍ**] أي: غيرُ مَقْطُوعٍ، بل هو مُتَّصِلٌ دَائِمٌ مِمَّا يَدُلّ على أن الجنةَ دائمةٌ أبدَ الآبادِ

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

وأنها لا تَنْقَطِعُ ولا تفنى.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾: أي: يا أيها القارئُ لهذا الكتابِ، ويا أيها الإنسانُ ما هو السببُ الذي يَجْعَلُكَ لا تُصَدِّقُ بهذا الدينِ بعدَ قيامِ هذه الْحُجَجِ والدلائلِ والبراهينَ الدالة على صحته وصدقه.

وقوله سبحانه: [بِالدِّينِ] يشملُ الجزاءَ والبعثَ؛ لأن يومَ البعثِ، يقال له: يومُ الدينِ، ويشملُ أيضًا هذه الشريعةَ؛ فإن هذه الشريعةَ يقال لها الدين، قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي: مَالِكِ يومِ الجزاءِ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وكلاهما مرادٌ بهذه الآيةِ.

فالمقصود أن الله عز وجل يُنْكِرُ على الْمُعَانِدِينَ الكافرين تكذيبَهم بيومِ الجزاءِ، وتكذيبَهم بهذا الدينِ مع قيامِ الحججِ والبراهين الدَّالَّةِ على صِحَّتِهِمَا وَصِدْقِهِمَا.

قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾: أي: أن الله تعالى سيحكم العبادَ وسيكون أقوى الحاكمين بالْحُكْمِ، وله سبحانه الحكمةُ البالغةُ؛ ولذلك فهو أَحْكَمُ الحاكمين من الحكمةِ؛ فإنه لا يفعلُ شيئًا إلا لِمَقْصِدٍ ولا يفعل شيئًا عَبَثًا ولن يتركَ الخلقَ سُدًى، ومن حكمته جَلَّ وعلا أن يُثِيبَ الطائعين بالثوابِ الحسنِ، وأن يجازيَ الكافرين بالجزاءِ السَّيِّئِ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. فَضْلُ هذه المَوَاطِنِ التي بُعِثَ فيها هؤلاء الأنبياءُ، ولا يعني هذا جوازَ السفرِ مِنْ أَجْلِ رؤيةِ جبلِ سيناءَ؛ جبلِ الطورِ، وقد وَرَدَ أن أحدَ الصحابةِ سَافَرَ إليه فَأَنْكَرَ عليه بقيةُ الصحابةِ وَبَيَّنُوا له أن هذا ليس من الأمورِ المشروعةِ واستدلوا عليه بقول النبيِّ ﷺ: **«لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى وَمَسْجِدِي هَذَا»**[1].

٢. فضلُ الله على العبادِ وعلى الإنسانِ بِخَلْقِهِ في أحسنِ تقويمٍ.

٣. أن الناسَ يُحَاسَبُونَ بحسبِ أعمالهم وأنهم يُرَدُّونَ أسفلَ سافلين إذا لم يؤمنوا ولم يَعْمَلُوا العملَ الصَّالِحَ.

٤. فضيلةُ الإيمانِ والعملِ الصالحِ وكثرةُ أَجْرِ صَاحِبِهِمَا.

٥. بَيَانُ أن الْحُجَجَ قد قَامَتْ على العبادِ بصحةِ هذا الدينِ وَصِدْقِ الخبرِ بيومِ الجزاءِ.

٦. أن الله جَلَّ وَعَلاَ مُتَّصِفٌ بصفةِ الحُكمِ والحكمةِ، وقد رَوَى الترمذيُّ أنه يقال بعد قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾: بلى وأنا على ذلك مِنَ الشَّاهِدِينَ[2]، وقد اختلف أهلُ العلمِ في صحةِ هذا الخبرِ، وكثيرٌ منهم قد تَكَلَّمَ في إِسْنَادِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٢) ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٨٧) والترمذي (٣٣٤٧) والبيهقي ٢/٣١٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ
﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾
عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ
﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾
أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن
كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا
بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾
سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب
۩ ﴿١٩﴾

موضوع السورة:

سورةُ العَلَقِ هي أولُ سورِ القرآن نُزُولاً على النبيِّ ﷺ، وهي مبدأُ الرسالةِ والنبوةِ على الصحيحِ، وهي مبدأُ هذا الخبرِ العظيمِ الذي أَنْزَلَهُ اللهُ بهذا الكتابِ وَنَشَرَهُ بهذا الدينِ القويمِ؛ دينِ الإسلامِ؛ ولذلك فهذه السورةُ فيها من المعانِي العظيمةِ ما قَدْ لا يَجِدُهُ الإنسانُ في غيرِها.

وقد جاء في الصحيحِ من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها قالت: «**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ** -أي: يتعبّد لله فيها- **اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لذلك، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الملَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ** -أي: أنا لا أعرفُ القراءةَ؛ لأنه ﷺ أُمِّيٌّ لا يعرف القراءةَ والكتابةَ- **فَأَخَذَهُ فَغَطَّهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الجَهْدَ ثُمَّ قَالَ لَهُ: اقْرَأْ، فَقَالَ ﷺ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، ثُمَّ أَخَذَهُ فَغَطَّهُ الثَّالِثَةَ ثُمَّ قَالَ لَهُ:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾».

ثم إن النبيَّ ﷺ لَمّا أُلْقِيَتْ إليه هذه الآياتُ وَضَبَطَها عادَ إلى بيتِه يرتجفُ فؤادُه وَدَخَلَ على خديجةَ، ثم إنه قال: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**» وأخبرها بأنه قد خَشِيَ على نفسه فقالت خديجة رضي الله عنها: «**وَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ فَإِنَّكَ تَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَصْدُقُ**

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ....

الحَدِيثَ» وَذَكَرَتْ من صفاته ﷺ؛ وذلك أن الله عز وجل يقابلُ الإحسانَ بالإحسانِ كما قال سبحانه: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ثم إنها ذَهَبَتْ إلى ابنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ فَأَخْبَرَتْهُ فقال ورقةُ له: إِنَّ "هَذَا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ**؟» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ" فلم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ(١).

معاني الآيات:

قال اللهُ في هذه الآياتِ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾: فيه الأمرُ بالقراءةِ، والقراءةُ قد تكون لمحفوظٍ في الصدرِ وقد تكونُ لمكتوبٍ بالقلمِ.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أن الشريعةَ تأمرُ بالتعلمِ سواء كان بِالتَّعلُّمِ لِمَا في الصدورِ، أو بقراءةِ ما في المكتوبِ؛ ولذلك قال تعالى في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] وَأَقْسَمَ بالقلمِ في آيةٍ أخرى كما في قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

فإن قال قائلٌ: إن النبيَّ ﷺ لم يكن قارئًا؟

فنقول: إن الله جل وعلا له في ذلك حكمةٌ؛ أَلاَ وَهِيَ أن النبيَّ ﷺ مُبَلِّغٌ لهذه الرسالةِ الوحيِ الذي يأتيه، فلو كان عنده معرفةٌ أخرى بقراءةٍ أو

(١) أخرجه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بشعرٍ لَنُسِبَ ذلك الوحيُ إلى تلك القراءةِ أو ذلك الشعرِ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]. فدل هذا على أن لِلهِ حكمةً في كونِ النبيِّ ﷺ أُمِّيًّا لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابةَ مِنْ أَجْلِ أن يعرفَ الناسُ أن هذا العلمَ العظيمَ النازلَ في هذا الكتابِ الكريمِ إنما هو وَحْيٌ من الله جل وعلا، وهكذا بالنسبةِ لِلسُّنَّةِ النبويةِ.

وقوله سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾: أي: أن ما تتلوه على الناس وَتُوَصِّلُهُ وَتُبَلِّغُهُ من هذه الشريعةِ ليس من عندِ نَفْسِكَ، وإنما تُبَلِّغُهُ من عند الله جل وعلا؛ ولهذا كان هذا الكتابُ وهذه الشريعةُ باسمِ اللهِ تعالى، وفي قوله: [رَبِّكَ] إشارةٌ إلى أن الله هو المنعمُ المتفضلُ الذي رَبَّى الناسَ بصنوفِ النعمِ، وحينئذ يشكر الناسُ هذه النعمةَ بِصَرْفِهَا فيما يرضِي الله جل وعلا، ومن ذلك الاستجابةُ لدعوتِه وَلِنَبِيِّهِ ﷺ.

وفي قوله: [الَّذِي خَلَقَ] أي: خَلَقَ جميعَ المخلوقاتِ سواء كانت الحيواناتِ أو الجماداتِ وفيه إشارةٌ إلى أن الخالقَ هو المُسْتَحِقُّ لأَنْ يُعْبَدَ وأن يُفْرَدَ بالعبادةِ؛ لأنه هو الذي أَوْجَدَ هذه المخلوقاتِ من العدمِ.

وبعد أن ذَكَرَ المخلوقاتِ بعمومٍ ذَكَرَ الإنسانَ بخصوصٍ، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾: الإنسانُ الأظهرُ أن المرادَ به بنو آدمَ خَلَقَهُم اللهُ من عَلَقٍ،

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ ....

والعلقُ شيءٌ من الدمِ، وأشار الله جل وعلا إلى أن مبدأَ الإنسانِ من عَلَقٍ مِنْ أَجْلِ أن يشارَ إلى أن أصلَ الإنسانِ مُمْتَهَنٌ، وهو خَلْقٌ ضعيفٌ ليس بشيءٍ، وأن الله هو الذي قد أَنْعَمَ عليه وتَفَضَّلَ عليه بصنوفِ النِّعَمِ.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾: أي: بَلِّغْ هذه الشريعةَ وَاقْرَأْ وَحْيَ رَبِّكَ، وكتابَ رَبِّكَ جَلَّ وَعَلاَ؛ لتستفيدَ منه في نفسك وَلِتُفِيدَ منه غَيْرَكَ.

وفي قوله: [**وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**] أي: أن هذا الكتابَ من عندِ رَبِّ العالمين الذي هو الأكرمُ، وفيه إشارةٌ إلى أنه سبحانه الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ.

وقوله: [**الأَكْرَمُ**] صيغةُ مبالغةٍ من الكرمِ والجودِ، وهذا فيه لفتٌ للأذهانِ إلى كَرَمِ ربِّ العزةِ والجلالِ.

ومن أعظمِ ما تَفَضَّلَ به على الناسِ بعثةُ نبينا محمدٍ ﷺ وإنزالُ هذا الكتابِ العظيمِ؛ القرآنِ الكريمِ الذي تَصْلُحُ به أحوالُ الناسِ وَيَسْعَدُونَ، ويكونُ سببًا من أسبابِ رضا الله عنهم، ومن أسبابِ دخولهم الجنةَ وَعُلُوِّهِمْ في الدرجاتِ.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾: أي: أن اللهَ تَفَضَّلَ على الناسِ بصنوفِ النعمِ ومن ذلك أَنْ جَعَلَهُم يتعلمون، وَعَلَّمَهُمْ بالوسائلِ المؤديةِ إلى التعلمِ، ومن ذلك القلمُ؛ فإن القلمَ وسيلةٌ من وسائلِ التعلمِ.

وفي هذه الآيات الترغيبُ في الكتابةِ والقراءةِ وصنوفِ أنواعِ التعلمِ

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.........

ولم تُفَرِّقْ هذه الآياتُ بين الذكورِ والإناثِ.

ثم قال سبحانه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾: فإن الله خَلَقَ ابنَ آدمَ لا يعلمُ شيئًا كما قال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ومن هنا نعلمُ بأن ما تَعَلَّمَهُ الإنسانُ فهو نعمةٌ من الله جل وعلا، وليس مجردَ حظٍّ أو قدرةٍ من الآدميِّ مجردةٍ، ومن هنا فإن المرءَ لا يمكنُ أن يتعلمَ شيئًا إلا إذا أَعانَهُ اللهُ على ذلك وَيَسَّرَ له أسبابَه، وكَمْ مِنْ ذَكِيٍّ أُوتِيَ من أنواعِ النعمِ ما يُمَكِّنُهُ من التَّعَلُّمِ لكنه كان بَلِيدًا فلم يُوَفَّقْ لتعلم شيء من العلومِ النافعةِ.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾: أي: أن مِنْ شَأْنِ الإنسانِ أن يتجاوزَ الحدَّ الذي رُسِمَ له إِمَّا بأن يدعوَ إلى عبادةِ نفسِه أو يعبدَ غيرَ اللهِ أو يستعملَ نِعَمَ الله في معاصي الله، أو يردَّ الحقَّ ولا يقبلُ دعوةَ الأنبياءِ، متى يفعلُ ذلك؟

قال تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾: أي: إذا ظَنَّ الإنسانُ أنه غنيٌّ بنفسِه، وأنه غيرُ محتاجٍ إلى الله جل وعلا فإنه حينئذٍ يطغى ويَتَجَاوَزُ حَدَّهُ فيتكبر على عِبَادَةِ رَبِّهِ، وقد يصرفُ شيئًا من العبادةِ لغيرِ اللهِ، ويتكبرُ على عبادِ الله ويرى أنهم أَقَلُّ درجةً منه، متى ظَنَّ أنه قد اسْتَغْنَى عن فضلِ الله جل وعلا والإنسانُ مَهْمَا بلغَ لا يمكنُ أن يستغني عن فضلِ اللهِ عز وجل.

فالعبدُ ولو كان عنده مالٌ ولو كان عنده من صنوفِ المآكلِ والمشاربِ، ولو كان عنده من الْخَدَمِ، ولو كان عنده من صنوفِ النعمِ إذا لم يَسْتَشْعِرْ حاجتَه لله ولم يُعِنْهُ اللهُ جل وعلا على أمورِه فلن يتمكنَ من الاستمتاعِ بهذه النعمِ، ولو قُدِّرَ أن إنسانًا عنده من صنوفِ النعمِ فأصيبَ بمرضٍ خفيفٍ في لسانِه يجعلُه يتذوقُ الطعامَ على أنه شديدُ المرارةِ فلن ينتفعَ بطعامِه ولن يَلْتَذَّ به، ولن يهنأَ به، وهكذا لو حَرَّكَ اللهُ جل وعلا عِرْقًا من عروقك يا ابنَ آدمَ لَمَا هَنَأْتَ بحياتك ولشعرتَ أنكَ في عذابٍ شديدٍ ولم تَهْنَأْ بشيءٍ من النعمِ التي أنعم الله بها عليك.

ثم إن نِعَمَ اللهِ التي عندك لن تستمرَّ عندك إلا إذا أَرَادَ اللهُ بقاءَها واستمرارَها، ولا يريد الله بقاءَها إلا إذا شَكَرَ العبدُ نعمةَ الله فاعترفَ بأنها من اللهِ وَأَثْنَى على الله بها، وَصَرَفَهَا فيما يرضِي الله.

ثم أقام الله دليلاً على خطأِ الإنسانِ في طغيانِه فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾: أي: أن العبدَ سيعودُ عَمَّا قريبٍ إلى رَبِّهِ فيحاسبه على أعماله قليلِها وكثيرِها، وَمَنْ كان سيُحاسب على أعماله هل يليقُ به أن يطغى أو أن يتكبرَ على عِبَادَةِ الله؟! لا وَاللهِ.

ثم ذَكَرَ اللهُ جل وعلا أن بعضَ الكفارِ يَصُدُّونَ المؤمنين عن طاعةِ الله عز وجل، ويحاولونَ قَصْرَهُمْ قَصْرًا على تركِ الطاعةِ والولوجِ في سبلِ المعصيةِ، ومن هنا فهم يَبْذُلُونَ الأسبابَ لتركِ المؤمنين لدينِهم حتى في أصلِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ ....

الدينِ فَهُمْ يَسْعَوْنَ إلى أن يتركَ المؤمنونَ الصلاةَ؛ وَلِذَا قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾: وسببُ نزولِ هذه الآيةِ أن أبا جهلٍ قال: وَاللهِ لئن رأيتُ محمدًا يصلي عند الكعبة لأَطَأَنَّ على عُنُقِهِ، فلما أُخبر النبيُّ ﷺ قال: «**وَاللهِ لَوْ قَرِبَنِي لاخْتَطَفَتْهُ المَلائِكَةُ عياناً**»(١).

وفي هذا أن الله جل وعلا يحمي المؤمنين الذين يقومون بشريعته؛ وبالتالي فإنه ليس من شَأْنِ المؤمنِ أن يضعف فيتركَ شيئًا من شرعِ اللهِ عز وجل خوفا من الخلق، بل هو قوي بالله عز وجل ومن هنا فهو مستمرٌّ على طاعةِ اللهِ لا يتركُ شيئًا من الواجباتِ ولو نَهَاهُ مَنْ نَهَاهُ؛ فإن الطاعةَ إنما تكونُ في المعروفِ كما قال ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»(٢) وكما قال: «**لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**»(٣).

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾: يَنْهَاهُ عن أداءِ الصلاةِ، وهذا إنكارٌ من الله جل وعلا على أولئك الذين يَصُدُّونَ عن دينِ اللهِ وينهونَ عبادَ الله عن عبادةِ ربِّ العالمين.

فَرَدَّ اللهُ عليه فقال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾: إذا كان هذا العبدُ الذي تنهاه عن الصلاةِ مُسْتَمِرًّا على طريقِ الْهُدَى فهل يَحْسُنُ أن يُنْهَى عن ذلك؟ وهل يخذله الله فَيُمَكِّنُ عدوَّه منه الذي ينهاه عن طاعة الله عز

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٦) ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٥/٦٦ والحاكم ٣/٥٠١ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾ ....

وجل؟! وانظروا أن الله عز وجل قال هنا: [**عَبْدًا إذا صَلَّى**] لأن مِنْ أَشْرَفِ صِفَاتِ النبيِّ ﷺ العبوديةَ لله عز وجل.

ومن الحكم في هذا أن يكون هذا اللفظُ شاملاً للمؤمنين إلى قيامِ الساعةِ، هُمْ يَقْتَدُونَ بِنَبِيِّهِمْ في الاستمرارِ على الطاعةِ وعدمِ الاستجابةِ لأولئك الذين ينهونهم عن صنوفِ الطاعاتِ ومنها الصلاةُ، فمثل هذا هل يُنهى؟!

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾: أي: أَمَرَ بِالْخِصَالِ الطيبةِ من عبادةِ الله والإحسانِ إلى عبادِ الله، فمثلُ هذا هل يُنْهَى عن طاعةِ اللهِ؟ وهل يُمَكِّنُ اللهُ مَنْ نَهَاهُ عن الطاعةِ بالاستمرارِ على طريقتِه؟!

ثم قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾: ليس المرادُ بهذه الصفةِ العبدَ الذي يُصلي سواء النبي ﷺ أو مَنْ يَتْبَعُهُ، وإنما المرادُ بهذه الصفةِ ذلك النَّاهِي الذي يَنْهَى عن الصلاةِ، أي: أرأيتَ إن كان الناهي عن الصلاةِ من الْمُكَذِّبِينَ الذين تَوَلَّوْا عن طاعةِ اللهِ، فمثلُ هؤلاء هل يُعَانُونَ في صَدِّهِمْ عن طاعةِ الله؟ وهل يُمَكِّنُهُمْ اللهُ من صَدِّ عبادِ اللهِ عن الصلاةِ؟

وإذا كان ذلك النَّاهِي عن الصلاةِ من المكذبين بأخبارِ الله الْمُتَوَلِّينَ عن طاعةِ الله فمثلُ هؤلاء لا يُعينهم الله على ما سَلَكُوهُ من النهيِ عن طاعةِ الله، ويدخلُ في هذا كل مَنْ نَهَى عن تبليغِ شرعِ الله، وَمَنْ نَهَى عن تعليمِ

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ ....

عبادِ الله، ويدخلُ في هذا كل مَنْ نَهَى عن شيءٍ من الشرائعِ الإسلاميةِ الظاهرةِ.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾: أي: هذا الناهي الذي نَهَى عن الصلاةِ أليس عَارِفًا بأن اللهَ مُطَّلِعٌ على الأمرِ عارفٌ بحقيقةِ الحالِ، فلو كان هذا العبدُ الذي يصلي من الكاذبين على اللهِ لأَنْزَلَ الله به العقوبةَ ولم يُؤَيِّدْهُ ولم يَنْصُرْهُ، ثم ألا يَعْلَمُ هذا الناهي عن الصلاةِ بأن اللهَ مُطَّلِعٌ على حالِه لَمَّا نهى عبادَ الله عن عبادته، والله عز وجل غيورٌ يَغَارُ على عبادِه المؤمنين، فأولئك الذين صَدُّوا عن طاعةِ اللهِ فإن الله مُطَّلِعٌ على حالهم عارفٌ بأمورهم.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾: (كَلاَّ) كلمةُ ردعٍ وَزَجْرٍ؛ لئلا يستمرَّ على غَيِّهِ في نهيه هذا العبدَ عن الاستمرارِ في الصلاةِ، وقوله: [**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ**]: أي: إذا لم يتوقف في نهيه عن أداءِ الصلاةِ، [**لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ**]: أي: لنأخذنه أخذًا شديدًا بالناصية. والناصيةُ: هي الشعرُ الذي يكون في مقدمةِ رأسِه، فكأنه يؤخذ بهذه الناصية أخذًا شديدًا فَيُسْحَبُ بسبب ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾: الناصيةُ كما تَقَدَّمَ مُقَدَّمُ الشعرِ، أَطْلَقَهَا وأراد بها صاحبَ الناصيةِ؛ لأنه سَيُعَذَّبُ بِسَحْبِهِ مِنْهَا.

وقوله تعالى: [**كَاذِبَةٍ**] أي: تكذبُ في مقالها فلا تتكلمُ بالواقعِ والحقيقةِ، وتُكَذِّبُ بدعوةِ الحقِّ.

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ ....

وقوله: [**خَاطِئَةٍ**] أي: أنها على ضلالٍ آثمةٍ بذلك، وكلمةُ (خَاطِئٍ) تقابل غيرَ المُتَعَمِّدِ بخلافِ المخطئِ فَفَرقٌ بين كلمةِ خاطئٍ وكلمةِ مُخْطِئٍ؛ فإن المخطئَ هو الذي لم يُصِبْ ولم يتوصل إلى الصوابِ، وقد يكونُ معذورًا فهذا مخطئٌ، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»[1]. أَخْطَأَ هنا أي: لم يتوصَّلْ لِلصَّوَابِ وإن كان معذورًا، وقد يكون مأجورًا، بخلافِ بِكَلِمَةِ خَاطِئٍ؛ فإن المرادَ بها المُقْدِمُ على المعصية وهو مُتَعَمِّدٌ لها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾: وذلك أن أَبَا جهلٍ لَمَّا حذره النبيُّ ﷺ من الملائكةِ قال: سأدعو النادي الذي أجلسُ معهم، أي: سأقومُ بالطلبِ من جلسائي بأن يَحْمُونِي وأن يكونوا معي ضِدَّ مَنْ خَوَّفْتَنِي بهم من الملائكةِ.

قال تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾: الزبانيةُ: الملائكة المُوكلُونَ بحفظِ النارِ، وخُصُّوا بالذكرِ هنا لِعِظَمِ خِلْقَتِهِمْ ولقوتهم؛ ولأنهم المُوكلُونَ بحفظِ النارِ؛ فإن اللهَ سَيَدْعُوهُمْ لِمُضَادَّةِ أولئك الذين يَنْهَوْنَ عبادَ اللهِ عن طاعةِ اللهِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة ﵁.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ١٩﴾.

وفي هذه الآياتِ تذكيرٌ بأن الله جل وعلا سيؤيدُ بالملائكةِ أولئك الذين يَسْتَمِرُّونَ على الطاعةِ.

ثم قال سبحانَه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ١٩﴾: (كَلاَّ) كَلِمَةُ زَجْرٍ وَرَدْعٍ، [**لا تُطِعْهُ**] أي: لا تُطِعْ ذلك الذي ينهاك عن طاعةِ اللهِ عز وجل، ولا تَسْتَجِبْ لِنَهْيِهِ، وَاسْتَمِرَّ على طريقتك في عبادةِ اللهِ عز وجل فإنكَ متى بقيت على طاعةِ اللهِ أَيَّدَكَ اللهُ وَحَمَاكَ وَكَفَاكَ شَرَّ أَعْدَائِكَ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ١٩﴾: أي: تَقَرَّبْ إلى الله عز وجل بأنواعِ الطاعاتِ، ومن ذلك السجودُ، وفيه إشارةٌ إلى أن مِنْ مَوَاطِنِ إجابةِ الدعاءِ السجودَ؛ فإن الله جل وعلا قد أمر نَبِيَّهُ بأن يسجدَ من أجلِ أن يكونَ ذلك سببًا من أسبابِ حمايةِ اللهِ له من أولئك الذين يُرِيدُونَ به الشرَّ وَيَرْغَبُونَ في منعه من الطاعةِ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. الإشارةُ إلى أن الصلاةَ من أسبابِ حمايةِ اللهِ للعبدِ؛ ولذا وَرَدَ في الحديثِ: أن النبيَّ ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاةِ[١].

٢. الترغيبُ في تَعَلّمِ الْعِلْمِ.

٣. عِظَمُ نعمةِ اللهِ على العبادِ بإنزالِ هذا الكتابِ وببعثةِ هذا النبيِّ الكريمِ.

٤. التذكيرُ بنعمِ اللهِ على العبادِ.

٥. تذكيرُ الإنسانِ بأصلِ خِلْقَتِهِ لئلا يطغى أو يتجبرَ أو يتكبرَ.

٦. التذكيرُ بِعِظَمِ نعمةِ اللهِ وكثرةِ كرمه وسعةِ جوده جل وعلا؛ لتتعلقَ القلوبُ باللهِ رجاءً وسؤالًا وَتَضَرُّعًا.

٧. الترغيبُ في تعلمِ الكتابةِ والقراءةِ؛ حيث إن الله امْتَنَّ على العبادِ بِأَنْ عَلَّمَهُمُ الْقَلَمَ.

٨. التحذيرُ من طغيانِ الإنسانِ وَتَكَبُّرِهِ وَتَجَاوُزِهِ لِحَدِّهِ سواءً بِشِرْكِهِ باللهِ أو بدعوته لعبادةِ نفسِه أو بإقدامِه على الْبِدَعِ والمعاصي.

٩. بيانُ أن العبدَ فقيرٌ إلى اللهِ لا يمكنُ أن يستغنيَ عن ربه جل وعلا.

١٠. أن مبدأَ ضلالِ الإنسانِ عندما يَظُنُّ أنه قد استغنى عن ربه جل وعلا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٩) ومسلم (١٧١٦) من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما.

١١. التذكيرُ بأن العبدَ سيعودُ إلى اللهِ، ومِنْ ثَمَّ مَنْ كَانَ سيعودُ إلى اللهِ فيحاسبه على أعمالِه لا بد أن يسلكَ طريقَ الحقِّ، وأن يتقربَ لِلهِ بصنوفِ العباداتِ، وليس من شأنِ مَنْ سَيُحَاسَبُ على أعمالِه أن يطغى أو يتكبر أو يتجبر.

١٢. التحذيرُ من النهيِ عن الطاعاتِ وأنه يُخْشَى على الناهي عنها من نزولِ العقوباتِ الدنيويةِ مع ما ينتظرُه من العقوباتِ الأخرويةِ.

١٣. أن طريقةَ التعاملِ مع أولئك الذين يَنْهَوْنَ عن طاعةِ اللهِ أن يستمرَّ الْمُؤْمِنُونَ بالطاعةِ وأن يُكْثِرُوا من الدعاءِ والتضرعِ وألا يستجيبوا لِمَنْ نَهَاهُمْ عن فِعْلِ واجبٍ من الواجباتِ أو أَمَرَهُمْ بِفِعْلِ معصيةٍ من المعاصي.

١٤. أن المكذبين بأخبارِ الله ورسولِه الذين تَوَلَّوْا عن طاعةِ اللهِ ورسولِه هم الذين تَنْزِلُ بهم العقوباتُ دنيا وآخرةً.

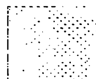
١٥. وَصْفُ اللهِ جل وعلا بصفاتِ الكرمِ والجودِ وبصفةِ الرؤيةِ؛ فالله جل وعلا يَرَى لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أحوالِ المخلوقين.

١٦. التغليظُ على أولئك الْمُعْرِضِينَ عن الحقِّ والخيرِ وَالْهُدَى، ومن هنا نعلمُ أن صفةَ العفوِ والتجاوزِ والصفحِ تكونُ لذلك الذي عَادَ إلى الحقِّ، وَطَلَبَ الصفحَ والعفوَ، وأما ذلك المستمرُّ على غَيِّهِ فإنه لا يُتَعَامَلُ معه بالعفوِ والصفحِ، وإنما يُتَعَامَلُ معه

بمضـاداتِه ومقابلتِـه بـالقوةِ ؛ لـئلا يستمرَّ في معصـيتِه ونَهْيـهِ عـن طاعةِ اللهِ جل وعلا.

١٧. أن كثرةَ السجودِ من أنواعِ القربـاتِ والطاعـاتِ الـتي يتقـربُ بها المؤمنون إلى رَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلاَ.

١٨. التـذكيرُ باستحضـارِ النيـةِ في الأعمـالِ الصـالحةِ الـتي يؤديهـا العبــدُ ؛ ولــذلك قــال : ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ : أي : تَقَــرَّبْ إلى اللهِ بصنوفِ الطاعاتِ ولا يكونُ ذلك إلا بنيةِ التقربِ لله عز وجل.




تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ
ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾
سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ .

موضوع السورة:

سُمِّيَتْ سورةَ الْقَدْرِ بهذا الاسمِ ؛ لأن فيها ذِكْرًا لليلة القدرِ العظيمةِ الشأنِ ، وليلةُ القدرِ ليلةٌ من شهرِ رمضانَ ، تكونُ في العشرِ الأواخرِ منه ، سُمِّيَتْ بهذا الاسمِ لِعِظَمِ قَدْرِهَا ومنزلتها ، فهي خيرٌ من ألفِ شهرٍ ، ولأن هذه الليلةَ تُقَدَّرُ فيها الأقدارُ وَتُقَسَّمُ فيها الأرزاقُ وَتُؤَجَّلُ فيها الآجالُ ؛ فلذلك سُمِّيَتْ بهذا الاسمِ ؛ ليلةِ القدرِ.

معاني الآيات:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ : إن هذا خطابٌ مُوَجَّهٌ من الله جل وعلا يُبَيِّنُ أنه أَنْزَلَ هذا الكتابَ ، وقوله : [**أَنْزَلْنَاهُ**] أي : جَعَلْنَا الكتابَ يَنْزِلُ من عند الله إلى العبادِ ، ففي هذا إثباتُ صفةِ العلوِّ لله عز وجل ؛ لأن الإنزالَ لا يكون إلا من الأعلى ، والقرآنُ كلامُ اللهِ ، منه بَدَأَ ، وإذا كان قد أُنْزِلَ فهذا دليلٌ على أن اللهَ متصفٌ بصفةِ العلوِّ.

وقوله : ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ : أي : أن ابْتِدَاءَ إنزالِ هذا الكتابِ كان في ليلةِ القدرِ ، فإن الله جل وعلا قد تَكَلَّمَ بهذا القرآنِ ، فالقرآنَ كلامُ اللهِ كما قال سبحانه : ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] فهذا القرآنُ الْمُنَزَّلُ هو كلامُ رَبِّ العزةِ والجلالِ ، واللهُ جَلَّ وعلا لم يتكلم به دفعةً واحدةً ؛ فإن الله يتكلمُ متى شَاءَ ، ومن قال بأن الله تكلم في الأزل

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾ ....

ثم لا يتكلم بعد ذلك وأنه عاجزٌ عن الكلامِ بعدَ هذا فهذا كلامٌ فيه صفةُ نقصٍ لله عز وجل؛ حَيْثُ شَبَّهَهُ بالجماداتِ التي لا تَتَمكَّنُ من الكلامِ، واللهُ جل وعلا يتكلمُ بالكلامِ متى شاء.

ويدلك على هذا مثلُ قوله عز وجل: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] فإن قولَ هذه المرأةِ ليس كلامًا أَزَلِيًّا قديمًا، وإنما هو كلامٌ حادثٌ والله قد أخبرَ بأنه قد سَمِعَ كلامَها، والسماعُ لا يكونُ إلا بعدَ وجودِ كلامِها؛ فدل على أن الله تعالى تكلم بهذه الآيةِ بعدَ أن تَكَلَّمَتِ المرأةُ بهذا الكلامِ، فدل ذلك على أن اللهَ جل وعلا يتكلم بآياتِ القرآنِ على حسبِ الوقائعِ فيسمعه منه جبريلُ فينقله إلى النبيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾: أي: أن ابْتَدَأَ نزولُ القرآنِ كان في ليلةِ القدرِ، ثم نَزَلَ بعد ذلك مُنَجَّمًا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾: هذا سؤالٌ عن ليلةِ القدرِ من أجلِ تنبيهِ الأذهانِ على فَضْلِهَا وَعِظَمِ مَنْزِلَتِهَا، وقوله تعالى: [**وَمَا أَدْرَاكَ**] أي: مَا عَرَّفَكَ وما وَضَّحَ لك القيمةَ العظيمةَ التي لليلةِ القدرِ.

وقد تَقَدَّمَ معنا أن ليلةَ القدرِ في رمضانَ؛ لقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليلةُ القدرِ على الصحيحِ في العشرِ الأواخرِ من شهرِ رمضانَ، فإن النبي ﷺ قِيلَ له: «**إِنَّ مَا تَطْلُبُ** – يعني

من ليلة القدر - **أمامك**»[١] يعني في العشرِ الأواخرِ، وقد قال ﷺ: «**تحرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ**»[٢] وليلةُ القدرِ تَتَنَقَّلُ ما بين ليلةٍ إلى أخرى في كُلِّ سَنَةٍ، فليست مُسْتَقِرَّةً بليلةٍ بِعَيْنِهَا، فقد ثبتَ في إحدى السنوات أن النبي ﷺ قال عن ليلة القدر: «إِنِّي أَرَى أَنِّي فِي صَبِيحَتِهَا أَسْجُدُ عَلَى مَاءٍ وَطِينٍ»[٣]، فكانت ليلةَ إحدى وعشرين، بينما في سنةٍ أخرى قال ﷺ: «**أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ** -يعني في ليلة القدر - **فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ**»[٤]، يعني في تلك السنةِ؛ مما يدل على أن ليلةَ القدرِ تَتَنَقَّلُ ما بين سنةٍ وسنةٍ أخرى.

وبعضُ الناسِ يَذْكُرُ لليلة القدر علاماتٍ ولم يثبتُ من هذه العلاماتِ شيءٌ، وإنما ثَبَتَ «**أن الشمسُ تخرجُ في صبيحتها ليس لها شعاعٌ**»[٥]، هذا الذي ثَبَتَ، وأما غير ذلك من علاماتِ ليلةِ القدرِ فلم يثبت منها شيءٌ.

ثم ذَكَرَ اللهُ جل وعلا فضيلةَ هذه الليلةِ فقال: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾: ألفُ شهرٍ أكثرُ من أربعٍ وثمانين سنةً، والمرادُ بذلك أن العبادةَ في هذه الليلةِ تَفْضُلُ عبادةَ ألفِ شهرٍ، وهذا مِمَّا تَفَضَّلَ اللهُ به على هذه الأمةِ، فإنه

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٣) ومسلم (١١٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (١٩١٣) ومسلم (١١٦٩) من حديث أبي عائشة رضي الله عنها.
(٣) جزء من الحديث المخرج برقم (١).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٩٠) ومسلم (١١٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٥) أخرجه مسلم (٧٦٢) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٌ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٍ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٍ ٤﴾ ....

قد جَعَلَ عَمَلَهَا قليلاً، وَثَوَابَهَا كثيرًا جَزِيلاً، فكما في الصلاةِ خمسٌ في العدد وخمسون في الأجرِ، وهكذا في ليلةِ القدرِ يُثَابُ الإنسانُ فيها ثواب ألفِ شهرٍ، وهذا دليلٌ على أن الأعمالَ الصالحةَ تُضَاعَفُ في هذه الليلةِ، وقد قال ﷺ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1]، فهذا دليلٌ على أن قيامَ ليلةِ القدرِ أفضلُ من بقيةِ الطاعاتِ التي يمكنُ أن تُؤَدَّى فيها، فالقيامُ أفضلُ من العمرةِ، والقيامُ أفضلُ من بقيةِ الأعمالِ الصالحةِ الأخرى.

وقد جاء في حديثِ عائشةَ أنها قالت: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَدْرَكْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[2]، فدل هذا على أن للدعاءِ مزيةً في ليلةِ القدرِ، وأنه يُرْجَى في ليلةِ القدرِ أن يجابَ دعاءُ الإنسانِ وخصوصًا في الثلثِ الأخيرِ، الذي قد وَرَدَ في عددٍ من الأحاديثِ أن النبيَّ ﷺ قال: «**يَنْزِلُ اللهُ فِي الثُّلُثِ الأَخِيرِ مِنْ كُلِّ لَيْلَةٍ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ**»[3].

ثم قال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٍ ٤﴾: أي: أن

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٠٢) ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه (٣٨٥٠) وأحمد ٦/١٧١ والحاكم ١/٧١٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٩٤) ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥.

الملائكةَ يَكْثُرُ تَنَزُّلُهُمْ في هذه الليلةِ ؛ فإنهم ينزلون في كلِّ ليلةٍ ، ولَكِنَّ نزولَهم في هذه الليلةِ ليلةِ القدرِ أكثرُ من نزولهم في غيرها ، وقيل بأن ليلةَ القدرِ تختصُّ بأن جميعَ الملائكةِ يتنزلون فيها.

وتَنَزُّلَ الملائكةِ إنما يكون بإذن الله جل وعلا مِنْ أَجْلِ إيصالِ نِعَمِ اللهِ ومن أَجْلِ صَرْفِ السوءِ عن عبادِ اللهِ.

و(الروحُ) عند جماهيرِ أهلِ العلمِ يُرَادُ به جبريلُ عليه السلامُ ، وجبريلُ هو المُوكلُ بتبليغِ الكتابِ والوحيِ ؛ ولذلك فإن في نزوله خيرًا كثيرًا لتبليغِ أحكامِ الشريعةِ وإيصالِ أحكامِ الله عز وجل.

قوله تعالى : ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ : أي : أنهم يتنزلونَ بتقديرِ المقدراتِ والكائناتِ في ذلك العامِ.

قوله سبحانه : ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ : أي : هذه الليلةُ سليمةٌ من الآفاتِ سليمةٌ من النقائصِ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ، فإذا طلع الفجر انتهت الليلةُ ، وفي هذا دلالةٌ على أن الليلَ ينتهي بطلوعِ الفجرِ ، لا بطلوعِ الشمسِ.

فوائد السورة:

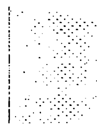
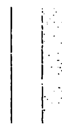
في هذه السورة من الفوائد:

١. عِظَمُ ليلةِ القدرِ وفضيلتُها واستحبابُ شَغْلِهَا بأنواعِ الطاعاتِ واستحبابُ تَحَرِّيهَا بطاعةِ الله جل وعلا.

٢. إثباتُ أن الملائكةَ وجبريلَ يصعدون وينزلون وأنه يُوكَلُ بالملائكةِ تصريفُ الكائناتِ بأمرِ الله عز وجل.

٣. أن ليلةَ القدرِ سَلِيمَةٌ من الآفاتِ والنقائصِ وأنواعِ المُكَدِّرَاتِ.

٤. أن ليلةَ القدرِ يَسْتَمِرُّ حُكْمُهَا وَفَضْلُهَا حتى طلوعِ الفجرِ، ولا ينتهي فَضْلُهَا بانصرافِ الإمامِ، وإنما يستمرُّ حتى مطلعِ الفجرِ.

تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ
حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً
﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا
مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ
أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
رَبَّهُ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ ....

موضوع السورة:

سورة البينة وتسمى سورة القيامة وسورة البلد وسورة المنفكين وسورة البرية وسورة لم يكن. واختلف هل هي مكية أم مدنية؟ وجزم ابن كثير بأنها مدنية، واستدل على ذلك بما أخرجه الإمام أحمد وغيره عَنْ أَبِي حَبَّةَ الْبَدْرِيِّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: (لَمْ يَكُنْ)، قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ هَذِهِ السُّورَةَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أُبَيُّ، إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ هَذِهِ السُّورَةَ**» فَبَكَى وَقَالَ: ذُكِرْتُ ثَمَّةَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»[1]. ولعل هذا هو الأصح.

ووجه مناسبتها لما قبلها أن قوله تعالى فيها: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كالتعليل لإنزال القرآن، كأن الله تعالى قال: إنّا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو عليهم صحفاً مطهرة، وهي ذلك القرآن المنزل.

معاني الآيات:

يقول الله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾: أهل الكتاب يُراد بهم اليهود والنصارى، وأما المشركون فهم أولئك الذين يصرفون عباداتهم لغير الله مِنْ عَبَدَةِ النار أو عبدة الأوثان

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٩، والطبراني في الكبير ٢٢/ ٣٢٧.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢﴾ ....

والأصنام أو غير ذلك من المخلوقات، يبين الله عز وجل في هذه الآيات أن هؤلاء الكفَّار لم يزالوا مُنْفَكِّين؛ أي: مستمرِّين على غَيِّهِمْ مبتعدين عن الحق ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾ قيل بأنهم إذا جاءتهم البينة تعصَّبُوا لطرائقهم فلم يستجيبوا لدعوة الحق، وقيل بأنهم لا زالوا منفكين على طريقتهم حتى إذا جاءهم الدليل الواضح انقادوا له ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾ والمراد بالبينة: الدليل الواضح الذي يقوم بتوضيح الحق وبيانه.

ثم قال موضحًا ما هذه البينة: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢﴾: في هذا ذكر نعمة من الله عز وجل على العباد بأن يكون قد أرسل إليهم رسولاً يُبْعِدُهُم من الكفر والضلالة إلى الحق والهدى، [**رسُولٌ**] هذا الرسول قد أرسله رب العزة والجلال الخالق الرازق المنعم المتفَضِّل الذي سيعود العباد إليه عما قريب فيحاسبهم على أعمالهم [**يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً**] أي: أن هذا الرسول يتلو، والتلاوة لا يستلزم أن تكون قراءة من وَرَق، فقد تكون قراءة لما في الصدور [**صُحُفًا مُّطَهَّرَةً**] أي: أن هذا القرآن قد تَعَهَّدَ الله بكتابته في الصحف، وفي هذا بيان أن هذا الكتاب العظيم سيبقى إلى قيام الساعة وعدًا من الله، ووعد الله لا يُخْلَف، وقوله: [**مُّطَهَّرَةً**] أي: أن هذه الصحف التي احتوت الآيات القرآنية ليس فيها شيء من النجاسات ولا الدَّنَس، سواء المعنويّ أو الحسّيّ، وفي هذا دلالة على وجوب تطهير كتاب الله وتقديره، وإبعاده عن أنواع النجاسات والقاذورات ومواطن الامتهان.

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ ....

ثم قال تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾: أي: هذه الصحف المطهرة فِيهَا كُتُبٌ قد كتبت فيها آيات القرآن، وقوله: [**قَيِّمَةٌ**] أي: لها مكانة ومنزلة وتجعل صاحبها له مكانة ومنزلة في الدنيا والآخرة وهي كذلك مستقيمة ليس فيها اعوجاج ولا ميل عن الحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤﴾: أي: أن الله عز وجل قد قدر أن الأمم ستفترق، ولكن افتراقها لا يكون إلا عند قيام الحجة عليها، وإعراضها عن دين الله وحجته فقال: [**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**] وفي هذا تحذير من التفرق والاختلاف، وأنه ليس من الدين في شيء، وقد أخبر النبي ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلا وَاحِدَةً وَهِيَ: الْجَمَاعَةُ**»[1]، وهذه الزيادة: «**كلها في النار**»، الصواب أنها جيدة الإسناد ثابتة عن النبي ﷺ، وليس معناه أن بقية الفرق تكون خالدة في النار، لكنها تستحق دخول النار، ومآلها وعاقبة أمْرِهَا إلى الجنة؛ لأنها من أمة محمد ﷺ أمة الإجابة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) والحاكم ٢١٨/١، والطبراني في الكبير ٣٠/١٣، من حديث الله بن عمرو رضي الله عنهما.
وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣) وأحمد ١٢٠/٣، والطبراني في الأوسط ١٣٧/٥، من حديث أنس رضي الله عنه. وروي كذلك من حديث معاوية، وعوف بن مالك، وأبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ ....

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾: فيه دلالة على أن الأمة لا يمكن أن تجتمع إلا إذا كانت على توحيدٍ وعقيدة صحيحة، بإفراد الله بالعبادة، وأما إذا أراد الناس أن يجتمعوا بدون أن يكون عندهم توحيد وإفراد لله بالعبادة، فهؤلاء لا يمكن أن يجتمعوا، وإن وُجِدُوا في مكان واحد، وظنوا أنهم مجْتَمِعُون، وأنه يعذر بعضهم بعضًا؛ لكنهم في حقيقة الأمر لم يكونوا مُعانين، ولن يكون تعاونهم تعاونًا صحيحًا، وبالتالي فإن الأمَّةَ مَتَى عادت إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة والابتعاد عن أنواع الشرك والبدع اتَّحَدُوا وأصْبَحُوا أمَّة واحدة قَوِيَّة مرهوبة الجانب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: أن الله عز وجل لم يأمرهم إلا بأمور ينتفعون بها في الدنيا والآخرة، ألا وهي عبادة الله الجالِبَة لمصلحة الدنيا والآخرة، بحيث لا يصرفون شيئًا من العبادة لغير الله تعالى.

والمراد بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: ليؤدوا الأفعال التي يرضى بها ربهم عز وجل، والفعل لا يكون عبادة إلا إذا اجتمعت فيه أركان:

الركن الأول: الذل، فيكون الإنسان ذليلاً لله عز وجل غير متكبر عن عبادته.

الركن الثاني: أن يكون ذلك خوفًا من الله وخوفًا من عقابه، فإن

....

العبد لا يكون عبدًا إلا إذا خاف من الله ؛ ولذلك أثنى الله على الذين يخافون مِنْهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وكما قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

فَدَلَّ هَذَا على أن الخوف من الله عبادة عظيمة، بل هو ركن العبادة، فعبادة بلا خوف من الله ليست عبادة صحيحة، ومن قال بأنني أعبُدُ الله محبَّة بدون خوف فهذا مُخْطِئ مبتدع مخالف لظواهر هذه النصوص.

الركن الثالث من أركان العبادة: الرَّجَاء، فإن العبد لا يعبد الله إلا ويرجو رضاه ويرجو رفعة الدرجة لديه.

الركن الرابع: المحبة، فيكون العبد محباً لربه عز وجل محبة أعظم من محبته لنفسه ووالده وولده والناس أجمعين، وشرط العبادة حتى تكون صحيحة مقبولة عند الله عز وجل شرطان:

الشرط الأول: أن تكون خالصة لله، فلا يتقرب الإنسان بشيء من العبادات لغير الله عز وجل.

الشرط الثاني: متابعة النبي ﷺ؛ إذ كل عبادة ليست على طريقة حبيبنا ونبينا محمد ﷺ فهي مردودة على صاحبها غير مقبولة عند الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أي: قد أفردوا

الطاعة لله، فلا يقدمون طاعة غير الله على طاعة الله، والدين هو الطاعة والعبادة.

وقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ﴾: أي: مائلين عن الشرك إلى التوحيد.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: يؤدوا هذه الصلوات المفروضة في أوقاتها على وفق ما أمر الله تعالى به، وهذا معنى إقامتها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الزكاة قد يُرَاد بها ذلك النصيب من المال الذي يُخْرِجُهُ الإنسان عند تَمَام الحول، وقد يُرَاد بها تطهير النفس وتزكيتها، ولكنَّ المعنى الأول هو الأقرب؛ لأنه المناسب للإيتاء.

قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾: أي: فعل هذه الأمور السابقة من إفراد الله بالعبادة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وترك التفرق والاختلاف، هذا هو دين القيمة؛ أي: هو طاعة العبد لربه التي تكون على اسْتِقَامة ومنهج صحيح.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: هذا فيه بيان أن أهل الكتاب المعاصرين الموجودين بعد بعثة النبي ﷺ كفار وليسوا بمسلمين.

قوله: ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وكذلك المشركون فلا شك في كفرهم وشركهم بالله تعالى، وقد حَكَمَ الله تعالى عليهم جميعاً بأنهم في نار جهنم، تلك الدار التي أعدها الله للمُعْرِضِين عن طاعته، وفيها من أنواع العذاب وأنواع الشقاء ما تَوَاتَرَتِ النصوص ببيانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾

ثم قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾: أي: أنهم مستمرون في نار جهنم لا يُخْرَجون منها أبدًا، ففيه دلالة على أن نار جهنم باقية أبد الآباد.

ثم قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾: أي: هؤلاء الذين كفروا بالله تعالى هم شر البرية؛ أي: شر المخلوقات، فهم شر من تلك الحيوانات المؤذية، وشر من الفئران، وشر من أنواع المخلوقات البذيئة السيئة.

ثم ذكر الله عز وجل الصنف الآخر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾: والمراد بالإيمان ذلك المعنى الذي ينتظم كل طاعة لله من أقوال وأفعال واعتقادات وعلم القلب وعمله، ثم أكد على العمل الصالح مع أنه جُزْءٌ من الإيمان؛ لأن بعض الناس قد يَتَهَاوَنُ فيه، ولأن بعضهم يقول: الإيمان في القلب، فنقول: هذا كلام خاطئ، بل الإيمان كما يكون في القلب يكون كذلك في الجوارح وعلى اللسان.

ثم قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾: أي: أنهم أفضل المخلوقات، وقيل: البرية أخذًا من برأ المخلوقات، بمعنى خلقها على هيئة ليس لها سابق وجود، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾: استدل به طائفة منهم الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه على أن صالحي بني آدم أفضل من الملائكة؛ لأنه قال عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾.

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: أي: أن الله عز وجل سيجازيهم وينيلهم بإيمانهم وعملهم الصالح ذلك الثواب العظيم تفضلاً منه سبحانه فالله عز وجل يَتَفَضَّل على المؤمنين بإدخالهم الجنة وبأنواع النعيم في الآخرة

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ ....

بسبب ما أَدَّوْهُ من الأعمال، فالعمل سبب، لكن دُخُولَ الجنة ليس على جهة المقابلة والجزاء وإنما هو تفضل من الله بسبب عمل ابن آدم.

قال سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾: الجنات في الأصل البساتين العظيمة التي فيها أشجار مُلْتَفَّة قد غطى بعضها بعض.

قال سبحانه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: أي: أنها تجري الأنهار من تحت هذه الجنات ليكون هناك منظر بديع في تلك الجنان.

ثم قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾: أي: أن المؤمنين سيبقون في الجنة أبد الآباد، فمن دخل الجنة يوم القيامة فإنه لا يُخْرَج منها أبدًا، بل يُؤْتَى بالموت فيُنْحَر بين أهل الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت.

ثم قال سبحانه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾: الرضا: صفة من صفات الله، فإن الله عز وجل قد وَصَفَ نَفْسَهُ بأنه يَرْضَى، فهذا من أفعال الله التي نثبت بها صِفَةَ الرِّضَا والله عز وجل يرضى عن المؤمنين أهل الطاعات.

ولذلك ينبغي بالعبد أن يسعى لفعل الأعمال المؤدية إلى رضا الله.

قال تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾: أي: أن المؤمنين راضون عن الله فهم يرضون في الجنة؛ لأنه قد أعقبهم العاقبة الحسنة، وأدر عليهم من الخيرات والنعم، وهم كذلك راضون في الدنيا، فإنهم راضون بالله ربًّا وراضون بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً، وراضون بدين الإسلام دينًا، وهم كذلك راضون عن أقدار الله المؤلمة؛ لأنهم يعلمون أن ما قَدَّرَه الله عليهم من أقدار، سواء

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ⑧﴾.

كانت محبوبة للنفوس أو مكروهة فإنها مِنْ صَالِحِهِمْ، ومن خيرهم، ومن هنا فهم لا يتجزعون من مرض ولا من هزيمة ولا من مكر أعداء ولا من غير ذلك، بل هم راضون بقضاء الله وقدره، ولذا قال: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ⑧﴾: أي: هذا الرضا، وجنات عدن تلك التي تجري من تحتها الأنهار تكون لمن وجد عنده خشية من الله عز وجل، والخشية أعلى درجات الخوف، فهي خوف مُقْتَرِن بمحبة وتعظيم وعلم، وقد أثنى الله تعالى على أولئك الذين يخشون من الله في مواطن كثيرة، ومن هنا ينبغي بالعبد أن يَتَّصِفَ بهذه الصفة صفة الخشية، من أجل أن يكون ذلك سببًا في حصوله على هذا النعيم.

وقوله عز وجل: ﴿رَبَّهُۥ﴾: أي: أن هذه الخشية من مصلحتك يا أيها العبد، وخوفك من ربك من الخير لك يا أيها العبد، فإنه إذا اتحد مصدر الخوف أمن القلب، بخلاف ما إذا تَعَدَّدَ مصدر الخوف، فإذا خفت من المخلوقات، وخفت من الحيوان المفترس، وخفت من صاحب السلطة والولاية، وخفت من المجرمين، حينئذ تشتت قلبك، أما إذا لم تخف من هؤلاء وعلمت بأنهم لن يتصرفوا بشيء إلا بإذن الله، وأنهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كَتَبَهُ الله لك، فإنه حينئذ تنحصر خشيتك وخوفك بالله تعالى، فتخشى الله؛ ولذلك كلما كان الإنسان أعرف بالله كان أخشى له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. أن مَنْ قَدَّرَ الله عليه الضَّلالة والشقاء فإنه لن يَتَمَكَّن أحد من هدايته، ولكن العبد المؤمن يَجِبُ عليه تبليغ هذه الرسالة لجميع من يستطيع من الناس، وأن يُوَضِّحَ لهم دين الله سبحانه وتعالى.

٢. رحمة الله بالخلق بإرسال الرسل ليكونوا دعاة خَيْرٍ وهداية وإصلاح.

٣. أن الكتاب محفوظ في هذه الصُّحُف.

٤. ذَمُّ التفرق والاختلاف.

٥. أن اجتماع الكلمة لا يكون إلا على التوحيد والسنة، وأما من أراد أن يجمع الناس على غير التوحيد فَلَنْ يَجْتَمِعُوا أبدًا.

٦. الأمر بعبادة الله وَحْدَهُ بإخلاص، وعَدَمِ صَرْفِ شيء من العبادات لغير الله عز وجل.

٧. أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وأنهما من دين الله، وظاهره أنهما ركنان من أركان الإسلام، كما ورد ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما صريحاً[١].

٨. بيان أن الكفار مصيرهم وعاقبة أمرهم أن يكونوا من أهل نار جهنم وأنهم يَسْتَمِرُّونَ فيها أبد الآباد.

---

(١) أخرجه البخاري (٨) ومسلم (١٦).

٩. أن الكفار هم شر المخلوقات، فهم شر من الفئران والجعلان، وغيرها من أنواع الحيوانات.

١٠. أن المؤمنين الذين يؤدون الأعمال الصالحة هم خير البرية، واستدل بذلك من استدل على أن صالحي بني آدم أفضل من الملائكة.

١١. في قوله سبحانه: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ دلالة على أن الجنة باقية أبدًا.

١٢. مصير الكفار ومصير أهل الإيمان والعمل الصالح، ولم يذكر مصير الفُسَّاق، وقد جاءت النصوص بأن الفساق مآلهم وآخر أمرهم إلى الجنة، وأنهم قد يُعَذَّبُون في النار قليلاً، لكنهم يُخْرَجُون منها فيوضعون في الجنة، كما تواترت النصوص بذلك عن النبي ﷺ.

١٣. وصف الله بصفة الرضا.

١٤. أن المؤمنين يَرْضَوْنَ عن ربهم ولا يَتَسَخَّطون من أقداره، ولا يجزعون مما قدر الله لهم: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[١].

١٥. فضل الخشية من الله عز وجل وعظم أجرها، وأنها من أسباب دخول الجنة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ
أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ
أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ
ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
يَرَهُۥ ﴿٨﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ ....

موضوع السورة:

سورة الزّلزلة ويقال: سورة إذا زلزلت، وهي مدنية، وقيل مكية، واستدل على أنها مدنية بما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره[1] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧ -٨] قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَرَاءٍ عَمَلِي؟ قال: «**نَعَمْ**» قُلْتُ: تِلْكَ الْكِبَارُ الْكِبَارُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قُلْتُ: الصِّغَارُ الصِّغَارُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قُلْتُ: وَاثُكْلُ أُمِّي؟ قَالَ: «**أَبْشِرْ يَا سَعِيدُ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا - يَعْنِي إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَيُضَاعِفُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَالسَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا أَوْ يَغْفِرُ اللَّهُ، وَلَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ**» قُلْتُ: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ**». وأبو سعيد لم يكن إلا بالمدينة ولم يبلغ إلا بعد أحد.

ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر عز وجل في السورة السابقة جزاء كل من المؤمنين والكافرين كان ذلك كالمحفز للسؤال عن وقت هذا الجزاء، فبين عز وجل وقته في هذه السورة بقوله: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١﴾.

معاني الآيات:

قوله عز وجل: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١﴾: أي: هُزَّت هذه الأرض وحُرِّكَتْ حَرَكات عنيفة من أصلها وأسفلها حتى وصل ذلك إلى أعلاها.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٤٥٦.

وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ ....

وقوله تعالى: ﴿زِلْزَالَهَا﴾: أي الزلزال الشديد، وانظروا إذا حصل زلزال قليل في بعض البلدان جَزعوا وتسَخَّطُوا، وخشوا على أنفسهم، فكيف بالأرض كلها إذا زلزلت زلزالاً قويًّا؟!

فإذا وقعت الزلزلة فإن كل ما على الأرض يُزَال ولا يبقى منه شيء في ذلك اليوم، فتزال هذه العمائر الكبيرة، وتزال هذه المصانع، ويزال كل ما بُنِيَ على الأرض وتزال الجبال، وتسطح الأرض.

قوله سبحانه: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾: **(الأرض)** هي هذه الكرة التي تحت أرجلنا، [**أَثْقَالَهَا**] أي: أنها نبذت ما فيها مِن الأموات وما فيها من الكنوز.

ثم قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾: أي: لما حصل عند الإنسان أمور عظيمة غيرت معالم الأرض، سأل عن سبب ذلك، مما يدل على أنهم سألوا تفسيره العلمي.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾: أي: أن الإنسان يتعجب من هذه الأرض التي كانت ساكنة مستقِرَّة في الزمان الأول، لكنها بَدَأَتْ تَهْتَزّ اهتزازًا شديدًا، وهكذا يَتَعَجَّبُ الإنسان من هذه الأرض كيف أخرجت الأموات الذين قد قُبِرُوا فيها، وكيف أخرجت الكنوز والأموال العظيمة المدخرة فيها، فلا يستطيع تفسير ذلك.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾: أي: تبين الأرض السبب الذي

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧

جعلها يرد إليها الزلزال وتُخرِج الأثقال، وتُبيِّن أن ذلك أمر كوني من رب العزة والجلال.

قال سبحانه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾: يعني أمرها أن يحدث فيها الزلزال، وأن تخرج أثقالها.

قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾: أي: في ذلك اليوم الذي تزلزل فيه الأرض يصدر الناس؛ فيأتون أشتاتًا جماعات متفرِّقين؛ لماذا؟

قال عز وجل: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾: أي: من أجل أن يريهم الله الأعمال التي عَمِلوها، فإن الأعمال في الدنيا وإن كانت أعراضًا فلا يمتنع أن يَقْلِبَها اللهُ أجْسَادًا في الآخرة، فيقال لهؤلاء: انظروا لأعمالكم، والأصل في اللفظ أن يطلق ويراد به حقيقته ولا يمتنع أن يقال بأن المراد بالآية: ليروا نتيجة أعمالهم وثواب أعمالهم، وجزاء أعمالهم.

قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾: أي: أن كُلَّ عَامِلٍ لا بد أن يَجِدَ ثَوَاب عمله ويكون الثواب من جنس العمل، فمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، والذرة بمثابة حجم النمل الصغير، والمثقال الوزن، كأن الله عز وجل يقول: من أدى عملاً صغيرًا ولو كان على وزن هذه الذَّرَّةِ، فإنه إذا أدَّاهُ من أعمال الخَيْرِ فَسَيَرَى ثواب ذلك ويُحَاسَب عليه، وقد قيل: أن هذه الآية مُخَاطَبَة للناسِ حالَ وجودهم في الدنيا؛ لأنه في الآخرة لا يُوجَدُ عَمَل، وبالتالي لا يصح أن يُعَبِّرَ عنه بالفعل المضارع [فَمَن يَعْمَلْ].

....

وقال آخرون: إن رب العزة والجلال أتى بهذا اللفظ: (يعمل) من أجل بيان أن العبد إذا أتى بمنافٍ لِعَمَلِهِ بعد ذلك مُحبِطٍ له فإنه يَسْقُطُ ثَوابُ ذلك العمل، وهذه القاعدة تلاحظونها، وهي أن الإنسان قد يُؤَدِّي أعمالاً صالحة، لكن يوجد عنده محبطات للعمل أو منقصات له، وبالتالي فإنه لا يُجزَى على عمله؛ لأنه قد أذهب ذلك العمل.

ومن أمثلة محبطات الأعمال: الردة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة: ٥] ففي هذا دليل على أن المُرْتَدَّ قد حبط عمله، ولا قِيمَةَ لِعَمَلِهِ.

وهكذا أيضًا يبطل ثواب الأعمال الصالحة بالاعتداء على الآخرين والظلم لهم، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»(١) والعياذ بالله.

وأيضًا من محبطات العمل: التألي على الله بأن يحكم الإنسان على الله بأنه سيفعل كذا أو لن يفعله بناءً على ظنِّه بدون أن يكون هناك مستند

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

شرعي، وقد ورد في الخبر أن اثنين من بَنِي إسرائيل أحدهما أخ للآخر، وكان أحدهما عابدًا، وكان الآخر قد خَلَّطَ في عمله، فلما مات المخلط في عمله قال ذلك العابد: «**وَاللهِ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»(١)، أي: أحبط عمل هذا المتكلم لهذا الكلام الذي فيه تألٍّ على الله عز وجل.

هكذا من أسباب حُبوط العمل: أن يُقَدِّمَ الإنسان بين يَدَيِ الله ورسوله، بحيث إذا جاءته آية من كتاب الله أو سنة من حديث رسول الله ﷺ قَدَّمَ عليهما غيرهما من رأْيِهِ أو استِحْسَانِهِ أو رأي غيره، فإن الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] ثم قال سبحانه: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] وهذا أمر ينبغي الالتفات إليه وإيلاؤه عناية خاصة، بحيث يحذر الإنسان من أن يرد آية من كتاب الله أو حديثًا من سنة رسوله ﷺ.

وفي هذه الآيات دلالة على أن الإنسان يُثَابُ على العَمَلِ القَليل، وأنَّ الله عادل لا يفوّت شيئًا من عمل ابن آدم إلا وسيُجَازِيه عليه، فقد وردت النصوص في أن الجزاء العظيم قد يكون على العَمَلِ القَلِيل، وقد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١) وابن حبان (٥٧١١) من حديث جندب رضي الله عنه. وكون أحدهما عابداً والآخر مخلطاً أخرجه ابن حبان (٥٧١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

قال النبي ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[1] كما في الصحيحين من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وفي هذه الآيات دلالة على أن العبد ينبغي به ألا يحقر أي: عَمَلٍ صالح ولو كان قليلاً، ولذلك قال: «**لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ جَارَتَهَا وَلَوْ فِرْسَنَ شَاةٍ**»[2] يعني لِتَتَصَدَّقْ عليها ولتُهْدِ إليها ولو كان بالشيء القليل.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هنا أَثْبَتَ أن من يعمل مثقال ذرة سيحاسب عليه، لكن ما كان أعلى من الذرة ما حكمه؟

نقول بأنه إذا جُوزِيَ على الذرة فمِنْ بَابِ أَوْلَى أن يُجَازَى على ما هو أكبر منه.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾: أي: أن العمل إذا كان خيرًا فإن صاحبه سيرى ثوابه وجزاءه، والأظهر من أقوال أهْلِ العلم أن هذا يَشْمَل أمور الدنيا، فإن مَنْ عَمِلَ خَيْرًا من أمور الدنيا، فإن الله سيقدر له الخير.

ثم قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾: أي: أن الله عادل، ومِنْ ثَمَّ فإنه سيحاسب العباد على أعمالهم ويُعْطِي كل واحد من الناس بقدر عمله

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٧) ومسلم (١٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٢٧) ومسلم (١٠٣٠) من حديث أبي خزيمة رضي الله عنه، وعند مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**». وعند أبي داود (٤٠٨٤): «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلق أخاك ووجهك منبسط إليه».

في الدنيا، وفي قوله: ﴿شَرًّا يَرَهُ﴾ ليس المراد به رؤية العين، وإنما المراد أنه سَيَجِدُهُ، وفي هذا دلالة على أن العمل القليل قد يكون سببًا من أسباب دخول نار جهنم والعياذ بالله، ولذا يَحْذَرُ الإنسان من الأعمال السيئة التي تُرْدِيهِ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. أن يوم القيامة فيه أهوال عظيمة، تتغير أحوال الناس فيه.

٢. أن الأرض تقذف بمن فيها من بني آدم يوم القيامة، هكذا تَقْذِفُ بما أودِعَ فيها وفي بطنها.

٣. أن الأرض لا تتكلم إلا إذا أذن لها الله بالكلام ولذلك قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ وأخبار الجبال ما هي؟ أن الله قد جعلها صوفًا منفوشًا.

٤. أن الناس سيفترقون فرقًا شَتّى يوم القيامة، بحسب أعمالهم.

٥. أن الله يجازي على الأعمال قليلها وكثيرها خيرها وشرها.

٦. وفيه سعة عدل الله عز وجل، ويلاحظ أن أعمال الشر قد تأتي أمور تلغي أثَرَهَا، فلا يجازى الإنسان عليها، مثال ذلك: إذا أسْلَمَ الإنسان، فإنه يُعْفَى عن عَمَلِهِ السابق، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ويقول النبي ﷺ: «**الإسلام يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ**»(١) وهكذا أيضًا التوبة فإنها تمسح أثر العمل، وهكذا أيضًا إذا كان العبد يصيبه مصائب فإنه يكفر عن ذنوبه؛ وذلك لأن النبي ﷺ قال: «**مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ ولا نَصَبٍ وَلا وَصَب حتَّى الشَّوْكة يُشَاكُهَا إلا كان كفارة**

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٠٤.

لِذُنُوبِهِ»(١)، فَدَلَّ هذا على أن العمل السوء قَدْ يُكَفِّرُه الله عن العبد بالمصائب التي تصيبه، وهناك أمور أخرى تبعد أثَرَ العَمَلِ السيئ، منها: شفاعة نبي الله ﷺ ورحمة رَبِّ العزة والجلال لِبَعْضِ عباده حيث يدخلهم ابتداءً.

هذا شيء من تفسير هذه السورة، وأسأل الله عز وجل أن يوفقنا وإياكم لخيري الدنيا والآخرة.

وقبل أن ننتهي مِنْ هَذِهِ السورة أُذكر بحديث وَرَدَ في صحيح البخاري يَتَعَلَّق بهذه الآيات؛ فإن النبي ﷺ قال: «**الخَيْلُ لِثَلاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ؛ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنَ المَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ أَرْوَاثُهَا وَآثَارُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِئَاءً وَنِوَاءً لأَهْلِ الإِسْلَامِ فَهِيَ وِزْرٌ عَلَى ذَلِكَ**». وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الحُمُرِ، فَقَالَ «**مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا إِلاَّ هَذِهِ الآيَةُ الجَامِعَةُ الْفَاذَّةُ**: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣١٨) ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٤٢) ومسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة ﵁.

تفسير سورة العاديات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾
فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٣﴾ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٤﴾
فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ
﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ
لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ
﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ
يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ① فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ② ....

موضوع السورة:

سورة العاديات مكية، وقيل: مدنية، ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر عز وجل في سورة الزلزلة قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] قال سبحانه هنا: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩] والمراد بالأثقال ما في جوفها من الأموات والكنوز.

وفي سورةِ (الْعَادِيَاتِ) يُقْسِمُ اللهُ عز وجل بعددٍ من الأمورِ على بعض صفات الإنسان، ثم يُذَكِّر سبحانه ببعض ما يحدث للإنسان يوم القيامة.

معاني الآيات:

قال سبحانه: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ①﴾: **[العاديات]**: الْجَارِيَاتُ جَرْيًا سَرِيعًا، وقوله: **[ضَبْحًا]** المرادُ به أنها تُخْرِجُ الصوتَ عِنْدَ عَدْوِهَا، وهذا يشملُ الخيلَ التي تجري بسرعةٍ وَتُخْرِجُ صوتًا عند ذلك، وهكذا يشملُ الإبلَ التي قد يَسْتَخْدِمُونَهَا في السيرِ السريعِ في بعضِ المَوَاطِنِ وَتُخْرِجُ صوتًا حين ذَاكَ، وتشملُ أيضًا هذه الآلاتِ الحديثةَ التي تُسْرِعُ في مَشْيِهَا أو في طَيَرَانِهَا وَتُخْرِجُ صوتًا عند ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ②﴾: الموريـاتُ هي الْمُشْعِلاَتُ للنارِ، و**[قَدْحًا]**: القدحُ: الشرارُ الذي يكونُ من التصاقِ أو احتكاكِ الأجسامِ بعضِها ببعضٍ، فالموريـاتُ هي المشعلاتُ للنارِ، **وَقَدْحًا** أي: الشررُ

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾

الذي يخرجُ من ذلك، وقيل: إن المرادَ به أن الخيلَ تَضْرِبُ بحوافرها الأرضَ فَيَخْرُجُ شررٌ في هذه الحالِ، واللفظُ عَامٌّ يشملُ هذه الصورةَ وغيرَها.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾: المغيراتُ هي التي تَغْزُو الْعَدُوَّ وتُغِيرُ عليه في وقتِ غَفْلَةٍ وَغِرَّةٍ، وَ[**صُبْحًا**] أي: في وقتِ الصباحِ، وقد قالوا بأن هذه الآيةَ في الخيلِ أيضًا؛ لأنها هي التي تُغِيرُ بِأَصْحَابِهَا، وقال آخرون بأنها عَامَّةٌ تشملُ الخيلَ وغيرَها من وسائلِ الحربِ التي يُغِيرُ بها أصحابُها صباحًا.

قوله سبحانه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾: أي: أن هذه الوسائلَ المُعَدَّةَ للطاعةِ والجهادِ متى أُرْسِلَتْ للجهادِ فإنها تثيرُ الغبارَ وَتُحَرِّكُهُ، هذا كما يكونُ في الخيلِ يكونُ أيضًا في هذه الآلاتِ الحديثةِ التي يقاتلُ الناسُ بها اليومَ.

قال تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾: أي: أن هذه الوسائلَ من خيلٍ وإبلٍ وغيرها تجعلُ صاحبَها يتوسطُ جَمْعَ الْعَدُوِّ فَيَخْرِقُ العدوَّ ويخرقُ صفوفَهم حتى يتوسطَ فيما بينهم فيكونَ ذلك من أسبابِ هزيمتِهم معنويًّا، كُلُّ هذه الأمورِ قَدْ أَقْسَمَ اللهُ بها، وهي في مواطنِ الشدائدِ مواطنِ حروبٍ ومعاركَ مما يَدُلُّكَ على أن المُقْسَمَ به له شأنٌ عظيمٌ، ما هو جوابُ الْقَسَمِ؟

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾: المرادُ بالإنسانِ الجنسُ بما يشملُ بني آدمَ، وقد يشملُ المُكَلَّفِينَ حتى يدخلَ فيهم الْجِنُّ.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾: أي: أن هـذا الإنسانَ جَاحِـدٌ لِنِعَم اللهِ عليه غيرُ معترفٍ بها، وغيرُ صارفٍ لِنِعَمِ اللهِ في مَرَاضِيهِ، وفي قَوْلـهُ: [لِرَبِّـهِ] بيانُ أن هذا الربَّ هو المنعمُ المتفضلُ الـذي رَزَقَ وَخَلَـقَ وَهَيَّأَ وأنعـمَ، فهـو جديرٌ بأن يُشْكَرَ، ومع ذلك فإن طبيعةَ الإنسانِ تجعلُه يَكْفُرُ نِعَمَ اللهِ تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧﴾: أي: إن الإنسانَ على كُفْرِهِ لِنِعَمِ اللهِ شهيدٌ يتكلمُ بذلك علانيةً يفتخرُ به ويجعلُـه مصـدرَ فخرٍ ورياءٍ وَسُمْعَةٍ لنفسِه، ولم يَعْلَمْ بـأن هـذا مُلْحِقٌ الضَّـرَرَ العظيمَ بـه، والله سبحانه شـهيد على ابن آدم لا يخفى عليه شيء من شأنه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾: أي: هـذا الإنسـانُ يُحِـبُّ المالَ محبةً شديدةً، فهـو يُحِبُّ المالَ لـذاتِ المالِ مما يجعلـه لا يـؤدي الحقـوق الواجبة عليه، فكان مَذْمُومًا، بخلافِ المؤمنِ فإنه إذا سَعَى لطلبِ المالِ فإنـه يطلبُه ليستعينَ به على طاعةِ رَبِّ العزةِ والجلالِ، فهو لا يَطْلُـبُ المـالَ لـذاتِ المالِ.

ثُمَّ ذَكَّرَ اللهُ العبادَ بالآخرةِ مِنْ أجلِ أن يعرفوا حقيقـةَ الـدنيا ويزهـدوا فيما لا ينفعُ منها ويستعملوها في مرضاةِ رَبِّ العـالمين بمـا يُعْلِـي درجـاتِهم في الآخرةِ فقال عز وجل: ﴿۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩﴾: أي: أفـلا يَتَفَكَّـرُ هذا الإنسانُ الذي هذه صفتُه في حالِه عما قريبٍ حينما يُبْعَثُ ما في القبورِ، و(القبورُ): مَـوَاطِنُ دَفْنِ الأمـواتِ، وبعثرتُها إِخْـرَاجُ ما فيها، حيث يجْعَلُهَا

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

تُخْرِجُ ما فيها من الأمواتِ.

قال سبحانه: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾: أي: في ذلك اليوم يُظْهَرُ ما في الضمائرِ مما تُسِرُّهُ النفوسُ وتُخْفِيهِ فيكونُ السرُّ علانيةً في ذلك اليومِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾: أي: هذا الربُّ الذي أَنْعَمَ عليهم وَتَفَضَّلَ عليهم بصنوفِ الخيراتِ فَكَفَرُوهُ وَجَحَدُوا نِعَمَهُ سيكونُ بهم يومَ القيامة خبيرًا.

والمرادُ بقوله تعالى: [بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ] أي: خَبِيرٌ بأنواعِ العقوبةِ المُنَاسِبَةِ لهم في ذلك اليومِ، وأما عِلْمُ اللهِ بالعبادِ فهو سبحانَه خبيرٌ بهم في الدنيا، خبيرٌ بهم في الآخرةِ، وَلَكِنَّ المرادَ بالآيةِ: إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ لَخَبِيرٌ يَوْمَئِذٍ، خبيرٌ بأنواعِ ما يُنَاسِبُهُمْ من أنواعِ الجزاءِ سواءً من العقوباتِ أو من أنواعِ النعيمِ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. الترغيبُ في جهادِ أعداءِ اللهِ، وَلَكِنْ لا بد أن يكونَ ذلك بالشروطِ الشرعيةِ مِنْ أن يكونَ لِلهِ لا رياءً ولا سمعةً، ومن أن يكونَ مع أَمْنِ التَّهْلُكَةِ، وَمِنْ أن يكونَ مع إمامٍ يُقَاتَلُ معه وَيُتَّقَى به.

٢. التحذيرُ من جحدِ نِعَمِ اللهِ وَكُفْرِهَا.

٣. تَرْغِيبُ الناسِ في جَعْلِ الدنيا والمالِ وسيلةً لِرِفْعَةِ الدرجةِ في الآخرةِ، وأنه ليس مَقْصُودًا لذاتِه.

٤. التذكيرُ بيومِ البعثِ والجزاءِ.

٥. إثباتُ أن العبادَ يُبْعَثُونَ من قبورِهم، وأن القبورَ تَتِمُّ بَعْثَرَتُهَا في ذلك اليومِ.

٦. أن العبادَ يُحَاسَبُونَ بما في ضمائرِهم؛ مِنْ هَمٍّ جَازِمٍ وَنِيَّةٍ عَازِمَةٍ، أما خواطرُ النفسِ فقد وَرَدَ في الحديثِ أن العبادَ لا يُؤَاخَذُونَ بها.

٧. أن الجزاءَ من جِنْسِ العملِ، وأن اللهَ جل وعلا سَيُجَازِي الناسَ على وَفْقِ أعمالِهم فهو خبيرٌ بما يناسبُ كُلَّ واحدٍ منهم من أنواعِ الجزاءِ.

تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ
﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾
وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ
مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ
﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ

موضوع السورة:

سورة القارعة مكية بلا خلاف، ومناسبتها لما قبلها ظاهرة، وقد اشتملت على بعض أهوال يوم القيامة، وتحدثت عن مصير المؤمنين الذين ثقلت موازينهم وأن لهم العيشة الراضية في الجنة، ثم عن مصير الكافرين الذين خفت موازينهم وأن منزلهم النار.

معاني الآيات:

قال سبحانه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾: [القارعةُ] اسمٌ من أسماءِ يومِ القيامةِ، سُمِّيَ بذلك لأنه يَقْرَعُ الأفئدةَ كأنه يَدُقُّهَا وَيُحَرِّكُهَا وَيُصْدِرُ لها صوتًا يُفْزِعُهَا وهو قارعةٌ للأسماعِ أيضًا عندما يُنْفَخُ في الصورِ فيكونُ ذلك مِمَّا يقرعُ السمعَ فتتأثرُ الأسماعُ به، وهذا الاسمُ (الْقَارِعَةُ) مأخوذٌ من الفعلِ قَرَعَ البابَ بِمَعْنَى ضَرَبَهُ بشدةٍ وَحَرَّكَهُ مِنْ أَجْلِ أن يَتِمَّ فَتْحُهُ مِنْ قِبَلِ مَنْ فِيهِ.

ثُمَّ أَكَّدَ اللهُ هذا الاسمَ وَلَفَتَ الأنظارَ إليه وَكَرَّرَهُ مِنْ أَجْلِ أن يعرفَ العبادُ أنه اسمٌ له شأنٌ عظيمٌ فقال: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾: يعني أن ذلك اليومَ يومٌ عظيمٌ شديدُ الهولِ وَالْمَطْلَعِ.

ثم قال سبحانه وَاصِفًا وَذَاكِرًا بعضَ ما يكونُ في يومِ القيامةِ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾: أي: في ذلك اليومِ؛ يومِ القارعةِ؛ يومِ الدِّينِ؛ يومِ الجزاءِ، يكونُ الناسُ كالفراشِ أي: مثل هذه الطيورِ الصغيرةِ

﴿ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ ....

التي تطِيرُ في السماءِ أقربُ ما تكونُ إلى البعوضِ، وهذا الْفَرَاشُ من خاصيتِه أنه يَكْثُرُ في مَوَاطِنِهِ، وأنه يتحركُ حركاتٍ غيرَ منتظمةٍ، وأنه إذا وُجِدَتِ النارُ عندَه فإنه يَقْذِفُ بنفسِه في النارِ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾: أي: المنتشرِ في الأرضِ؛ وذلك أن الناسَ في يومِ القيامةِ يأتيهم يومٌ عظيمُ الهولِ؛ وبالتالي فَهُمْ يتحركونَ حركاتٍ كثيرةً، هذا يتحركُ من ها هنا، وهذا يتحرك من هنا، مِنْ أَجْلِ أن يَسْلَمُوا من ذلك اليومِ العظيمِ يومِ القيامةِ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾: (الجبالُ) هي هذه الكائناتُ العظيمةُ التي أَرْسَى اللهُ بها الأرضَ، فيها حجارةٌ كبيرةٌ، وفيها ترابٌ كثيرٌ، وفيها أكنانٌ يَحْتَمِي الإنسانُ بها، هذه الجبالُ العظيمةُ يَجْعَلُهَا اللهُ في ذلك اليومِ بمثابةِ الْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ، فَيَجْعَلُهَا بمثابةِ الْعِهْنِ وهو الصوفُ أو القطنُ المنفوشُ أي: الذي نُفِشَ وَحُرِّكَ، فإذا نُفِشَ الصوفُ فإنه يتلاشى ويتذبذبُ ويتقطعُ.

ثم لَمَّا ذَكَرَ اللهُ مصيرَ الكائناتِ في ذلك اليومِ ذَكَرَ مصيرَ ابنِ آدمَ، ماذا بشأنِ ابنِ آدمَ: هَلْ هُوَ مُنَعَّمٌ أو معذبٌ؟ هُمْ قِسْمَانِ.

قال الله تعالى عن القسمُ الأولُ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾: قوله: [**مَوَٰزِينُهُۥ**] أي: رَجَحَتْ حسناتُه بسيئاتِه، وفي هذا دلالةٌ على إثباتِ الميزانِ في يومِ القيامةِ، واللهُ تعالى في يومِ القيامةِ يَزِنُ الأعمالَ التي عَمِلَهَا الناسُ،

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ ....

ولا يمتنعُ أن يُحَوِّلَ اللهُ العملَ الذي هو عَرَضٌ إلى أَمْرٍ حِسِّيٍّ يُوزَنُ، فاللهُ قادرٌ على ذلك لا يعجزُه شيءٌ من هذا.

ومما يُوزَنُ أيضًا في يومِ القيامةِ الصحائفُ التي تُسَجَّلُ فيها الأعمالُ، ومما يُوزَنُ أيضًا يومَ القيامةِ ابنُ آدمَ الذي عَمِلَ العملَ، وقد وَرَدَ في ذلك نصوصٌ كثيرةٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦﴾: فيه دلالةٌ على أن العبرةَ في يومِ القيامةِ بالأعمالِ وَنِيَّاتِهَا، وأن الْحَسَبَ والمالَ والمكانةَ والوظيفةَ والمنزلةَ ليس عليها المُعَوَّلُ في ذلك اليومِ، إنما المُعَوَّلُ على الحسناتِ.

قال سبحانه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾: أي: أنه يَرْضَى عن الحياةِ التي سَيَعِيشُهَا في يومِ القيامةِ وَسَيَرْضَى اللهُ جل وعلا عنه.

ثم ذكر اللهُ تعالى القسم الثانيَ فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨﴾: أي: من رَجَحَتْ سيئاتُه على حسناتِه، والمرادُ بهؤلاء الكفارُ الخارجون من دِينِ الإسلامِ؛ لأن المؤمنَ معه حسنةُ الإيمانِ، وحسنةُ لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ وهي عظيمةُ الشأنِ ثقيلةٌ في الميزانِ.

قال تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾: الأُمُّ المرادُ بها أَصْلُ الدماغِ؛ ولذلك يقال: أُمُّ الإنسانِ أصلُ دماغِه، ومن هنا قيل في الجروحِ التي تكونُ في الرأسِ مَأْمُومَةٌ؛ لأنها تصلُ إلى أُمِّ الدماغِ، وقوله: **[هَاوِيَةٌ]** أي: سَاقِطَةٌ على وَجْهِهَا في نارِ جهنمَ، وقيل بأن المرادَ بهذه الآية: أُمَّهُ التي وَلَدَتْهُ؛

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾.

وذلك لأن الأُمَّ إذا عَلِمَتْ بأن ابنَها قد كان من جَثَا جَهَنَّمَ وسقطَ فيها فإنها حينئذٍ تَتَوَجَّعُ، وقيل بأن هذا على سبيلِ المجازِ؛ وذلك لأن العربَ تُطْلِقُ هذا اللفظَ وتريدُ به ذاتَ الإنسانِ تقول: لا أُمَّ لكَ، ولا يريدونَ الأُمَّ وإنما يُكَنُّونَ بهذا اللفظِ عن المقابلِ لهم، وقيل: المراد أنه يلازم الهاوية في نار جهنم كما تلازم الأم أبناءها.

قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠﴾: يعني ما الذي عَرَّفَكَ بصفاتِ هذه الهاويةِ التي يَسْقُطُونَ فيها، وفي هذا تنبيهٌ للنفوسِ بِعِظَمِ ذلك اليومِ يومِ الجزاءِ والتحذيرِ من نارِ جهنمَ والعياذُ بِاللهِ..

قال تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾: أي: أن هذا المَوْطِنَ الذي يَهْوُونَ فيه نارٌ حاميةٌ أي: موقدةٌ إِيقَادًا قَوِيًّا، ومثلُ هذه يحترقُ مَنْ وَقَعَ فيها.

وقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾: أي: شديدةُ الاحتماءِ فهي حَارَّةٌ شديدةٌ، وقد وَرَدَ في الحديثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣).

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. التنبيهُ على استحضارِ الآخرةِ في كُلِّ حِينٍ، وأنك يا أيها العبدُ ستنتقلُ من هذه الدارِ الدنيا إلى الآخرةِ لا مَحَالَةَ.

٢. تَعْدَادُ أحوالِ الناسِ والجبالِ في يومِ القيامةِ.

٣. تقسيمُ الناسِ إلى أهلِ النعيمِ وأهلِ الشقاءِ.

٤. أن العبرةَ بالموازين زِنَةُ الأعمالِ التي يُؤَدِّيهَا الإنسانُ.

٥. أَنَّ مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه فهو من أهلِ الْجَنَّةِ يَرْضَى عنه رَبُّهُ ويرضى عن رَبِّهِ، وَأَنَّ مَنْ كَانَ كذلك فإنه يُسَاقُ له الخيرُ والطعامُ في كُلِّ وقتٍ يَشْتَهِيهِ.

٦. أن نارَ جهنمَ مستمرةٌ أَبَدَ الآبَادِ وأن المشركين يَبْقَوْنَ فيها ولا يُخْرَجُونَ منها.

والله تعالى أعلم.

تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ
الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾
ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ ....

موضوع السورة:

سورة التكاثر سورة مكية، وقد رجح بعضهم أنها مدنية؛ لأنها تتحدث عن عذاب القبر وعذاب القبر لم يذكر إلا في المدينة كما في قصة اليهودية.

وتتحدث السورة عن انشغال الناس بمغريات الحياة وجمعهم لحطام الدنيا حتى يباغتهم الموت فجأة، فيُسألون عن النعيم الذي انشغلوا به في الدنيا وتنعموا به.

معاني الآيات:

قوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾: يُخْبِرُ اللهُ عز وجل عن حالِ العبادِ توبيخا لهم بأنهم يَشْتَغِلُونَ بالتكاثرِ، أي: كُلٌّ منهم يُعَدِّدُ ما أعطاه الله من النِّعَمِ وَيَنْسِبُ ذلك لنفسه على جهةِ التفاخرِ والتكاثرِ، فهذا التفاخرُ أَلْهَى الناسَ عن معرفةِ الغايةِ التي خُلِقُوا من أَجْلِهَا وعن العمل بها، وعن الاستعداد للآخرة.

فقوله: [**أَلْهَاكُمُ**] أي: أَشْغَلَكُمْ وَأَبْعَدَكُمْ عن الغايةِ التي خُلِقْتُمْ من أَجْلِهَا هذا [**التكاثرُ**] أي: جَلْبُ الأموالِ والخيراتِ لأنفسكم بحيث يشتغلُ الإنسانُ بِالتَّكَسُّبِ عن القيامِ بالواجباتِ الشرعيةِ أو يشتغلُ بالتفاخرِ، فيقولُ لغيره: عِنْدِي مِنَ النِّعَمِ كذا وكذا، وعندي من الأموالِ كذا وكذا، فهذا التكاثرُ والتفاخرُ يَشْغَلُ الناسَ عن القيامِ بحقوقِ اللهِ جل وعلا وعن

الإتيانِ بالواجباتِ الشرعيةِ، وسواء كان تكاثراً بالأموال أو الأولاد أو المناصب أو الخدم أو غيرها مما يتفاخر الناس به وبكثرته.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾: أي: أَنَّكُمْ اسْتَمْرَرْتُمْ على حالةِ اللهوِ في تكاثركم بِنِعَمِ الله حتى وَصَلْتُمْ إلى مرحلةِ الموتِ التي قُبِرْتُم بَعْدَهَا، وقال آخرون بأن هذه الآياتِ نَزَلَتْ في بعضِ قبائلِ العربِ بدءوا يُعَدِّدُونَ أفرادَهم؛ إِذْ إن كُلَّ قبيلةٍ تقول: أفرادُ قبيلتِنا أكثرُ من أفرادِ قبيلتكم، وقبيلتُنا أكثرُ عَدَدًا من قبيلتكم فأصبحوا يُعَدِّدُونَ الأحياءَ، فلما تَسَاوَوْا في عددِ الأحياءِ انتقلوا إلى عَدِّ الأمواتِ فَبَدَءُوا يُعَدِّدُونَ الأمواتِ ليعرفوا أي: القبيلتين أكثر[١].

ولا يمتنعُ أن يكونَ السببُ لنزولِ هذه الآياتِ هذه الواقعةَ، لَكِنَّ لَفْظَهَا عَامٌّ؛ إِذِ العبرةُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ، فالمقصودُ أن المرادَ بهذه الآياتِ أن الناسَ اشْتَغَلُوا عن القيامِ بالغايةِ التي خُلِقُوا من أَجْلِهَا بهذا التكاثرِ مِنْ جَمْعِ الأموالِ بحيث يكونُ هَمُّ الإنسانِ الدنيا، ولا يلتفتُ إلى الآخرةِ أو بالتفاخرِ والترفعِ على الآخرين بحسبِ النِّعَمِ التي وَصَلَتْ إليهم، بحيث يفتخرُ الإنسانُ بكثرةِ مالِه وَيَتَرَفَّعُ على الآخَرِينَ بهذا فيكونُ مُلْهِيًا له عن الاشتغالِ بطاعةِ اللهِ عز وجل.

وقوله سبحانه: ﴿زُرْتُمُ﴾: سماها زيارة لأن البقاء في المقابر قليل يشبه الزيارة.

---

(١) انظر صحيح البخاري (٥٦٦٢).

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ ....

قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾: (كَلَّا) كَلِمَةُ زجرٍ، أي: يَزْجُرُهُمْ عن هذا اللهوِ الذي سَارُوا عليه ثم يُبَيِّنُ أنهم سَيَعْلَمُونَ أنهم كانوا على خطأٍ في كَوْنِهِمْ قد لُهوا بما يتكاثرون به في الدنيا وَتَرَكُوا الغايةَ التي خُلِقُوا مِنْ أَجْلِهَا، وسوف تعلمون أنكم كنتم على خطأٍ في تكاثرِكم بأمورِ دنياكم مع غَفْلَتِكُمْ عن أمورِ آخِرَتِكُمْ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾: تأكيدٌ لهذا الزجرِ وبيانٌ أنهم سَيَعْلَمُونَ عَمَّا قريبٍ حقيقةَ حَالِهِمْ وأنهم على خطأٍ، وأنهم قد أَخْطَئُوا الطريقَ بكونهم قد لهوا عما خُلِقُوا له بهذا التكاثرِ.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾: المرادُ باليقينِ: الْعِلْمُ الجازمُ الذي لا يَرِدُ عليه شَكٌّ من الشكوكِ ويكونُ مطابقًا للواقعِ مَبْنِيًّا على دليلٍ، فلو كان عندَ الإنسانِ إدراكٌ لا يَجْزِمُ به وإنما يَظُنُّهُ فهذا لا يُسَمَّى يَقِينًا، ولو كان عندَه جَزْمٌ لكنه لم يَسْتَنِدْ فيه على دليلٍ فهذا لا يُعْتَبَرُ يقينًا، وهكذا لو كان عندَ الإنسانِ جَزْمٌ بناءً على دليلٍ لَكِنْ تَرِدُ إليه الشكوكُ فهذا لا يُعْتَبَرُ يقينًا، إِذَنْ اليقينُ ما جَمَعَ إدراكًا جازمًا مَبْنِيًّا على دليلٍ لا يُخَالِطُهُ شَكٌّ من الشكوكِ.

واليقينُ يتنوعُ إلى مراتبَ متعددةٍ، أَشْهَرُهَا ثلاثُ مَرَاتِبَ: عِلْمُ اليقينِ، وَعَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ اليقينِ.

أما المرادُ بعلمِ اليقينِ: فجزمُ الإنسانِ بشيءٍ بناءً على خبرٍ، فإذا أخبرَ

....

أناسٌ كثيرٌ بخبرٍ فاستفادَ الإنسانُ من هذا الخبرِ المتواترِ الجزمَ، فهذا يقالُ له: (عِلْمُ اليقينِ)، كما نعلمُ الآنَ أن هناك بَلَدًا عَظِيمًا يقال له: (الصينُ) مع أننا لم نذهب إليها ولم نُشَاهِدْهَا، مِنْ أَيْنَ أَخَذْنَا جَزْمَنَا هَذَا؟ بهذه الأخبارِ المتواترةِ، فهذا يُسَمَّى عِلْمَ اليقينِ.

وأما النوعُ الثاني فهو عَيْنُ اليقينِ: أن يكونَ قد شاهدَ الإنسانُ بِعَيْنَيْهِ هذا الأمرَ الجازمَ الذي يَتَيَقَّنُهُ، مثالُ ذلك: أنا أُشَاهِدُكُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَنِي فعندنا علمُ يقينٍ بوجودِنا بَعْضِنَا أمامَ بعضٍ، فهذا يُسَمَّى عينَ اليقينِ، ومثلُه ما لو مَرَّ على بلدِ الصينِ من الجوِّ بدونِ أن يَنْزِلَ فيه فَتَيَقَّنَ أن تحتَه هذا البلدَ الْمُسَمَّى بالصينِ.

وأما حَقُّ اليقينِ: أَنْ يستشعرَ الإنسانُ هذا الخبرَ الْمُتَيَقَّنَ بواسطةِ حواسِّه كُلِّهَا، مثالُ ذلك: أَمَامَكَ أكمةُ جَبَلٍ، فجاءك عشراتٌ يُخْبِرُونَكَ أن وراءَ هذه الأكمةِ بَحْرًا فحينئذ عندك علمُ يقينٍ بوجودِ البحرِ خَلْفَ هذه الأكمةِ، وإذا صعدتَ الأكمةَ فشاهدتَ البحرَ بِعَيْنَيْكَ وتأكدتَ من ذلك أصبحَ عندك عَيْنَ اليقينِ، فإذا ذهبتَ إلى البحرِ فسبحتَ فيه أصبحَ عندكَ حَقَّ اليقينِ، وقد ذَكَرَ اللهُ جل وعلا في هذه السورةِ (سورةِ التكاثرِ) عِلْمَ اليقينِ وَعَيْنَ اليقينِ، وَذَكَرَ حَقَّ اليقينِ في سورةِ (الواقعة) وغيرِها.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝﴾: [كلاَّ] كلمةُ زجرٍ وردعٍ **[لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ]** أي: لو كان عندكم يقينٌ بالجنةِ والنارِ لَمَا اشتغلتم

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ ....

بهذا اللهوِ وهذا العبثِ الذي تفعلونَه، هذه الأوقاتُ التي تبذلونها في جَمْعِ ما لا ينفعكم، أو في فِعْلِ ما لا يُفِيدُكُمْ في الآخرةِ لو كنتُم تعلمونَ عِلْمَ اليقينِ لَمَا فعلتُم ذلك ولا اسْتَعْمَلْتُمْ أوقاتكم كُلَّهَا في طاعةِ اللهِ وفي الغايةِ التي خُلِقْتُمْ مِنْ أَجْلِهَا.

قال سبحانه: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾: أي: لكان علمُكم اليقينيُّ بالجنةِ والنارِ يجعلُكم تجزمونَ بوجودِ النارِ فتهربونَ منها وتَسْعَوْنَ إلى الدخولِ إلى الجنةِ، ولا يَشْغَلُكُمُ اللهوُ والعبثُ ولا يكونُ عندكم هذا التكاثرِ.

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ أي: في يومِ القيامةِ ستشاهدون النارَ عينَ اليقينِ بأعينكم فتتأكدون منها؛ وذلك أنه ما مِنْ أَحَدٍ من الناسِ إلا وسيشاهدُ نارَ جهنمَ في يومِ القيامةِ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧٢] فالناسُ يومَ القيامةِ يُعْرَضُونَ على النارِ حيث يُنْصَبُ الجسرُ على ظَهْرَانَيْ جهنمَ أَحَدّ من السيفِ وَأَدَقّ من الشعرةِ وأروغ من الثعلبِ فيأتي الناسُ فيمرون من فوقِ هذا الجسرِ، فبعضُهم يَمُرُّ كالبرقِ وكرؤيةِ البصرِ وبعضُهم يَمُرُّ كالرعدِ وبعضُهم كأجاويدِ الخيلِ وبعضُهم يَمُرُّ مَرًّا بطيئًا يَخْشَى من السقوطِ مرارًا عديدةً، وبعضُهم يُكَرْدَسُ في نارِ جهنمَ والعياذُ بالله، في هذا الموقفِ الجميعُ سيشاهدونَ النارَ عينَ اليقينِ بعدَ أن كانوا في الدنيا يعلمون بها.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾: أي: في يومِ القيامةِ سَيُوقَفُ كُلُّ واحدٍ منكم فيُسأل عن نِعَمِ الله التي أَنْعَمَ عليه بها، هَلْ صَرَفَهَا في طاعةِ اللهِ، هَلِ اسْتَعْمَلَهَا فيما يرضِي اللهِ، يُوقَفُ كُلّ واحدٍ منكم على بمفرده، فيُسأل: عَيْنَاكَ هذه أنعمَ اللهُ بها عليكَ هل شكرتَ اللهَ بها؟ ماذا فعلتَ بها؟ أُذُنَاكَ التي أنعمَ اللهُ عليكَ وَجَعَلَكَ تسمعُ بها ماذا فعلتَ فيها؟ هل شكرتَ الله عليها أو أنكَ استعملتَها في معاصي اللهِ؟ كل نعمة أنعم الله عليك بها ومنحك إياها من مال وولد وزوجة ومنزل ... إلخ هذه النعم التي لا تحصى، سوف تسأل بشأنها.

يقول النبي ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَلاَ يَرَى إِلا النَّارَ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[1].

أسأل الله عز وجل أن يَقِيَنَا شَرَّ نَارِ جهنمَ.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٠٥).ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. أن المؤمنَ العاقلَ لا يشتغلُ باللهوِ، وإنما يشتغلُ بما ينفعُه في الآخرةِ.

٢. أن التفاخرَ بِنِعَمِ اللهِ وَتَرَفُّعَ بعضِ الناسِ على بعضِهم الآخَرِ بسببِ ما أُوتُوا من النعمِ هذا من الأمورِ المذمومةِ، وقد ورد في الحديثِ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[1].

٣. ذَمُّ أولئك الذين يَكُونُ أَكْبَرُ هَمِّهِمْ جمعَ الدنيا لذاتِ الدنيا، فَهُمْ لا يجمعونها لِيَسْتَعِينُوا بها على أَمْرِ الآخرةِ، وإنما يجمعونها مِنْ أَجْلِ أمورِ الدنيا المجردةِ.

٤. الوعظُ بالموتِ وبيانُ أن الناسَ كُلَّهُمْ سَيَمُوتُونَ؛ وبالتالي فإن العاقلَ مَنْ يُقَدِّمُ بين يَدَيْ مَوْتِهِ عَمَلاً صَالِحًا مِنْ إِحْسَانٍ في عبادةِ اللهِ، وإحسانٍ إلى عبادِ اللهِ بحيثُ ينفعُه ذلك العملُ بعد موتِه.

٥. أَمْرُ الناسِ بأن يَسْتَحْضِرُوا عقوبةَ جهنمَ، وأن يَخْشَوْا منها؛ فإن العبدَ المؤمنَ يَجْزِمُ بتلك النارِ ويجزم بوجودها، ويعلمُ أن بعضَ عبادِ الله سَيُكَرْدَسُ فيها؛ ولذلك لاَ بُدَّ من الجزمِ بها والحذرِ منها، والوعظِ بالتخويفِ منها.

٦. التذكيرُ بنعمِ اللهِ عز وجل وأن العبادَ سَيُسْأَلُونَ عن النعمِ التي أَنْعَمَ اللهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار ﷺ.

بها عليهم، من أين اكتسبوها؟ وهل صَرَفُوهَا في طاعةِ اللهِ أو صَرَفُوهَا في معصيةِ الله؟ جاء في الحديثِ أن عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ ﷺ أصابَه الجوعُ في عهدِ النبوةِ، فَخَرَجَ من بيتِه يريدُ أن يَسُدَّ جَوْعَتَهُ، فَلَقِيَ أبا بكرٍ فقال: مَا أَخْرَجَنِي إِلاَّ الْجُوعُ، فقال أبو بكر: وَمَا أَخْرَجَنِي إِلاَّ ذَاكَ، فَلَقِيَا النبيَّ ﷺ فقال: «**مَا أَخْرَجَكُمَا؟**» قالا: أَخْرَجَنَا الجوعُ، قَالَ: «**وَأَنَا كَذَلِكَ مَا أَخْرَجَنِي إِلاَّ الْجُوعُ**» ثم إن النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمرَ ذَهَبوا إلى رجلٍ من الأنصارِ فَطَلَبوا منه أن يُضَيِّفَهُمْ فَضَيَّفَهُمْ وَذَبَحَ لهم عناقًا صغيرًا فَأَكَلُوهُ، فلما فَرَغُوا من أَكْلِهِ قال النبي ﷺ: «**لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ**»[1].

فَكُلّ أَكْلٍ تَأْكُلُهُ يا أيها المؤمنُ سَتُسْأَلُ عنه وَسَيَسْأَلُكَ اللهُ عن ذلك الأكلِ: هَلِ اسْتَعَنْتَ به على طاعتِه أو اسْتَعَنْتَ به على معصيتِه أو أَكَلْتَهُ لَهْوًا وَعَبَثًا وَلَمْ تُراعِ حَقَّ اللهِ فيه، فإذا كان أولئك الْجَوْعَى لَما أَكَلُوا ذلك الأكلَ وهم جماعةٌ أصحاب الفضل والخير، أخبرَ النبيُّ ﷺ أنهم سَيُسْأَلُونَ عنه فَأَنْتُمْ ما حالُكم وما أَمْرُكُمْ، سَتُسْأَلُونَ وَاللهِ عن هذه المَآكِلِ التي أَكَلْتُمُوهَا وَعَنِ المَشَارِبِ التي شَرِبْتُمُوهَا، هل تَأَدَّبْتُمْ فيها بآدابِ الشريعةِ، وهل تَقَوَّيْتُمْ بها على طاعةِ اللهِ أو على معصيتِه.

أسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته

والله تعالى أعلم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ②﴾ ....

موضوع السورة:

سورة العصر سورة مكية، وقيل: مدنية. وهي على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت فقد روي عن الشافعي عليه الرحمة أنه قال: لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس[1].

وفي السورة إشارة إلى حال من لم يلهه التكاثر من زخارف الحياة، ومظاهر العيش التي يتنافس فيها الناس، ويحرصون عليها؛ ولذا وضعت بعد سورته، وقد بينت أن الطريق الوحيد الذي لا خسارة فيه البتة هو طريق الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر على الطاعة وعلى مصائب الدنيا.

معاني الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ①﴾: يُقسِمُ اللهُ عز وجل بالعصرِ، والمرادُ بالعصرِ الزمانُ، وفي هذا تنبيهٌ إلى شَرَفِ الزمانِ وتنبيهٌ إلى استغلالِ الأوقاتِ بما يَنْفَعُ في الدنيا والآخرةِ، وأما آخِرُ النهارِ فإنه وإن سُمِّيَ بهذا الاسمِ (العصر) إلا أن الأظهرَ أن المرادَ بالآيةِ جميعُ الزمانِ يقال: فلانٌ عَاصَرَ فُلانًا أي: شَارَكَهُ في جميعِ الزمانِ.

---

(١) قال في مجمع الفتاوي ١٥٢/٢٨: وروى عن الشافعي رضى الله عنه أنه قال: لو فكر الناس كلهم في سورة (والعصر) لكفتهم. وذكر النووي في مقدمة المجموع نحواً من ذلك.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

وأما المُقْسَمُ عليه فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾: الإنسانُ مُفْرَدٌ مُعرَّفٌ بأل الجنسيةِ، فيفيدُ العمومَ فيشملُ جميعَ أفرادِ الإنسانِ من جميعِ بَنِي آدمَ، وهكذا أيضًا يشملُ الجنَّ على الصحيحِ، وقوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾: أي: في خَسَارَةٍ فهو ليس برابحٍ، وليس بفائزٍ، وليس من النَّاجِينَ إلا مَنِ اسْتَثْنَاهُ اللهُ بأن وُجِدَتْ فيه الصفاتُ الأربعُ التي ذَكَرَهَا اللهُ بعد ذلك، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾: أي: أَنَّ مَنِ اتَّصَفَ بهذه الصفاتِ الأربعِ فليس من الْخَاسِرِينَ بل هو من الْفَائِزِينَ النَّاجِحِينَ.

أما هذه الصفاتُ فَأَوَّلُهَا: الإيمانُ، والإيمانُ يشملُ كُلَّ طاعةٍ يتقربُ بها إلى اللهِ من أقوالِ اللسانِ وأفعالِ الجوارحِ واعتقاداتِ القلوبِ، ولا يصحُّ قَصْرُ لَفْظِ الإيمانِ على ما في القلبِ فقط؛ فإن لفظَ الإيمانِ مصطلحٌ شرعيٌّ، والشرعُ لم يُخَصِّصْ لفظَ الإيمانِ بالمعتقداتِ فقط قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]: أي: صلاتَكم، فَسَمَّى الصلاةَ التي هي فِعْلٌ إيمانًا، ويدلُّ على ذلك نصوصٌ كثيرةٌ في الكتابِ وهكذا في السنةِ يقول النبيُّ ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(١). فَأَدْخَلَ القولَ في الإيمان، وَأَدْخَلَ الفعلَ في الإيمان، وَأَدْخَلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

عملَ القلبِ في مُسَمَّى الإيمانِ ؛ مِمَّا يَدُلُّ على أنه لا يَصِحُّ أن نُخَصِّصَ لفظَ الإيمانِ بمعتقداتِ القلوبِ.

فَإِنْ قال قائلٌ: إن الله عز وجل قد عَطَفَ على الإيمانِ العملَ الصالحَ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: والأصلُ في الواوِ أنها تَقْتَضِي المغايرةَ، وهذا يَدُلُّنَا على أن الإيمانَ لا يشملُ العملَ الصالحَ.

أقول: إن قال قائل هذا القولَ فنقولُ له: الواوُ للعطفِ، والعطفُ يَقْتَضِي عدمَ المطابقةِ؛ فالإيمانُ ليس هو العملَ الصالحَ لَكِنَّ العملَ الصالحَ جزءٌ من الإيمانِ، ولا يمتنعُ أن نَعْطِفَ الخاصَّ على العامِّ كما وَرَدَ ذلك في نصوصٍ كثيرةٍ قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ [الرحمن: ٦٨] والرمانُ جزءٌ من الفاكهةِ، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾: وجبريلُ وميكالُ مِنَ الملائكةِ، وقد عَطَفَهُمَا على قولِه: (وَمَلَائِكَتِهِ) فَدَلَّ هذا على أنه لا يَمْتَنِعُ أن يُعْطَفَ الخاصُّ على العامِّ، وَيَدُلُّ على ذلك هذه الآيةُ في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ حيث عُطِفَتْ على: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والتواصي بالحقِّ نوعٌ من أنواعِ عملِ الصالحاتِ، وهكذا أيضًا عَطَفَ بعدَه قولَه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ والتَّوَاصِي بالصبرِ جزءٌ من أجزاءِ التواصِي بالحقِّ.

والصفة الثانية من الصفات التي يحصل بها الفوز قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: أن الإنسانَ الفائزَ قد اهْتَمَّ بالعملِ الصالحِ فَأَدَّاهُ فَنَجَا به، والعملُ الصالحُ هو الذي يَنْتَظِمُ فيه أَمْرَانِ:

....

الأولُ: أن يكون خالصًا لله عز وجل لا يُرَادُ به رياء ولا يُرَادُ به التقرب لأحدٍ من الْخَلْقِ.

الثاني: أن يكونَ صوابًا على وَفْقِ ما جَاءَ به رسولُ اللهِ ﷺ أما إذا كان العملُ ليس على وَفْقِ ما جَاءَ عن النبيِّ ﷺ فإنه يكونُ عملاً مَرْدُودًا غيرَ مقبولٍ عند الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١] وكما قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

الصفةَ الثالثةَ من صفاتِ هؤلاء الناجين الفائزين هي قوله عز وجل: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾: والحقُّ هو الصوابُ الْمُطَابِقُ لواقعِ الأمرِ، والحقُّ قد يكونُ في الأخبارِ والاعتقاداتِ، وقد يكونُ في الأعمالِ، وقوله: [**وَتَوَاصَوْا**] أي: وَصَّى بعضُهم بعضًا بأن يَحُثَّ بعضُهم البعضَ الآخرَ على أداءِ الخيرِ والعملِ الصالحِ والاعتقاداتِ والأخلاقِ الفاضلةِ، وفي هذه الآية الترغيبُ في الدعوةِ إلى اللهِ، وَحَثُّ الناسِ على الالتزامِ بشريعةِ اللهِ.

الصفة الرابعة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾: أي: أَوْصَى بعضُهم بَعْضًا وَحَثَّ بعضُهم بعضًا بالصبرِ، والصبرُ يُرَادُ به حَبْسُ النفسِ عَمَّا لا يليقُ، ويشملُ هذا الصبرَ عن مَعَاصِي اللهِ بحيثُ لا يُقْدِمُ العبدُ عليها، والصبرَ في فِعْلِ الواجباتِ بحيث لا يَتْرُكُهَا العبدُ، والصبرَ على

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) وأحمد ١٤٦/٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

المصائبِ والأقدارِ غيرِ المرغوبِ فيها بألا يَجْزَعَ العبدُ منها أو يتسخطَ منها.

وقول الإمام الشافعيِّ رحمه الله تعالى: (لَوْ لَمْ ينزل على الناسِ إلا هذه السورةُ لَكَفَتْهُمْ) أي: لكانت الحجةُ قائمةً عليهم بهذه السورةِ؛ لأنها جَمَعَتْ أبوابَ الخيرِ؛ الإيمانَ والعملَ الصالحَ والتواصيَ بالحقِّ والدعوةَ إلى اللهِ والتواصيَ بالصبرِ.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾: دلالةٌ على أنه ما من دَاعٍ يدعو إلى اللهِ إلا وَيُصِيبُهُ بعضُ الأَذَى؛ ولذلك جاءت الآيةُ بالترغيبِ في التواصِي بالصبرِ.

فوائد السورة:

في هذه الآيات من الفوائدِ:

١. أن العبدَ خاسر إذا لم يَقُمْ بهذه الأمورِ الأربعةِ، بل وأنه مِنْ أَهْلِ نارِ جهنمَ، نسألُ اللهَ أن يعصمَنا وإياكم منها.

٢. الترغيبُ في إظهارِ الأعمالِ الصالحةِ وإبرازِها لتكونَ شعارًا عِنْدَ المؤمنين.

٣. الحثّ على الدعوةِ إلى اللهِ وترغيبُ الناسِ في أداءِ الواجباتِ الشرعيةِ.

٤. الحثّ على التَّخَلّقِ بالصبرِ.

تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ
عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ ....

موضوع السورة:

سورةَ الهمزةِ سورة مكية، تتحدث عن بعض الصفات المذمومة التي توجب لصاحبها النار، وتعرضت لذكر اسم هذه النار وبعض خصائصها.

معاني الآيات:

قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾: [**وَيْلٌ**]: كلمةُ عذابٍ كأن اللهَ يتوعدُ أولئك الذين يَتَّصِفُونَ بهذه الصفاتِ بالعقوبةِ الشنيعةِ والعاقبةِ السيئةِ.

و[**الهمزةُ**]: التَّنَقُّصُ من الآخرين بواسطةِ الإشارةِ ونحوِها، ويدخلُ فيه الاستهزاءُ بأنواعِه.

وَ [**اللُّمَـزَةُ**]: عَيْبُ الآخَرِينَ والقدحُ فيهم، وَلَمْزُهُمْ واستنقاصُ مكانتِهم ومنزلتِهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾: أي: أنه حَرِصَ على أن يكونَ عنده مالٌ كثيرٌ، [**وَعَدَّدَهُ**] أي: جعلَه كثيرًا وَأَحْصَاهُ وَجَعَلَهُ أنواعًا مختلفةً لِكُلِّ نوعٍ منها كفايةٌ في بابِه.

قال عز وجل: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾: أي: يعتقدُ اعتقادًا خاطِئًا وَيَظُنُّ ظَنًّا فَاسِدًا أنه لَمَّا جَمَعَ هذا المالَ بأنواعِه المختلفةِ فإنه سَيُخَلَّدُ في الدنيا ولن يأتيَه الموتُ أبدًا، ولن ينقلبَ إلى الدارِ الآخرةِ فَيُحَاسَبُ على أعمالِه؛ ولذلك جمع بين تَنَقُّصِ الخلقِ، وبين مَنْعِ استعمالِ المالِ في طاعةِ اللهِ.

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧﴾ ....

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤﴾: كَلاَّ: كَلِمَةُ زجرٍ وَرَدْعٍ؛ لأنه قد أَقْدَمَ على هذا الفعلِ الشنيعِ ما بَيْنَ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ وما بين اعتقادِ أن المالَ قد خَلَّدَهُ.

وقوله تعالى: ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾: أي: لَيُطْرَحَنَّ وَلَيُلْقَيَنَّ فِي الحطمةِ، المرادُ بالْحُطَمَةِ النارُ نارُ جهنمَ، سُمِّيَتْ بذلك لأنه يَحْطِمُ بعضُها بَعْضًا وَيَدُقُّ بعضُها بعضًا.

وقوله سبحانه: ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾: يَحْتَمِلُ أن المرادَ بها هذا الشخصُ الذي لَمَزَ وَهَمَزَ وَجَمَعَ المالَ وَظَنَّ أنه سَيُخَلِّدُهُ، وأيضًا يدخلُ فيها ذاتُ المالِ، فهذا المالُ وصاحبُه في الحطمةِ.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥﴾: هذا سؤالٌ تقريريٌّ من أجلِ لَفْتِ الأنظارِ وَجَعْلِ النفوسِ تتيقظُ لهذه الحطمةِ؛ لأن لها شأنًا عظيمًا.

قال تعالى مجيباً على السؤال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦﴾: أُضِيفَتْ النارُ إلى اللهِ عز وجل لبيانِ عَظَمَةِ خِلْقَتِهَا وبشاعةِ أَثَرِهَا، وهذه النار ليست خامدةً بل هي مستمرة مُشْعَلَةٌ.

قال سبحانه: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧﴾: أي: أنها تُعَذِّبُ الأبدانَ حتى تصلَ إلى القلوبِ فَتُحِسَّ القلوبُ بحرارتِها وَأَثَرِهَا.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

قال عز وجل: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾: أي: هذه النارُ مُقْفَلَةُ الأبوابِ عليهم، فإنهم إذا دَخَلُوا في نارِ جهنمَ أُقْفِلَتْ عليهم، قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾: قال سبحانه: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾: أي: أن إيصادَ النارِ كان في عَمَدٍ وهي أنواعُ البناءِ الذي يعتمدُ عليه السقفُ. و[مُمَدَّدَةٍ] أي: طويلة بعيدة لا يتمكنونَ من الصعودِ عليها.

فوائد السورة:

في هذه الآياتِ من الفوائد:

١. تحريمُ الهمزِ واللمزِ وأنه من المعاصي والذنوبِ التي يجبُ على الإنسانِ أن يجتنبَها، وَمَتَى وَقَعَ فيها فَعَلَيْهِ أن يتوبَ إلى اللهِ منها وَمَنْ هَمَزْتَهُ أو لَمَزْتَهُ، فَيتقَرَّبُ إلى اللهِ بالثناءِ عليه وَيَتَعْدَادِ محاسنِه فإن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ.

٢. التحذيرُ من أن يكونَ هَمُّ الإنسانِ مجردَ جمعِ المالِ؛ فإن المالَ ليس مقصودًا لذاتِه، وإنما المالُ وسيلةٌ يُحَقِّقُ الإنسانُ بها أغراضَه الطيبةَ وأهدافَه الحسنةَ.

٣. بيانُ أن الإنسانَ لن يُخَلَّدَ في الدُّنْيَا مهما أُوتِيَ من النعمِ والأموالِ فيها.

٤. التحذيرُ من نارِ جهنمَ وبيانُ أن الهمزَ واللمزَ وَظَنَّ البقاءِ في الدنيا من أسبابِ الدخولِ في نارِ جهنمَ.

٥. ذِكْرُ بعضِ صفاتِ نارِ جهنمَ مَمَّا يجعلُ النفوسَ العاقلةَ تَسْعَى إلى ألا تكونَ من أهلِها.

تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾
تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

....

موضوع السورة:

سورةَ الفيلِ مكية ومناسبتها إلى التي قبلها أنه لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد للنبي ﷺ عقب الله عز وجل ذلك بقصة أصحاب الفيل للإشارة إلى أن عقبى كيدهم في الدنيا هي تدميرهم وهلاكهم، وأن عناية الله عز وجل برسوله ﷺ أقوى وأتم من عنايته سبحانه بالبيت، كما أن هذه السورة تتضمن الإشارة إلى أن التكاثر في المال وغيره لا يغني من الله تعالى شيئاً، أو يؤثر على قدرته عز وجل على إنفاذ ما توعد به أولئك الكفرة.

وهذه السورةُ لها قِصَّةٌ قد جاءت هذه الآياتُ بِتَلْخِيصِهَا؛ وذلك أن أصحابَ الأخدودِ في اليمنِ الذين تَكَلَّمْنَا عنهم فيما مَضَى عَاقَبَهُمُ اللهُ بِأَنْ قَوَّضَ مُلْكَهُمْ حيث أَتَى أهلُ الحبشةِ ووَصَلُوا إلى بلدانهم فَقَضَوْا عليهم وَأَخَذُوا الْمُلْكَ منهم، فَلَمَّا أخذَ النصارى أَهْلُ الحبشةِ الْمُلْكَ من هؤلاء القومِ في تلك الديارِ رأوا أن العربَ يُعَظِّمُونَ الكعبةَ وَيَحُجُّونَ إليها فَرَغِبُوا أن يكونَ عندهم بيتٌ يَصْرِفُ وجوهَ العربِ إليهم، فَبَنَى قائدُ هؤلاء النصارى واسمُه (إِبْرَهَةُ) بَيْتًا سَمَّاهُ الْقُلَّيْسَ، وَأَمَرَ العربَ بالحجِّ إليه، فَلَمَّا سَمِعَ بعضُ العربِ أو بعضُ أهلِ مكةَ بذلك جاءوا فَأَلْقَوُا القاذوراتِ والوساخاتِ في هذا البيتِ (الْقُلَّيْسِ) فَلَمَّا عَلِمَ إبرهةُ بذلك أَقْسَمَ لَيَقُومَنَّ بِهَدْمِ الكعبةِ، فجاء بجيشٍ عظيمٍ معه فِيلٌ يُقَالُ له (مَحْمُودٌ) ومعهم جنودٌ

. . . .

كثيرةٌ فخرجوا من اليمنِ وبدءوا برحلتهم إلى مكةَ فما قَابَلَهُمْ أَحَدٌ من العربِ يريدُ أن يقاتلَهم إلا هَزَمُوهُ.

وهذا من الله على جهةِ الابتلاءِ والاختبارِ حتى لَمَّا وصلوا إلى مكةَ وَجَدُوا أموالَ أهلِ مكةَ وَإِبِلَهُمْ فأخذوها وَاسْتَاقُوهَا، فسأل إبرهةُ عن قائدِ أهلِ مكةَ فقيل: إن مُعَظِّمَهُمْ هو عبدُ المطلبِ فَطَلَبَ أن يأتي إليه، فَلَمَّا جاءَ عبدُ المطلبِ وكان رجلاً جَسِيمًا طويلاً عريضًا ورآه إبرهةُ نَزَلَ من كرسيِّ مُلْكِهِ وجلسَ معه على البساطِ، ثُمَّ سألَه عن حاجتِه قال: حاجتي أن تَرُدَّ إِلَيَّ مِائَتَيْ بعيرٍ من الإبلِ أَخَذَهَا جيشُك، فغضِبَ إبرهةُ عند ذلك وقال له: إني قد أتيتُ لهدمِ بيتٍ تَعْبُدُ فيه أنتَ وقومُك وآباؤك وأجدادُك فَتُخَاطِبُنِي في شيءٍ من الإبلِ ولا تُخَاطِبُنِي في هذا البيتِ. فقال: أَنَا رَبُّ الإِبِلِ، وَلِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ. ثُمَّ أَمَرَ إبرهةُ بإرجاعِ الإبلِ إلى عبدِ المطلبِ، فذهبَ عبدُ المطلبِ إلى البيتِ وَدَعَا رَبَّهُ أن يحميَ هذا البيتَ من هذا العدوِّ، ثم إن عبد المطلب أَمَرَ أهلَ مكةَ أن يخرجوا من مكةَ وألا يَبْقَى فيها أحدٌ.

فَلَمَّا أَرَادَ إبرهةُ إرسالَ الجيشِ إلى الكعبةِ لِهَدْمِهَا، وكان في مُقَدِّمَتِهِمُ الفيلُ بَرَكَ الفيلُ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ فَعَالَجُوهُ بأنواعِ العلاجِ ليتحركَ لِهَدْمِ البيتِ فامتنعَ، ثم إنهم لَمَّا أَعَادُوهُ إلى جهةٍ أخرى تَحَرَّكَ سَرِيعًا، فَلَمَّا أرادُوا أن يُعِيدُوهُ إلى البيتِ امتنعَ من ذلك، فَلَمَّا عزموا على هدمِ البيتِ أرسلَ اللهُ جل وعلا لهم مجموعاتٍ من الطيورِ معها حصًى صِغَارٌ، مع كُلِّ طَيْرٍ ثلاثٌ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ ....

من الحصَى ثِنْتَانِ في رِجْلَيْهِ وواحدةٌ في مِنْقَارِهِ فَأُلْقِيَتْ على الجيشِ فَمَزَّعَتْ أجسادَهم ولم يَبْقَ من أجسادِهم شيءٌ، وعادُوا بإبرهةَ إلى اليمنِ تتفسخُ أعضاؤه شيئًا فشيئًا، ولَمَّا وصلوا إلى اليمنِ فإذا به كالفرخِ الصغيرِ، فَأَخْبَرَ بما وَقَعَ ثُمَّ مَاتَ في الحالِ.

وكان ذلك في العامِ الذي فِيهِ وُلِدَ النبيُّ ﷺ؛ ففيه بيانُ حمايةِ اللهِ لهذا البيتِ لِيُبْعَثَ النبيُّ الكريمُ محمدٌ ﷺ فيه، وقد حُمِيَ مِنْ كُلِّ سوءٍ وَشَرٍّ.

معاني الآيات:

قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾: أي: أَلَمْ تَتَفَكَّرْ وَتَنْظُرْ وَتَتَبَصَّرْ في فِعْلِ رَبِّكَ بأصحابِ الفيلِ، أي: بالعقوبةِ الشنيعةِ التي أَنْزَلَهَا عليهم لَمَّا أَرَادُوا هَدْمَ البيتِ.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢﴾: فَهُمْ قد كَادُوا هذا البيتَ وَخَطَّطُوا له بأنواعِ الخططِ العظيمةِ وَأَتَوْا بالجيوشِ الكبيرةِ ولم يَتَمَكَّنْ أحدٌ من قَبَائِلِ العربِ أن يقفَ في وُجُوهِهِمْ، لَكِنَّ كَيْدَهُمْ هذا جَعَلَهُ اللَّهُ في تضليلٍ لا يُنْتِجُ الثمراتِ التي سَعَوْا إليها.

قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾: أي: أن الله عز وجل قد أَرْسَلَ عليهم مجموعاتٍ من الطيرِ. [أَبابيلَ] أي: مجموعة تِلْوَ مجموعةٍ.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

قال عز وجل: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾: أي تقذفهم بحجارة من [**سجيل**] وهو الحجارةُ المحميةُ التي يكونُ فيها نوع من الطينِ.

وقولُه سبحانه: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾: أي: جَعَلَ إبرهةَ وَمَنْ مَعَهُ من أصحابِ الفيلِ.

وقولُه تعالى: [**كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**] العصفُ هو النباتُ الذي تأكلُه البهائمُ [**مَأْكُولٍ**] أي: قد أَكَلَتْهُ البهيمةُ فلم يَبْقَ إلا أطرافُ هذا الورقِ الذي تَأْكُلُهُ البهائمُ فكانوا على قُوَّةٍ عظيمةٍ وجبروتٍ كبيرٍ حتى جَعَلَهُمُ اللهُ بحالةٍ ذليلةٍ قد قُطِّعَتْ أطرافُهم كأنهم بقيةُ ورقِ المرعى الذي رَعَتْهُ البهائمُ.

هذا وقد وَرَدَ في الحديثِ أن النبيَّ ﷺ لَمَّا أرادَ غزوَ مكةَ في سنةِ سِتٍّ فجاء في مَوْطِنِ الْحُدَيْبِيَةِ فَبَرَكَتْ ناقتُه القصواءُ فقال أصحابُ النبيِّ ﷺ: خَلأَتِ القصواءُ، أي: أنها أَصْبَحَتْ لا تقومُ بتنفيذِ الأمرِ الذي يُوَجِّهُهُ لها صاحبُها. فقال النبيُّ ﷺ: «**مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ وَلَيْسَ هَذَا لَهَا بِخُلُقٍ، وَإِنَّمَا حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ**»(١).

وهذا البيتُ سَيَبْقَى ولن يستبيحَ حرمتَه ابتداء إلا أهلُه، أما إذا كان أهلُه مُعَظِّمِينَ له فلن يَسْتَبِيحَهُ أحدٌ من الأممِ، ولن يتمكنَ منه أحدٌ من الناسِ، يقول النبي ﷺ: «**لَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلاَّ أَهْلُهُ فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ فَلاَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ.

. . . .

يُسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ»[١].

ثم أخبر النبي ﷺ فقال: «**يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ**»[٢]، فيهدمُ البيتَ وينقضُه حَجَرًا حَجَرًا؛ وذلك بعدَ أن يستبيحَ أهلُه حُرْمَتَهُ؛ ولذلك على الناسِ أن يَتَوَاصَوْا بحرمةِ هذا البيتِ، وَمِنْ حرمةِ هذا البيتِ تقديرُ زُوَّارِهِ والمعتمرين له والعاكفين عنده بحيث لا يُخَاصِمُهُمُ الإنسانُ ولا يتنازعُ معهم لا مِنْ أَجْلِ مكانٍ ولا من أَجْلِ شيءٍ من أُمُورِ الدنيا، وإنما يَتَخَلَّقُ الإنسانُ في هذا البيتِ بالخُلُقِ الفاضلِ.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٩١، وابن حبان (٦٨٢٧) والحاكم ٤/٩٩، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري(١٥٩١) ومسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. عِظَمُ مكانةِ هذا البيتِ عِنْدَ اللهِ عز وجل ؛ ولذلك على الإنسانِ أن يُعَظِّمَهُ، وأن يحذرَ من أن يُوقِعَ فيه شيئًا من أنواعِ الكيدِ أو الأَذَى للآخرين.

٢. أن كَيْدَ أهلِ الضلالةِ والفسادِ لا يُنْتِجُ ولا يُثْمِرُ بإذنِ اللهِ عز وجل إلا شيئًا مُؤَقَّتًا، وَأَنَّ سَعْيَهُمْ لإطفاءِ هذه الشريعةِ لا يُثْمِرُ هذه الثمرةَ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصف: ٨].

٣. إنزالُ اللهِ تعالى العقوباتِ على الأممِ المضادةِ له، وهذه سُنَّةٌ في الكونِ لا زالت مُسْتَمِرَّةً.

٤. أن العقوبةَ قد تكونُ بأمورٍ هَيِّنَةٍ لا يتوقعُ الإنسانُ أن تكونَ سَبَبًا للهلاك، فهذه الطيورُ صغيرةٌ مجتمعة انْظُرْ كيف فَعَلَتْ بهذا الجيشِ العظيمِ الْعَرَمْرَمِ، وهذه حَصَيَاتٌ صغيرةٌ حَمَلَتْها هذه الطيورُ فانظر كيف أَثَّرَتْ في هذا الجيشِ فَقَطَّعَتْ أعضاءَ أفرادِه.

٥. بيانُ قدرةِ اللهِ عز وجل وأنه لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

٦. نزولُ العقوباتِ بأهلِ مُضَادَّةِ شرعِ اللهِ ومحاربةِ دينِه.

تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ
وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾
الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ
﴿٤﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ....

موضوع السورة:

سورة قريش، ويقال: سورة لإيلاف قريش، مكية، ومناسبتها لما قبلها ظاهرة، فبعد أن امتن الله تعالى على قريش بحفظ بيته وأرى أبرهة وجيشه أليم بطشه، امتن سبحانه على قريش بأن جعلهم في ألفة، وبما أسبغ عليهم من نعمه ومنها الأمن بعد الخوف، والإطعام بعد الجوع، فإذا كان الأمر كذلك فإنه سبحانه هو المستحق للعبادة دون سواه.

معاني الآيات:

قَوْلُ اللهِ عز وجل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١﴾: أي: أن ما قَدَّرَهُ اللهُ من الخيراتِ ومنها تلك العقوبةُ التي أَنْزَلَهَا على أصحابِ الفيلِ هي اجتماعُ قريشٍ وتآلفهم وكونُهم على كلمةٍ واحدةٍ، ففي هذه الآيةِ تَعَجُّبٌ من حالِ قريشٍ لَمَّا اجتمعوا وتآلفوا فكان ذلك من أسبابِ ورودِ الخيراتِ عليهم.

ثم إن الله عز وجل قد أَنْعَمَ على قبيلةِ قريشٍ بأن جَعَلَ الناسَ يأْلفونها فَلَهَا مكانةٌ في نفوسِ الناسِ بحيثُ لا يُعْتَدى على الواحدِ منهم في أسفارِهم أو تنقلاتهم أو تجاراتهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾: أي: أنهم قد حَاذُوا شيئًا من نِعَمِ اللهِ أثناءَ رحلتِهم في الشتاءِ إلى اليمنِ، ورحلتِهم في الصيفِ إلى الشامِ، وذلك أن قبيلةَ قريشٍ قبيلةٌ تشتغلُ بالتجارةِ في غالبِ أحوالِها؛ ولذلك يحتاجونَ إلى الرحلةِ لنقلِ بضائِعهم فيقول اللهُ عز وجل: يا هذه القبيلةُ قبيلةُ قريشٍ أبناءَ النَّضْرِ ابنِ

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

كنانةَ ألا تَعْجَبُونَ من كونِ اللهِ عز وجل قد جَعَلَكُمْ تَعْتَادُونَ هذه الرحلةَ وَتَجْلِبُونَ منها الخيرَ الوفيرَ والتجارةَ الرابحةَ، لا يعترضُكم أحدٌ من الناسِ لِمَا لكم من مكانةٍ في نفوسِهم بسببِ كَوْنِكُمْ أهلَ البيتِ.

ولذا قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾: هذه النعمةُ من اجتماعِ هذه القبيلةِ وتآلفها فيما بينها وتيسيرِ أمرِ رحلةِ الشتاءِ والصيفِ لَهَا هذه نِعَمٌ من اللهِ على هذه القبيلةِ؛ ولذا عليهم أن يَشْكُرُوا اللهَ عز وجل بعبادتِه وحدَه، قال عز وجل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾: أي: لِتَكُنْ عباداتُهم لِلهِ وحدَه، والعبادةُ هي كُلّ فعلٍ يُفْعَلُ على جهةِ التذللِ والخضوعِ والخوفِ والرجاءِ والمحبةِ، فما اجْتَمَعَتْ فيه هذه الصفاتُ فهو عبادةٌ، والعباداتُ لا بد أن تكونَ لِلهِ وحدَه، ولا يجوزُ صَرْفُهَا لأحدٍ سواه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾: أي: الكعبةُ المُشَرَّفَةُ، ففي هذا دليل على فضلُ هذا البيتِ ومكانتُه ومنزلتُه عِنْدَ اللهِ عز وجل.

وفي هذه الآياتِ إشارةٌ إلى أن اللهَ قد تَفَضَّلَ على قبيلةِ قريشٍ بِأَنْ جَعَلَهُمْ من أهلِ هذا البيتِ.

ثم قال واصفًا نفسَه سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾: أي: أن اللهَ قد أَنْعَمَ عليهم بنعمتين عظيمتين:

الأولى: الطعامُ، مع أن هذا البلدَ بلدٌ في وَادٍ غَيْرِ ذي زرعٍ إلا أن

. . . .

الخيراتِ تُجْبَى إليه من كل مكان، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] وليس هذا خاصًّا بِعَصْرِنَا عندما تَوَفَّرَتْ وسائلُ المواصلاتِ، بل في العصورِ الماضيةِ كان هذا البلدُ يَحْظَى بأطيبِ الطعامِ وأفضلِه وخيرِه.

ثم ذَكَرَ اللهُ لهم مِنَّةً أخرى فقال: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ④﴾أي: أن اللهَ قد تَفَضَّلَ على هذه القبيلةِ بأن جَعَلَهُمْ يَأْمَنُونَ في هذا البلدِ، كما قال الله تعالى في سورة أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. أن اجتماعَ الناسِ وتآلفهم نعمةٌ من اللهِ عز وجل على العبادِ أن يَسْعَوْا إليها وإلى تَحْصِيلِهَا وَتَكْمِيلِهَا؛ فإن اللهَ قد امْتَنَّ على قريشٍ بأن جَعَلَهُمْ مجتمعين متآلفين.

٢. أن التجارةَ من المِهَنِ الشريفةِ التي يُثْنَى على أصحابِها فَهُمْ يَخْدِمُون الناسَ ويجلبون لهم حوائجهم وبضائعهم؛ ولذلك امْتَنَّ اللهُ عز وجل على قريشٍ بأن جَعَلَهُمْ من أهلِ التجارةِ.

٣. جوازُ السفرِ من أجلِ التجارةِ، وأنه لاَ حَرَجَ على الإنسانِ في هذا.

٤. وجوبُ إفرادِ اللهِ عز وجل بالعبادةِ.

٥. أنه كُلَّمَا كَثُرَتِ النعمُ على العبدِ ينبغي به أن يزيدَ في الشكرِ بِصَرْفِ هذه النعمِ في مَرَاضِي اللهِ.

٦. ذِكْرُ فَضْلِ اللهِ عز وجل على العبادِ بما أَنْعَمَ به عليهم من صنوفِ النعمِ، ومن ذلك: نعمةُ إطعامِهم للطعامِ بعدَ أن كان يصيبهم الجوعُ، ونعمةُ أَمْنِهِمْ، واستقرارِ نفوسِهم، وطمأنينةِ قلوبهم، فهذه نعمةٌ عظيمةٌ ينبغي أن تشكر بتوحيد الله المنعم المتفضل، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

والله تعالى أعلم

تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ
ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ
لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾
ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ ....

موضوع السورة:

سورةَ المَاعُونِ سورة مكية وهي من السورِ القصيرةِ العظيمةِ المعنى التي تَحُثُّ على مكارمِ الأخلاقِ وَتَحُثُّ على تلبيةِ حوائجِ المحتاجين، ولما ذكر سبحانه في سورة قريش ما امتن به عليهم من نعمة الأمن ونعمة الإطعام ذم عز وجل هنا من لم يحض على طعام المسكين، ولما أمرهم في سورة قريش بعبادته وحده ذم سبحانه هنا من سها عن صلاته.

معاني الآيات:

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾: أي: هَلْ طَالَعْتَ حالَ ذلك المكذبِ غيرِ المصدقِ بيومِ الجزاءِ والحسابِ؛ فإن مَنْ لا يُصَدِّق بيومِ الحسابِ فإنه يُقْدِمُ على أفعالٍ شنيعةٍ غيرِ مرضيةٍ ولا مقبولةٍ، أما إذا كان الإنسانُ يُؤْمِنُ بيومِ القيامةِ ويعرفُ أن وراءَه يومًا سَيُحَاسَبُ فيه وَيُجَازَى على كل أعمالِه فحِينَئِذ سَيُقْدِمُ على الأعمالِ الطيبةِ النافعةِ وَيُحْجِمُ عن الأفعالِ السيئةِ القبيحةِ.

قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾: أي: هذا الذي يُكَذِّبُ بيومِ الدينِ ويومِ الجزاءِ هو الذي يَدُعُّ اليتيمَ؛ أي: يدفعُه بشدةٍ وقوةٍ، ولا يقومُ بِحَقِّهِ، والمرادُ باليتيمِ مَنْ فَقَدَ أَبَاهُ وهو صغير لم يبلغ، وهذه الآيةُ تشملُ مَعْنَيَيْنِ:

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ

الأولُ: أن يكونُوا تاركين لليتيمِ، بحيث لا يقومُون بحوائجِه ولا يُرَاعُونَ حالَه، فقوله تعالى: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾: أي: يتركونَه ولا يقومونَ بشئونِه، لماذا؟ لأنهم لا يَرْجُونَ ما عندَ اللهِ ولا يؤمنون بيومِ الحسابِ، ولأن هذا اليتيمُ ليس وراءه منفعةٌ ماليةٌ، وبالتالي فلا يَرْعَوْنَ حَقَّهُ.

المعنى الثاني: أَكْلُ حَقِّ اليتيمِ وعدمُ إعطائِه أموالَه وحقوقَه، فإن هذا أشنعُ من الأولِ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠] ويقول النبيُّ ﷺ: «**إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: المَرْأَةِ وَالْيَتِيمِ**»(١).

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾: هذه صفةٌ أُخْرَى من صفاتِ أولئك الذين يُكَذِّبُونَ بيومِ الدينِ ألا وهي أنهم لا يَحُضُّونَ على طعامِ المسكينِ؛ أي: لا يُرْغِّبُونَ الآخرين في تقديمِ الطعامِ لأولئك المساكين الذي لا يَجِدُونَ طعامًا يُشْبِعُ جَوْعَتَهُمْ، فإذا كانوا لا يَحُضُّونَ على ذلك فَمِنْ بابِ أَوْلَى أنهم لا يقومون بإطعامِ المساكين بأنفسهم.

ثم قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾: وهي كلمةُ عذابٍ وتهديدٍ ووعيد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾: أي: يُؤَخِّرُونَهَا عن

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ٨/٢٥٤، وابن ماجه (٣٦٧٨) وأحمد ٢/٤٣٩، والحاكم ١/١٣١، من حديث أبي هريرة ﷺ.

سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ ....

وقتها فلا يُؤَدُّونَها في أوقاتها المحددة شَرْعًا أو يهملون أداءها ، وليس المرادُ بهذه الآيةِ أولئك الذين تَرِدُ عليهم الوساوسُ والهواجسُ في الصلاةِ ؛ فإنه قال فيها : ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ ولم يقل : (في صلاتهم ساهون) ومن هنا فَمَا يَرِدُ على العبدِ من الخواطرِ في أثناءِ صلاتِه بدونِ قصدٍ منه لا يَأْثَمُ به ولا يُعَاقَبُ عليه وإن كان يُنْقِصُ من أجرِ صلاتِه ، فقد وَرَدَ أنه «**لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاَتِهِ إِلاَّ مَا عَقَلَ مِنْهَا**»[1].

ثم قال سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝﴾ : المرادُ بالرياءِ : أن يُظْهِرَ الإنسانُ أفعالاً حسنةً لا يُبْطِنُهَا ولا يفعلُها إذا جاء وحدَه ، فإذا كان عند الناس راءاهم وأدى العملَ الصالحَ ليشاهدوه ويُثْنُوا عليه ، أما إذا جاء وحدَه فإنه لا يفعلُ ذلك الفعلَ الصالحَ ، ومثل هذا مُتوَعَّدٌ بالويلِ ، وقد قال النبيُّ ﷺ : «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ**»[2]. وقال ﷺ : «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ ،**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/٦١ ، موقوفاً على سفيان الثوري. وهو في معنى قوله ﷺ : «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلا عُشْرُ صَلاتِهِ تُسْعُهَا ثُمُنُهَا سُبُعُهَا سُدُسُهَا خُمُسُهَا رُبُعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا**» أخرجه أبو داود (٧٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٩) ومسلم (٢٩٨٦).

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1] والعياذ بالله.

وأما الصفة الأخرى من صفة هؤلاء الذين تُوُعِّدُوا بالويل فقال الله عز وجل فيها: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾: أي: لا يبذلون مِنْ مَالِهم شيئًا ولا يَتصدَّقون في سُبُلِ الخَيْرَات، حتى العارية في الأمور القليلة لا يفعلونها، والمراد بالماعون: الأواني الصغيرة من خشب أو حديد أو غيرهما، ومَنْعُهَا: عدم إِعَارَتِهَا، يعني: مع أَنَّهم لا يتضرَّرُون بهذا الوجه من أوجه الإحسان وهو إعارة الآنية، إلا أنهم مع ذلك فهم يمنعونه؛ لأنهم ليسوا من المصدِّقِين بيوم الدين تمام التصديق.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. أن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، وأن من كذب باليوم الآخر فهو كافر خارج من دين الإسلام.

٢. أن العبد كلما زاد إيمانه باليوم الآخر كلما كان عمله الصالح أكثر؛ لأنه يستشعر الآخرة ويراقب ثمرته ومنزله في الآخرة.

٣. تحريم إيذاء اليتيم أو عدم القيام بحق من حقوقه.

٤. الترغيب بالقيام بشئون اليتيم احتسابًا للأجر ورغبةً في الثواب.

٥. الترغيب في إطعام المساكين، وقد قال النبي ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ بِسَلامٍ**»(١).

٦. التحذير من تَزْهِيد الناس في العمل الصالح، قل أو عظم.

٧. التَّحْذِير من تَأْخِير الصلوات عن أوقاتها، فهذا معصية عظيمة وذنب كبير، فأولئك الذين يُؤَخِّرُون الصَّلاةَ عن أوقاتها قد تَوَعَّدَهُمُ الله بالْوَيْلِ، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لاَ يَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٦٢٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

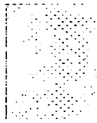
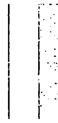
(٢) أخرجه الترمذي (٦١٦) وأحمد ٥/٢٥١، وابن حبان (٤٥٦٣) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

أما أهل الإيمان فإنهم يحرصون على أداء الصلوات في أول أوقاتها في المساجد مع الجماعة.

٨. ترغيب المؤمنين بأن يبذلوا الأسباب تعينهم على أداء الصلوات في أوائل أوقاتها.

٩. التحذير من الرياء والسمعة، وبيان سوء عاقبته في الدنيا والآخرة.

١٠. الترغيب في بذل الإحسان والخير والندى حتى في الأمور القليلة التي لا تؤثر على الإنسان، مثل إعارة الماعون، بحيث يعطيه لِيَسْتَعْمِلَهُ مدة قليلة ثم يعيدها إلى صاحبها، وفي هذا دلالة على أن الله لا يلغي شيئًا من عمل ابن آدم فهو العادل لا يظلم عنده أحد.

تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ
وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ②..........................

قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ①﴾: أي: أن الله عز وجل يَمْتَنُّ على نبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ بأنْ وهَبَهُ الكوثر، والكوثر يُرَادُ بِهِ الخير العميم والفضل الكثير، ومن ذلك نَهْرٌ في الجَنَّةِ يَخْرُجُ وَمِنْهُ الحَوْضُ الذي يرد الناس عليه مسيرته شهر في شهر، ومن المعلوم أن هذا يَصِل إلى أَلْفِ ومِائَتَيْن كيلو، مسيرة الشهر، وهو دائري تصب فيه أنهار الجنة، وقد تواترت النصوص بإثبات الحوض للنبي ﷺ، وأن آنيته كعدد النجوم وأنه فيه من الحلاوة وفيه من الهناءة ما لا يوجد في غيره، وأن هذا الحوض يرد عليه أمة محمد ﷺ، قال النبي ﷺ: «**تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ**»(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ②﴾: أي: اجعل صلاتك كلها لله، سواء كانت نفلاً أو كانت فريضة، أو كانت من فروض الكفايات أومن المستحبات المتأكدات، اجعل كل ذلك لله وحده، ومن ثم لا يجوز لك أن تصلي لأحد سِوَى اللهِ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقوله تعالى: [**وَانْحَرْ**] أي: أن ذبحك الذي تتعبَّدُ به وتتقرَّب لا تجعله

(١) أخرجه النسائي ١٣٣/٢، وأحمد ١٠٢/٣، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

إلا لله وحده فلا تجعله لأحد سواه ؛ إذ لا يصح للإنسان أن يذبح تقربًا لغير الله ، فلا يَذْبَح للجن ولا يذبح بسبب البيت الجديد ، ولا يذبح ديكًا للسحرة ، ولا غير ذلك مما جاءت الشريعة بتحريمه والتشنيع عليه.

قال تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ : أي : إن مبغضك الذي انتقصَكَ وسعى للاستهزاء بك والسخرية منك كائناً من كان هُوَ الأَبْتَرُ مقطوع الذِّكْر ، مقطوع الخير ، مقطوع العقب لا يبقى منه نسل ، ولا حسن ذكر.

أما أنت يا نبينا فتبقى حسن الذكر وحسن الصيت ، وتبقى آثار فضلك إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح : ٤].

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. فضيلة نبينا ﷺ وعِظَم منزلته عند ربه عز وجل؛ حيث أعطاه الكوثر.

٢. وجوب إفراد الله بالصلاة، وتحريم أن يصلي الإنسان لغير الله.

٣. وجوب أن يكون النحر لله عز وجل فلا يذبح الإنسان شيئًا من الذبائح تقربًا لغير الله عز وجل.

٤. بيان أن منتقص النبي ﷺ مقطوع الذكر حتى بعد زمانه ووفاته ﷺ.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ
(٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا
عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

موضوع السورة:

سورة الكافرون سورة مكية، ذكر الله عز وجل فيها براءةَ المسلمين من طريقةِ المشركين في عبادةِ غيرِ الله جل وعلا، ولما كانت سورة الكوثر قد تضمنت الأمر بإخلاص العبادة لله عز وجل جاءت سورة الكافرون لتبين أن إخلاص العبادة يستلزم الخلاص من الشرك وأهله، والبراءة من طريقة المشركين ومعبوداتهم، وإعلان التمسك بدين الإسلام إذا أنه هو الدين الحق.

سبب نزول السورة:

أن بعضَ المشركين جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ سنةً وتعبدُ آلِهَتَنَا سَنَةً، فنزلت هذه الآيةُ للبراءةِ من حالهم وطريقتِهم(١).

وجاء في الحديثِ أن أهلَ الطائفِ بعد فَتْحِ مكةَ جاءوا إلى النبي ﷺ يُرِيدُونَ أن يُسْلِمُوا وكان النبيُّ ﷺ بعد فتحِ مكةَ قَدْ ذَهَبَ إلى الطائفِ لكنه لم يَتَمَكَّنْ من فَتْحِهَا، فعاد ﷺ فبعدَ مدةٍ جاءه أهلُ الطائفِ فطلبوا من النبي ﷺ ثلاثةَ أمورٍ:

أولها: أن يتركَ لهم اللاتَ ليعبدوها.

ثانيها: أن يأذنَ لهم في الخمرِ.

ثالثها: أن يأذنَ لهم في الزِّنَا.

فلم يَأْذَنْ لهم النبيُّ ﷺ في شيءٍ من هذا، فقالوا له: إلى ثلاثِ

(١) أخرجه ابن جرير ٢٤/٦٦٢، وابن أبي حاتم ١٢/٤٦٠، من حديث أنس رضي الله عنه.

سنين؟ فلم يَأْذَنْ لهم، فقالوا: إلى سَنَةٍ، فلم يَأْذَنْ لهم، فقالوا: إِذَنْ لا نَهْدِمُ اللاتَ تَهْدِمُهَا أنتَ، فقال: أَمَّا هذا فَنَعَمْ، فأرسلَ المغيرةَ بنَ شعبةَ -وهو من أهلِ الطائفِ أصالةً - لهدمِ اللات، وكان بِنَاءً قد بُنِيَ على قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ كان يَلُتُّ السويقَ للحاجِّ، فلما جاء المغيرةُ بنُ شعبةَ اجتمعوا حوله لينظروا ماذا تفعلُ اللاتُ مَعْبُودُهُمْ بالمغيرةِ، فأخذ الْمِعْوَلَ فضربه ضربةً خفيفةً، ثم سقط المغيرةُ بنُ شعبةَ، فحينئذ ضَجُّوا بالأصواتِ وَفَرِحُوا أن اللاتَ قد انْتَصَرَتْ، فقام المغيرةُ وقال: ما أَضْعَفَ عقولَكم، حجرٌ لا ينفعُ ولا يضرُّ فكيف تعتقدون أنه أَسْقَطَنِي؟ أو أنه امْتَنَعَ بنفسه؟ ثم أخذ المعولَ فضربه حتى كَسَرَ ذلك البناءَ فدخل أهلُ الطائفِ في دينِ اللهِ بعد ذلكَ، وعلموا أن هذا القبرَ الذي للصالحِ الذي كان يُكْرِمُ الحجيجَ لا ينفعهم بشيء، وَأَنَّ النافعَ الضارَّ هو ربُّ العزةِ والجلالِ[1].

فضل السورة:

وقد جاء في فضل تلاوة هذه السورة الأمر بقراءتها قبل النوم[2].

---

(١) ذكر هذه القصة ابن شبة في تاريخ المدينة ٢/ ٤٩٩، و ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٥٢١، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٩٩.

(٢) أخرجه الطبراني ٢/ ٢٨٧، والبزار (٣١١٣/كشف) وأحمد كما في أطراف المسند لابن حجر ٢/ ٢٢٠، وأحمد ٥/ ٤٥٦، وأبو داود (٥٠٥٥) والترمذي (٣٤٠٣) والحاكم ٢/ ٥٨٧.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②........................

وكان النبي ﷺ يقرأ بها كثيراً في الشفع(١)، وسنة الطواف(٢)، وسنة المغرب وسنة الفجر(٣).

وورد أنها تعدل ربع القرآن(٤)

معاني الآيات:

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾: الخطابُ هنا مُوَجَّهٌ إلى جميعِ الكافرين والمشركين إلى قيامِ الساعةِ، وليس خاصًّا بقومٍ دونَ قومٍ.

والخطاب في قوله: [قُلْ] توَجَّه للنبيِّ ﷺ ولكلِّ فردٍ من أفرادِ أمته، فإن البراءةَ من المشركين ومن عباداتهم تكون عامةً للمؤمنين إلى قيامِ الساعةِ، وبالتالي فإن قوله: [قُلْ] هذا مُوَجَّهٌ لكل من خُوطِبَ بالقرآنِ العظيمِ من المؤمنين.

قوله سبحانه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾: أي: أنني أتبرأُ من عبادةِ الآلهةِ والأصنامِ والمخلوقات التي تعبدونها؛ لأنني أعبدُ اللهَ ولا أصرفُ شيئًا من العبادةِ لغيرِ الله، والعبادةُ تَقَدَّمَ تفسيرُها مِرارًا وأنها تشملُ الصلاةَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٦٢) والدارمي (١٥٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٧٢٦) وأبو داود (١٢٥٦) والترمذي (٤١٧) والنسائي ٢/ ١٧٠ وابن ماجه (١١٤٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٩٤) والحاكم ١/ ٧٥٤.

والصومَ والحجَّ والدعاءَ والخوفَ والرجاءَ والذبحَ على جهةِ التقربِ وَالتَّذَلّلِ، فَكُلّ هذه العباداتِ حَقٌّ خالصٌ لله تعالى، ومن هنا فإن المؤمنَ لا يَصْرِفُ شيئًا من هذه العباداتِ للآلهةِ التي يَعْبُدُهَا المشركون، وكما أن المؤمنَ لا يَعْبُدُ إلا اللهَ فهو لا يَعْبُدُ اللهَ إلا بما شَرَعَ في كتابه أو على لسانِ رسولِه ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾: أي: أنكم وإن كنتم تقدمون شيئًا من العبادة لله؛ لكنكم أشركتم معه غيرَه، والله تعالى غنيٌّ، إِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعَهُ غَيْرَهُ تَرَكَهُ وَشِرْكَهُ، كما ورد في الحديث[1]، ولذلك وإن قصدتم عبادةَ الله ببعضِ أعمالكم لَكِنَّ هذا ليس عبادةً لله ولا يَقْبَلُهَا الله؛ لأنكم قد أَشْرَكْتُمْ مع اللهِ غَيْرَهُ.

فقوله تعالى: [**وَلا أَنْتُمْ**] يا أيها الكافرون المشركون، وقوله: [**عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**] أي: لن تقوموا بإفرادِ الله بالعبادةِ وأنتم على طَرِيقَتِكُمْ في شركِكُمْ وَكُفْرِكُمْ.

أما إذا أَسْلَمَ الواحدُ منهم وكانت عبادتُه لله وحدَه فحينئذ يكون من الْمُوَحِّدِينَ المؤمنين، ولا يكونُ من الكافرين، فلا يدخلُ في هذه الآيةِ.

قال سبحانه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾: قيل: الآيةُ الأُولَى تتكلمُ عن الماضي، والآيةُ الثانيةُ تتكلم عن المستقبلِ، وقيل:

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجه (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

الآيةُ الأولى تتحدث عن العبادةِ الناشئةِ الطارئةِ، والآيةُ الثانيةُ تتحدثُ عن اتخاذِ الإنسانِ منهجًا يسيرُ عليه في عباداته، وقيل بأنها من التكرارِ، ولعلَّ جميعَ هذه المعاني السابقةِ يكون مُرَادًا، ولا مانعَ من أن تكونَ هذه المعاني كُلُّهَا مُرَادَةً.

ثم قال سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾: أي: أَتَبَرَّأُ من دينكم لعدمِ صِحَّتِهِ كما أنكم تتبرؤون من دِينِي، هذا معنى قوله: [**لَكُمْ دِينَكُمْ**] وليس معناه أَنِّي أُقِرُّكُمْ على ذلك الدينِ وأعتقدُ صحتَه، بل ليس هناك دينٌ صحيحٌ إلا دينَ الإسلامِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وكما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فوائد السورة:

في هذه الآيات من الفوائد:

١. أن كُلّ مُشْرِكٍ فهو كافرٌ، فإن الله قد خَاطَبَ المشركين الذين يَعْبُدُونَ مع اللهِ آلهةً أخرى بقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾.

٢. أن المؤمنَ لا يصرفُ شيئًا من عباداتِه لغيرِ اللهِ.

٣. التبرؤُ من طريقةِ المشركين بِصَرْفِهِمْ لشيءٍ من العباداتِ لغيرِ الله جل وعلا.

٤. أن منهجَ المؤمنِ قائمٌ على صَرْفِ العبادةِ لله وحده، وعدمِ إشراكِ أحدٍ معه فيها كائنًا مَنْ كَانَ.

٥. البراءةُ من أديانِ المشركين واعتقادِ ضلالها وَكُفْرِهَا وعدمِ صِحَّتِهَا، بل هي أديانٌ فاسدةٌ لا يَقْبَلُهَا اللهُ جل وعلا.

٦. صِحَّةُ تسميةِ بقيةِ الأديانِ الأخرى باسمِ الدينِ، وأنه لا حَرَجَ فيه، كما يُسَمَّى الإسلامُ باسمِ الدينِ تُسَمَّى بقيةُ الدياناتِ بهذه الاسم (الدِّينِ)، والأصلُ في كلمة (الدِّينِ) أن يرادَ بها الطاعةُ والالتزامُ بالطريقةِ والمنهجِ.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ
إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

موضوع السورة:

سورة النصر سورة مدنية، وتسمى سورة إذا جاء، وتسمى سورة التوديع؛ لما فيها من الإيماء إلى وفاته عليه الصلاة والسلام وتوديعه الدنيا وما فيها.

وقد تناولت السورة بشارة المؤمنين بانتصار أهل الإسلام، وهداية بعض الكافرين، وفتح مكة، مما يدل على كمال الدين وقرب وفاة النبي ﷺ.

وجاء في الحديثِ أن النبي ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ أَخْبَرَ فاطمةَ رضي الله عنها بِقُرْبِ أَجَلِهِ فَبَكَتْ، فقال لها فيما بينه وبينها: «**إِنَّكِ أَسْرَعُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي**» فَضَحِكَتْ عندئذ وَهَنِئَتْ نفسُها[1].

وجاء في الأثرِ أن ابنَ عباسٍ في عهدِ عمرَ كان مُقَدَّمًا عند عمرَ رضي الله عنه وكان يُدْخِلُهُ مع أهلِ الشورى، فقال بعضُهم: لَدَيْنَا أبناءٌ مثلُ ابنِ عباسٍ فَلِمَ لا يُدْخِلُهُمْ عمرُ كما يُدْخِلُ ابنَ عباسٍ؟ فسمع عمرُ رضي الله عنه بمقالتهم فاستدعاهم وَاسْتَدْعَى ابنَ عباسٍ وقال لابن عباس: لَا تَعْجَلْ بِالْجَوَابِ، فسألهم عن هذه السورةِ فقال بعضُهم: هذا أَمْرٌ من الله جل وعلا لنبيه إذا جاء الفتحُ بأن يُكْثِرَ من تسبيحِ الله وَحَمْدِهِ ومن الاستغفارِ، وَسَكَتَ آخَرُونَ، فالتفتَ عمرُ إلى ابنِ عباسٍ فقال: مَا تقولُ فيها؟ قال: هذا أَجَلُ رسولِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ به، فقال عمرُ: "واللهِ لا أعلمُ من هذه السورةِ

(١) أخرجه الدارمي (٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

إلا مثلما قُلْتَ"[1].

ووجه مناسبتها لما قبلها أن فيها إشارة إلى اضمحلال ملة الأصنام وظهور دين الله عز وجل على أكمل وجه، وسيادته في جزيرة العرب وانتشاره في أرجاء الأرض بعد ذلك.

معاني الآيات:

قوله سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾: هذا خطابٌ من الله عز وجل لنبيه ﷺ يُبَيِّنُ له بأن فتحَ مكةَ سيأتي، وأن الانتصارَ على الأعداءِ سيأتي.

قوله عز وجل: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾: فيه بِشَارَةٌ بدخولِ الناسِ في دينِ الله، قوله عز وجل: [**أَفْوَاجًا**] أي: جماعاتٍ تِلْوَ جماعاتٍ، وقوله سبحانه: [**يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ**] أي: يُسْلِمُونَ ويعتقدون بدينِ الإسلامِ.

قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾: [**سَبِّحْ**] يعني: نَزِّهْ، [**بِحَمْدِ رَبِّكَ**] أي: بصفات الكمال التي يتصف بها الله جل وعلا، [**وَاسْتَغْفِرْهُ**] أي: اطْلُبْ مغفرتَه وتَجَاوُزَهُ عن الذنوبِ والسيئاتِ، [**إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**] أي: أن من شأن الله أن يتوبَ على العبادِ مرةً بعد مرةٍ، وأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

جل وعلا إذا أَذْنَبَ العبدُ فرجع إليه فإن الله يتوبُ عليه، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»[1].

وقوله عز وجل: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾: فيه إشعارُ بقرب وفاةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنه وَصَّاهُ بالاستغفارِ، والاستغفارُ يُشْرَعُ في ختامِ الأعمالِ الصالحةِ فدَلّ هذا على قُرْبِ أَجَلِهِ ﷺ.

بم تكون التوبة من المعاصي؟

تكون التوبة بعدد من الأمور:

الأول: الإقلاع عن المعصية.

الثاني: الندم على فعلها.

الثالث: العزم عزماً جازماً على أن لا يعود إلى مثلها أبداً.

الرابع: إن كانت المعصية تتعلق بآدمي فيشترط رد المظالم إلى أصاحبها، أو تحصيل البراءة منهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠) وهو جزء من حديث طويل عن عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. وَعْدُ الله عز وجل بنصرِ دينِه وأوليائِه، فاللهُ تعالى قد تَكَفَّلَ بنصرِ أوليائِه المؤمنين.

٢. أن فيها بشارةٌ عظيمةٌ لأهلِ الإسلامِ بأن الله سَيَنْصُرُهُمْ على أعدائهم مَهْمَا بلغَ أعداؤهم من قوةٍ.

٣. فيها بشارةٌ بدخول الناس في دين الله عز وجل، وقد نَصَرَ الله هذا الدينَ فانتشر هذا الدينُ في مشارقِ الأرضِ وَمَغَارِبِهَا، في سنواتٍ قليلةٍ فُتحت البلدانُ الكبيرةُ، وَكُسِرَتِ الدولُ العظيمةُ كفارسَ والرومِ ولم يَبْقَ لهم مكانةٌ ولا منزلةٌ ولا قوةٌ وما ذاك إلا بنصرِ الله وتأييده جل وعلا، وهكذا استمر نصرُ الله للمؤمنين حتى بدءوا يَضْعُفُونَ في تَمَسُّكِهِمْ بدينهم.

٤. أنه متى ضَعُفَ تمسكُ الناسِ بدينِ الله المبنيِّ على التوحيدِ بإفرادِ الله بالعبادةِ وأصبحوا يَبْحَثُونَ عن البدعِ والخرافاتِ فحينئذ يَبْتَعِدُ عنهم النصرُ قليلاً قليلاً.

٥. أنه متى كان المؤمنون يَتَقَرَّبُونَ لله عز وجل بأنواعِ الطاعاتِ وَيَسِيرُونَ على جَنَابِ التوحيدِ، ويحرصون على السُّنَّةِ ويبتعدون عن البدعةِ فإن الله تعالى سينصرهم وَيُؤَيِّدُهُمْ وشواهدُ هذا في التاريخِ كثيرةٌ، كلما جاء قائدٌ من المصلحين نَصَرَهُ اللهُ وَأَيَّدَهُ وجعله يتمكنُ من أعدائه ويغلبهم.

٦. أنه متى ابْتَعَدَ الناس عن منهجِ الله وعن جَنَابِ التوحيدِ وعن العملِ بالسنةِ إلى التزامِ البدعة مُكِّنَ أعداؤهم منهم، وأصبحوا متفرقين يعادي بعضهم البعضَ الآخرَ؛ لأنهم ابْتَعَدُوا عن طريقِ الله.

٧. فيها إشعارٌ بقرب وفاةِ النبيِّ ﷺ فإن الله جل وعلا قد أَرْسَلَهُ لمهمةٍ، وهي تبليغُ هذا الدين ودعوةُ الناسِ للدخول فيهِ، فإذا أَكْمَلَ هذه المهمة فحينئذ يكون قد وَفَّى، وسيَرِدُ إليه الموتُ.

٨. فضيلةُ الاستغفارِ وَعِظَمُ أجره، حيث أَمَرَ به أن يكون ختامًا لأعمالِ الإنسانِ سواءً بالنسبةِ لتمامِ عمرِه أو لنهايةِ أعمالِه الصالحةِ من صلاةٍ وغيرِها. ولَمَّا نَزَلَتْ هذه السورةُ كان النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ في سجودِه وَرُكُوعِهِ أن يقولَ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»[1].

٩. أن الله جل وعلا يتوبُ على مَنْ تَابَ إليه وَرَجَعَ إلى الطاعةِ والسنةِ بعدَ أن كان على البدعةِ والمعصيةِ.

١٠. استحبابِ الإكثارِ من ذكرِ اللهِ بأنواعِ الذكرِ عند نزولِ النصرِ للمؤمنين، وقد وَرَدَ أن النبيَّ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مكةَ صلى ثَمَانِيَ ركعاتٍ ضُحًى، فقال طائفةٌ: هذه صلاةُ الفتحِ، إذا فُتِحَ على المسلمين بَلَدٌ من البُلْدَانِ اسْتُحِبَّ أن يُصَلِّيَ الإمامُ ثمانيَ ركعاتٍ كما فَعَلَ النبيُّ ﷺ عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ.

والله تعالى أعلم

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧) ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ
﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ
الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

موضوع السورة:

سورةَ المَسَدِ مكية ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر سبحانه في سورة النصر دخول الناس في ملة الإسلام أفواجاً، عقبه سبحانه هنا بذكر هلاك بعض ممن لم يدخل فيها وخسرانه.

وأبو لَهَبٍ هو عَمُّ النبيِّ ﷺ أخو والده، واسمُه عبد العُزَّى، وقد تزوج اثنانِ من أبنائه ببنتين من بناتِ النبي ﷺ قَبْلَ الإسلامِ، فلما جاء الإسلامُ ودعا النبيُّ ﷺ إلى الله أَمَرَ أبو لهبٍ أبناءَه الاثنين أن يُطَلِّقُوا زوجاتِهم؛ بناتِ النبيِّ ﷺ فَطَلَّقُوهُمَا فَعَوَّضَهُمَا اللهُ خَيْرًا مِنْهُمَا.

ولهذه السورةِ قصةٌ؛ وذلك أن النبيَّ ﷺ لَمَّا نزل عليه قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] أَمْرٌ بإبلاغِ الناسِ الدعوةَ والإظهارِ بها والإعلانِ بعد أن كانت الدعوةُ سِرِّيَّةً فَصَعِدَ النبيُّ ﷺ جبل الصفا، طرفَ جبلِ أبو قبيس، ونادى في الناس، فلما اجتمعوا قال: «**لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ عَدُوًّا لَكُمْ سَيُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَأَنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قالوا: نَعَمْ، قال: «**فَإِنِّي رَسُولٌ مِنَ اللهِ إِلَيْكُمْ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللهَ**» فقال أبو لهبٍ: تَبًّا لكَ سائرَ اليومِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فنزلت هذه الآياتُ[1].

وكان أبو لهب مِمَّنْ يُضَادُّ الإسلامَ، وَيَصُدُّ عنه فلم يراعِ في ذلك دينًا ولا قرابةً ولا حَمِيَّةً، وكان النبيُّ ﷺ في مجامعِ الناسِ يطوفُ عليهم يَأْمُرُهُمْ بأن يَدْخُلُوا في دينِ الله، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وكان عَمُّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٤) ومسلم (١٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③﴾

أبو لهبٍ يسيرُ وراءَه فيُكَذِّبُهُ ويقول: أنا عَمُّهُ وأَعْرَفُ به، وَيَتَّهِمُهُ بالأوصافِ الشنيعةِ من كذبٍ وَسِحْرٍ وَشِعْرٍ وغيرِ ذلك؛ لهذا نزلت هذه الآياتُ.

معاني الآيات:

قوله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾: [تَبَّتْ] أي: احترقت ولم يبق فيها شيء.

قوله سبحانه: [يَدَا أَبِي لَهَبٍ] مُثَنًّى لأنه كان يشيرُ بيده عند مخاطبته للنبيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: [وَتَبَّ] قيل: احترقت احتراقًا كاملاً، وقيل بأن قوله: [وَتَبَّ] أي: أبا لهب، فكما تَبَّتْ يداه كذلك تَبَّ هو.

قال سبحانه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ②﴾: أي: أن ما حَصَّلَهُ من الأموالِ الكثيرةِ في الدنيا لن يُغْنِي عنه شيئًا سواء في الدنيا أم في الآخرة؛ وذلك لأن أعمالَه السيئةَ قد أحاطت به؛ ولذلك فإنه يقول في الآخرة عندما يعطى كتابه بشماله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ㉘﴾ [الحاقة: ٢٨].

وقوله عز وجل: [وَمَا كَسَبَ]، يعني من جميعِ أنواعِ المالِ والأولاد والجاه، فإنه لا يغني عنه من الله شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③﴾: أي: أنه سيقاسي حَرَّهَا وَسَتَصِلُ النارُ إلى أجزاءِ بَدَنِهِ.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾: أي: أنها عظيمةُ الاشتعالِ لها لهبٌ، وفي هذه الآياتِ معجزةٌ عظيمةٌ؛ فإن الله عز وجل قد أَخْبَرَ أن أَبا لَهَبٍ سيكون من أهلِ النارِ، وذلك في حياةِ أَبِي لهبٍ، وهكذا بالنسبة لزوجتِه، ومع ذلك لم يَقُلْ أَبُو لَهَبٍ: أَسْلَمْتُ، لِيُكَذِّبَ النبيَّ ﷺ، فيقولُ له: أَنْتَ تَدَّعِي بأني من أهلِ النارِ وأنا قد أسلمتُ، حتى إعلان الإسلامِ ظاهرًا لم يُعْلِنْهُ، وإنما بَقِيَ على كُفْرِهِ وَعَدَاوَتِهِ لدينِ اللهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾: أي: زَوْجَتُهُ، وهي أُمُّ جميلٍ بِنْتُ حَرْبٍ، أختُ أبي سفيانَ.

قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾: أي: أنها تُكْثِرُ مِنْ حَمْلِ الحطبِ لِبَيْتِهَا ولزوجها، كانوا في السابقِ ليس عندهم وقودٌ وليس عندهم غازٌ ولا كهرباءُ يتمكنون به من الإيقادِ على طَعَامِهِمْ، فكانوا يَجْلِبُونَ الحطبَ من البريةِ لِيُوقِدُوه على الطعامَ، فوصف الله تعالى امرأةَ أبي لهب بأنها تُكْثِرُ من حَمْلِ الْحَطَبِ، وقيل: المرادُ بذلك أنها كانت تضعُ الشوكَ في طريقِ النبيِّ ﷺ.

قال سبحانه: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾: الجمهورُ على أن المرادَ بهذه الآيةِ يومَ القيامةِ، وأنها في يومِ القيامةِ تحملُ حَبْلاً من مَسَدٍ؛ إما من لِيفٍ أو نحوِه لِتُعَذَّبَ بها في يومِ القيامةِ.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائدِ:

١. أن الصَّادِّينَ عن دينِ الله سَيُعَاقِبُهُمُ اللهُ بأن يجعلَهم من أهلِ النارِ.

٢. أن الأموالَ ليست هي الهدفَ في ذَاتِهَا، وإنما هي وسيلةٌ لعملِ الخيرِ ونحوِه، وبالتالي فالمالُ في ذاتِه لا يُغْنِي عَنْكَ شيئًا ولا يَدْفَعُ عَنْكَ شيئًا من السيئاتِ، إلا إذا عَمِلْتَ به عملاً صَالِحًا.

٣. إثباتُ معجزةِ القرآنِ، حيث أَخْبَرَ بأن أبا لَهَبٍ من أهلِ النارِ، فلم يتمكن أبو لهبٍ من إعلانِ إسلامِه ولو بالصورةِ وبالأمرِ الظاهرِ، بل بَقِيَ على الافتخارِ والاعتزازِ بِكُفْرِهِ.

٤. بيانُ أن زوجةَ أبي لَهَبٍ من أهلِ النارِ أيضًا، وقد وَرَدَ في الأَثَرِ أنه لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآياتُ جاءت امرأةُ أَبِي لهبٍ إلى أَبِي بكرٍ الصديقِ تَشْتَكِي فتقولُ: إن صَاحِبَكَ قد هَجَانَا، فقال أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: إنه ليس بشاعر[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٣٢٣/٦، والبزار ٦٨/١، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ
يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

موضوع السورة:

سورة الإخلاص وتسمى أيضاً سورة قل هو الله أحد، سورة مكية، موضوعها التوحيد وصفة الرحمن عز وجل.

فضائل السورة:

وسورة الإخلاص والسورتين بعدها سور عظيمةٌ لها فضلٌ كبيرٌ؛ ولذلك يقال لها: سورُ المُعَوِّذَاتِ، وقد رَغَّبَ النبيُّ ﷺ في قراءةِ هذه السورِ الثلاثِ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ[١]، مما يدل على فضلها، وكان النبي ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[٢]، وجاء في الحديثِ أن رجلاً خرج مع أصحابه فكان يُصَلِّي معهم، فكان إذا قَرأَ في ركعةٍ خَتَمَهَا بهذه السورةِ، فلما رجعوا أخبروا النبيَّ ﷺ فسأله النبيُّ ﷺ عن ذلك، فقال: إنها صفةُ الرحمنِ فأنا أُحِبُّ أن أقرأها، فقال النبي ﷺ: **«حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ»**[٣].

وجاء في الحديثِ أن سورةَ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) تَعْدِلُ ثلثَ القرآنِ[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٣) والنسائي ٣/٦٨، وابن خزيمة (٧٥٥) وابن حبان (٢٠٠٤) والحاكم ١/٣٨٣، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد ٣/١٤١، والترمذي (٢٩٠١)، وابن خزيمة (٥٣٧) وابن حبان (٧٩٢) والحاكم ١/٣٦٧، والبخاري في التاريخ ١/٢٦٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٢٧) من حديث أبي سعيد، ومسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة.

وقال ﷺ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟**» قالوا: وَأَيُّنَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟ قال: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ فِي لَيْلَةٍ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(١).

قالوا: لأن القرآنَ إما أخبارٌ وإما أوامرُ وإما صفاتٌ لله عز وجل، فلما كانت هذه السورةُ متضمنةً لأعلى صفاتِ الله كانت بمثابةِ ثُلُثِ القرآنِ، والأصلُ أن صفاتِ الله يُؤتَى فيها بإثباتٍ مُفَصَّلٍ، فيُفَصَّلُ في الصفاتِ الإثباتيةِ، أما صفاتُ النفيِ فالأصلُ أن يُؤْتَى بها مُجْمَلَةً فلا يفصل فيها، لكنه هنا احتاجَ للتفصيلِ في نفيِ الولدِ والوالدِ ونفيِ الكفؤِ من أجلِ أن هناك مَنْ أَنْكَرَ هذا، وقال مقالةً بخلافِ هذا.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَجَبَتْ**». قُلْتُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «**الْجَنَّةُ**»(٢).

وقد ورد في فضل تكرارها أحاديث لأهل العلم كلام في أسانيدها.

سبب النزول:

جاء المشركونَ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ. فنزلت هذه السورةُ(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٨١١) وأحمد ٤/١٥٥.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩٧) والنسائي ٢/١٧١، وأحمد ٢/٣٠٢.

(٣) أخرجه أحمد ٥/١٣٣، والترمذي (٣٣٦٤) والحاكم (٢/٥٨٩) من حديث أبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾..........

معاني الآيات:

قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾: أي: يا أيها النبيُّ قُلْ مُعَرِّفًا بِرَبِّكَ [هُوَ اللهُ أَحَدٌ] وهكذا يتوجهُ هذا الكلامُ لِكُلِّ قارئٍ للقرآنِ من المؤمنين، أي: يا قارئَ القرآنِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وتكلم بذلك جازما به.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾: (اللهُ) اسمُ ربِّ العزةِ والجلالِ.

وقوله تعالى: [أَحَدٌ] أي: اعْتَرِفْ بأنه أحدٌ لا شريكَ له في رُبُوبِيَّتِهِ وَتَصَرُّفِهِ في الكونِ، فاللهُ جل وعلا هو المتصرفُ في الكونِ وحدَه، لا يقعُ في الكونِ شيءٌ إلا بأمرِه وَخَلْقِهِ وتقديرِه، ثم هو الله أحدٌ في أُلُوهِيَّتِهِ، فلا يجوزُ صرفُ شيءٍ من العباداتِ لغيرِه سبحانَه، إذ صرفُ العباداتِ لغيرِ اللهِ شِرْكٌ، ثم إن القلوبَ محتاجةٌ أَشَدَّ الحاجةِ لأن تَأْلَهُ اللهَ وَتَعْبُدَهُ وَتَتَضَرَّعُ بين يديه، ثم هو أحدٌ في أسمائه وصفاته، لا شبيهَ له ولا مثيلَ له ولا مقابلَ ولا ضِدَّ، وكذلك هو واحد في نفع الخلق والقيام بحوائجهم وإجابة دعائهم.

ثم قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾: (الصَّمَدُ) أي: الذي تصمدُ إليه الخلائقُ في حوائجها، ما نزلت حاجةٌ بمحتاجٍ فأنزلها بالله إلا قَضَاهَا جل وعلا، وأما مَنْ أَنْزَلَ حاجتَه إلى الخلائقِ فهو إلى قِلٍّ وَخَسَارَةٍ وَبَوَارٍ في الدنيا والآخرةِ. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾: أي: أنه كذلك لا جَوْفَ له، وأنه لا يأكلُ ولا يشربُ؛ لأنه غَنِيٌّ مستغنٍ بذاته لا يحتاجُ إلى شيءٍ آخرَ،

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

ومن ثَمَّ لم يحتج إلى طعامٍ ولا شرابٍ.

ثم قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾: فإن الله أَزَليٌّ الوجودِ، فهو الأولُ فليس قَبْلَهُ شيءٌ، وكذلك هو الآخِرُ فليس بعدَه شيءٌ، فإذا كان كذلك لم يَكُنْ لَهُ والدٌ؛ إذ كيف يكونُ له والدٌ وهو الأولُ وليس له ابنٌ ولا وَلَدٌ؛ لأن الناسَ يحتاجون للولدِ لمساعدتِهم، وَاللهُ هو الباقي فلا يحتاج لمن يخلفه، وهو الغنيُّ القادرُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يحتاجُ إلى مُعِينٍ من ولدٍ ولا من غيرِه، ومن هنا نعلمُ فسادَ مقالةِ أولئك الذين يَنْسِبُونَ إلى اللهِ الولدَ؛ إما بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] أو ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ونحو ذلك من المقالاتِ الفاسدةِ، فإنا إذا أَثْبَتْنَا أن اللهَ غَنِيٌّ فلا يحتاجُ إلى ولدٍ يُعِينُهُ.

قال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: أي: أنه لا يوجدُ أحدٌ يكون مُمَاثِلاً لله، ولا نظيرًا له، ولا ضدًّا مقابلًا له جَلَّ وعلا.

فوائد السورة:

في هذه السورة من الفوائد:

١. وجوبُ إفرادِ الله بصفاتِ الكمال والربوبيةِ وصفاتِ الألوهيةِ.

٢. أن الذي ينبغي أن تُعْرَضَ الحوائجُ عليه وأن تُوَجَّهَ الطلباتُ إليه هو ربُّ العزةِ والجلالِ.

٣. أن العبادة حق خالص لله لا يَسْتَحِقُّ أحدٌ سواه ذلك.

٤. إثباتُ أن اللهَ هو الأولُ والآخرُ؛ ولذا لم يَحْتَجْ إلى والدٍ ولا إلى ولدٍ.

٥. نفيُ أن يكونَ لله جل وعلا كفؤٌ أو مَثِيلٌ.

٦. وجوب الجزم بأحدية الله رباً وإلاهاً وتوليه القيام بحوائج العباد.

٧. شدة حاجة أهل السموات والأرض لفضل الله تعالى.

٨. وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء.

والله تعالى أعلم

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن
شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي
الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

موضوع السورة:

سورة الفلق سورة مكية، وقيل: مدنية، ورجح بعضهم أنها مدنية مستدلين على ذلك بما ورد في أسباب نزولها.

ومناسبتها لما قبلها أنه لما تحدثت سورة الإخلاص عن أمر الإلهية جاءت سورة الفلق بعدها بياناً لما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر.

وسورة الفلق وسورة الناس نزلتا معا، ولذلك قرنتا مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ومن الافتتاح بقل أعوذ.

سبب نزولها:

كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فأتت إليه اليهود، ولم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وكان الذي تولى ذلك لبيد بن الأعصم اليهودي[١].

فضائل السورة:

أخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ، قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»**[٢].

أنها من المُعَوِّذَاتِ التي يُسْتَحَبُّ للإنسانِ أن يقرأها في صباحِه ومسائِه

---

(١) أسباب النزول ص (٤٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤) والترمذي (٢٩٠٢) والنسائي ٢/ ١٥٨.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ ....

ثلاثًا(١).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ، ثُمَّ أَعْيُنِ الإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ»(٢).

وَيُسْتَحَبُّ أن يقرأها إذا أوى إلى فراشه فعَنْ عَائِشَةَ "أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ"(٣).

وَيُسْتَحَبُّ أن يقرأها بعد الصلواتِ المكتوبةِ(٤).

معاني الآيات:

قوله سبحانه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾: أي: قُلْ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ، وَقُلْ يا قَارِئَ الْقُرْآنِ من أتباعِ هذا النبيِّ ﷺ، قُلْ مُسْتَعِيذًا: [**أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**] أعوذُ أي: ألتجئُ وأعتصمُ وألوذُ بالله رَبِّ الفلقِ، والمرادُ بالفلقِ إخراجُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢) والترمذي (٣٥٧٥) والنسائي ٨/٢٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨) والنسائي ٨/٢٧١، وابن ماجه (٣٥١١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٢٣) والنسائي ٣/٦٨، وابن خزيمة (٧٥٥) والحاكم ١/٣٨٣.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾.

شيءٍ من شيءٍ، فإخراجُ الصباحِ من ظلمةِ الليلِ هذا يقالُ له فَلَقٌ، وإخراجُ النباتِ من الأرضِ هذا يقال له فلقٌ، وإخراجُ الثمراتِ من الأكمامِ يقال له فلقٌ، وكلها مما يدخل في هذه الآيةِ، فالله جل وعلا هو ربُّ الفلقِ وهو الذي قَدَّرَ خروجَ هذه الكائناتِ بعضِها من بعضٍ، فالمؤمنُ يستعيذُ باللهِ مُتَوَسِّلاً إليه بربوبيته لهذا الفعلِ وهو الفلقُ.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾: الشرُّ يُقَابِلُ الخيرَ، وهو كل سوء يكون من الآخرين، وقوله سبحانه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي: من شَرِّ جميعِ المخلوقاتِ، فنحن نستعيذُ بالله من شَرِّ كل مخلوق سواء كان من مخلوقاتِ الإنسِ، أو مخلوقاتِ الجنِّ، أو النفس، فأنت تستعيذُ من شَرِّ نفسك، ومِنْ شَرِّ الحيواناتِ والنباتات وجميع الكائنات، فكل المخلوقاتِ تَسْتَعِيذُ بالله من شَرِّهَا.

قوله سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾: جمهورُ أهلِ العلمِ على أن الغاسقَ هو الليلُ وَ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا غَطَّى بظلامه الأرض؛ وذلك أن الليلَ يَفْعَلُ فيه كثيرٌ من الناسِ الجرائمَ، والليلُ يكون مَحَلاً لكثيرٍ من المعاصي التي يَسْتَخْفِي أهلُها بها عن غيرِهم؛ ولذلك استعاذَ المؤمن بالله من شَرِّهِ.

قال عز وجل: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾: المرادُ بِالنَّفَّاثَاتِ السواحرُ يأتين بالخيوطِ وبعضِ أجزاءِ الآدميِّ فَيَنْفُثْنَ فيها، ثم يَعْقِدْنَهَا فينتجُ

....

عن ذلك السحرُ، وقد يُسْحَرُ الإنسانُ في صحته فتأتيه الأمراضُ، وقد يُسْحَرُ الإنسانُ في محبته وكراهيته فيَكْرَهُ من يُحِبُّ ويُحِبُّ من يكره، وقد يُسْحَرُ في عبادته فيُبْعَدُ عن أنواعِ الطاعاتِ وهكذا.

والسحرُ جَنَابُهُ شَنِيعٌ؛ فهو ذنبٌ عظيمٌ وإِثْمُهُ كبيرٌ؛ ولذلك كَفَّرَ اللهُ السحرةَ في قوله جل وعلا: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ فدل هذا على أن السحرَ كفرٌ، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: مَنِ اسْتَبْدَلَ حَالَهُ بِالسِّحْرِ: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ ولذلك فالإنسانُ العاقل يَحْذَرُ من السحرِ والسحرةِ.

ويقول النبيُّ ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» وذكر منها السحرَ[(١)]، ويقول ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ**»[(٢)].

إذا تقرر هذا فعلى العبدِ المؤمنِ أن يَحْمِيَ نفسَه من شرِّ السحرةِ؛ وذلك بعددٍ من الأمورِ منها:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦١٥) ومسلم (٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٨٤٤) وفي الكبير ١٨/ ١٦٢، بإسنادين يقوي أحدهما الآخر. وأخرجه الضياء في المختارة (٤٢٦).

....

الأمر الأول: الالتجاءُ إلى اللهِ عز وجل والتضرعُ بين يديه أن يحميه من شَرِّهِمْ، فيقول: يا رَبِّ احْمِنَا من شَرِّ السَّحَرَةِ، يا رَبِّ لا تمكنهم من سوءٍ بِقُوَّتِكَ يا قويُّ يا عزيزُ، اللهم اخْذُلْهُمْ.

الأمرُ الثاني: الاعتصامُ بالله عز وجل من خلالِ قراءةِ الأذكارِ التي يَذْكُرُهَا الإنسانُ في جميعِ أوقاتِه، وخصوصًا في الصباحِ والمساءِ؛ فإنها تَعْصِمُ العبدَ.

الأمر الثالث: أن يأكلَ الإنسانُ سبعَ تمراتٍ في أولِ صَبَاحِهِ؛ فإن لها أثرًا في حمايةِ الإنسانِ من السحرِ، فقد قال ﷺ: «**مَنِ اسْتَصْبَحَ عَلَى سَبْعِ تَمَرَاتٍ لم يَضُرَّهُ سِحْرٌ وَلا سُمٌّ حَتَّى يُمْسِيَ**»[1].

الأمر الرابع: الحرصُ على الإكثارِ من قراءةِ كتابِ الله؛ فإن له تأثيرًا عظيمًا في فكِّ السحرِ بعد وقوعه، ومنعه قبل حصوله.

الأمر الخامس: عدم الضعف والخوف منهم، فإنه إذا اعْتَصَمَ المرء بالله، وَقَوِيَتْ نفسُه باللهِ لم يتمكنِ السحرةُ منه، ولم يضروه بشيء بإذن الله، فإن اللهَ قد أَخْبَرَ بأن الساحرَ لن يفلح أبداً بل هو على خسارةٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وقال عز وجل: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧] وبالتالي فإن الساحرَ إلى خسارةٍ.

وإذا نظرَ الإنسانُ إلى حالِ السحرةِ وَجَدَهُمْ يسحرونَ من أجلِ المالِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٣٠) ومسلم (٢٠٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥.

القليلِ، فأين سِحْرُكُمْ؟ لم ينفعكم في استجلابِ هذا المالِ والاستغناءِ به عن الناسِ، وإذا لم ينفعِ الساحرُ نفسَه فكيف ينفعُ غَيْرَهُ، صحيحٌ السِّحْرُ له حقيقةٌ كما هو في ظواهر النصوصِ، لكن لا يعني هذا أنه يُؤَثِّرُ بدونِ قَدَرِ اللهِ، ولا يعني هذا أن السحرَ يؤثرُ في بدنِ مَنْ كان محافظاً على الأذكار الشرعيةَ.

ويتمكن الإنسانُ من فَكِّ السحرِ بالأذكارِ والأَوْرَادِ الشرعيةِ والرُّقَى فلها تأثيرٌ عجيبٌ في ذلك، وهكذا إذا وجد الإنسانُ العُقَدَ التي سُحِرَ فيها فإنه يَفُكُّهَا وَيَحُلُّ هذه العقدَ ويقرأ عليها وبالتالي يزول أثره.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾: أي: أنني يا أيها المؤمنُ أستعيذُ باللهِ رَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، الحسدُ هو تَمَنِّي زوالِ النعمةِ عن الغيرِ، هذا هو الأصلُ في الحسدِ، والحاسدُ على خطرٍ عظيمٍ في دُنْيَاهُ وآخرتِه، وقد وصف اللهُ اليهودَ بأنهم يحسدونَ الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضله، فالحسد ليس من صفاتِ الإيمان، فإن المؤمنَ يستجيب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

ويدخلُ في الحسدِ العينُ فتؤثرُ على الآخرين، فإذا نظرَ الإنسانُ إلى نعمةٍ أو سَمِعَ بها فَتَعَلَّقَ قلبُه بها فَقَدْ يخرج منه حينئذ ما يكون سببًا لزوالِ هذه النعمةِ أو نُقْصَانِها، وعلى مَنْ عَلِمَ من نفسه ذلك أن يَتَحَرَّجَ وأن يذكر

اللهِ في كُلِّ كلمةٍ يقولها، فَيُبَرِّكُ على الأشياءِ ويقول: (مَا شَاءَ اللهُ، تَبَارَكَ اللهُ)[1] ونحو ذلك فإن هذا يزيلُ أثرُ العينِ بإذن الله عز وجل.

ويتمكن العبدُ من الحمايةِ من شَرِّ الْحَسَدَةِ وأهلِ العينِ بعددٍ من الأمورِ منها:

الأمر الأول: الاعتصامُ بالله عز وجل بأنواعِ الأدعيةِ، ومن ذلك هذه السورةُ العظيمةُ سورةُ الفلقِ؛ فإن النبيَّ ﷺ لَمَّا نزلت هذه السورةُ كان يستعيذُ بها، وَتَرَكَ الاستعاذةَ بالألفاظِ الأخرى التي يستعيذُ بها قبلَ ذلك.

الأمرُ الثاني: المحافظة على أَوْرَادِ الصباحِ والمساءِ؛ فإنها تُحَصِّنُ الإنسانَ وَتَقِيهِ شرَّ الحاسدين.

الأمرُ الثالثُ: أن لا يذكرَ الإنسانُ نِعَمَ اللهِ عليه وافيةً أمامَ هؤلاءِ الحسدةِ.

الأمرُ الرابع: أن يأخذَ الإنسانُ من الحاسدِ بعضَ أثرِه فيستحمُّ به أو يغتسلُ وبإذن الله يزولُ أثرُ الحسدِ بالكُلِّيَّةِ[1].

(١) أخرج النسائي في الكبرى ١٠١/٧، وابن ماجه (٥١٣٠) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ ابْنِ حُنَيْفٍ، قَالَ: مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَقَالَ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ، وَلا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ فَمَا لَبِثَ أَنْ لُبِطَ بِهِ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: أَدْرِكْ سَهْلاً صَرِيعًا، قَالَ «**مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ**» قَالُوا: عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ، قَالَ: «**عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ**» ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ، فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، وَرُكْبَتَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِ قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ: وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْفَأَ الإِنَاءَ مِنْ خَلْفِهِ.

فوائد السورة:

في هذه الآيات من الفوائد:

١. إثبات الربوبية لله لكل المخلوقات وأفعالها فلا يحدث فعل إلا بقَدَرِ الله ولا يتصرف مخلوق إلا بقضائه القدري.

٢. أهمية الالتجاء لله والاحتماء به من شر المخلوقات.

٣. أن الشر يكون من المخلوق بقَدَرٍ من الله، والشر قدره الله لما يترتب عليه من الخير من عودة العباد لله واحتمائهم به منه وللوقوف في وجهه ومحاربة المؤمنين له.

٤. التحرز في وقت دخول الليل.

٥. تحريم السحر وذم السحرة.

٦. أن القرآن والرقية الشرعية تقي العبد من السحر قبل وقوعه وترفعه بعد حصوله.

٧. أن فك عقد السحر تزيل أثره بإذن الله.

٨. تحريم الحسد.

٩. أن للرقية الشرعية أثر في وقاية العبد من العين ورفع آثارها.

١٠. أن السحر له حقيقة فيخشى من ضرره؛ وكذا العين.

تفسير سورة النـاس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢
إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤
ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ
ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ ....

موضوع السورة:

سورة الناس سورة مدنية وقيل: مكية، وتسمى مع ما قبلها بالمعوذتين.

ولما اشتملت سورة الفلق على الاستعاذة بالرب تبارك وتعالي من جميع المخلوقات والسحرة جاءت هذه السورة لتدل الناس على الاستعاذة به سبحانه من الشيطان الذي هو أصل كل فتنة وشر، ومن فتنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس، فيحسن لهم الشر، ويدفعهم إلى فعله، ويزهدهم في الخير ويجعلهم يتكاسلون عنه، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ويخنس، فإذا ذكر العبد ربه واستعان به على وساوس الشيطان وشروره أعاذه الله منه وعصمه فلا يجد سبيلاً لإضلاله وغوايته، عصمنا الله وإياكم من شر الشياطين.

وقد وردت فضائل لسورة الناس مقترنة مع سورة الفلق، وقدمنا هناك من هذه الفضائل ما يغني عن إعادته هنا.

معاني الآيات:

قال سبحانه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾: أي: قُلْ يا أيها النبيُّ، وقولوا يا أيها التابعون لهذا النبيِّ؛ مُسْتَعِيذِينَ بالله، قولوا: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾: أي: أَلْتَجِئُ وَأَحْتَمِي بربِّ الناسِ الذي رَبَّاهُمْ وأسبغَ عليهم النعمَ وأعطاهم ثم أعطاهم، فأنت تعتصمُ بالإلهِ المنعمِ المتفضل.

مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ....

قوله عز وجل: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾: أي: الذي يملك جميعَ الكائناتِ ويتصرفُ فيها كيف يشاءُ فالناس وما يملكون لله عز وجل، يتصرف فيهم كيف يشاء.

قوله سبحانه: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾: أي: المعبود الحق للناس، فتوسلتَ إلى الله في دعائِكَ هذا بثلاثِ صفاتٍ لله عز وجل:

أولها: كونُه ربًّا للناسِ مُنْعِمًا مُتَفَضِّلاً.

وثانيها: كونه مَلِكًا للناسِ يتصرفُ فيهم كيفَ يشاءُ.

وثالثها: كونه إلهَ الناسِ أي: مَعْبُودَهُمْ الذي يتقربون إليه بصنوفِ العباداتِ.

فأنتَ الْتَجَأْتَ لله بالتوسلِ بهذه الصفاتِ الثلاثِ العظيمةِ على مطلوبٍ عظيمٍ ألا وهو الحمايةُ من الشيطانِ الرجيمِ، كما جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون: ٩٧ -٩٨].

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾: الوسواسُ الخناسُ هو الشيطانُ الرجيمُ، والمرادُ بالوسواسِ: الذي يوسوسُ في قلوبِ العبادِ فَيُلْقِي فيها أنواعَ الشبهاتِ التي تورث الشك، وَيُلْقِي فيها الخطراتِ والشهوات التي تُبْعِدُ الإنسانَ عن الطاعةِ وَتُرَغِّبُهُ في المعصيةِ.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾: أي: الذي يَنْخَنِسُ وَيَنْقَمِعُ ولا

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ ....

يتمكنُ من الوسوسةِ ؛ وذلك أن العبدَ إذا ذَكَرَ الله خَنِسَ الشيطانُ ولم يتمكن من الوسوسةِ في قلبه ، أما إذا كان العبدُ غَافِلًا عن ذكرِ الله فإن الشيطانَ يوسوسُ في قلبه ويُلْقِي فيه أنواعَ الشبهاتِ والشهوات.

قوله عز وجل : ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ : أي : هذا الوسواسُ هو الذي يُلْقِي الوساوسَ في قلوبِ الناسِ ، فمرةً يوسوس لهم في الطهارةِ ، ومرةً يوسوسُ لهم في الصلاةِ ، ومرةً يوسوس لهم في الطوافِ ، ومرةً يوسوس لهم في الطلاقِ ، ومرةً يوسوس لهم في العقائدِ ، وفي الله عز وجل ، يوسوس لهم في كل شيء.

وهذه الوساوسُ علاجُها بالآتي :

أولاً : إغفالُها وعدمُ الاهتمامِ بها ، وعدمُ الالتفاتِ إليها ، فإنك مَتَى التفتَّ إليها ولو على سبيلِ الردِّ لها فإن هذا يُعَظِّمُ عملَ الشيطانِ فيستمرُّ الشيطان في وسوستِه ، لكنَّ الطريقَ الشرعيَّ ألا تُلْقِيَ لها أي بالٍ ولا تَلْتَفِتَ لها.

ثانياً : الإكثار من الاستعاذةِ بالله من الشيطانِ الرجيمِ : ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون : ٩٧ -٩٨].

ثالثاً : الإكثار من ذكرَ الله عز وجل ؛ فإنَّ الشياطين تَفِرُّ عند ذِكْرِ الله ، ويُكْثِرُ من قراءةِ القرآنِ بِتَدبُّرٍ وَتَمَعُّنٍ وَتَفَكُّرٍ وإيمانٍ ويقينٍ تامٍّ ؛ فإن الشياطين لا تستطيعُ الوسوسةَ كاملةً على قلبِ ابنِ آدمَ حينئذ.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾: ما المرادُ بالناسِ هنا؟

قيل: المرادُ بالناسِ هم بنو آدمَ فقط، وقيل: يشمل بني آدم ويشمل الجنَّ؛ فإن الجنَّ من غيرِ ذريةِ إبليسَ تأتيهم الشياطينُ فتوسوسُ في قلوبهم.

قوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾: (مِنْ) بيَانِيَّةٌ، لكن هل هي بيانٌ للكلمةِ الأخيرةِ (النَّاسِ) فحينئذ نقول: إن الوساوسَ كما تقعُ في قلوبِ بني آدمَ تقعُ عندَ الجن؟

أو نقولُ بأنها بدلٌ من الفاعلِ في قوله: (يُوَسْوِسُ)؟ أي: أن هناك شياطين من شياطينِ الإنسِ وشياطين الجنِّ يوسوسون في قلوبِ العبادِ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فوائد السورة:

في هذه الآيات من الفوائدِ:

١. مشروعيةُ الالتجاءِ لله عز وجل، والاحتماء به من كل شر ومن ذلك شر الشياطين.

٢. مشروعيةُ دعائه جل وعلا بالصفاتِ العظيمةِ اللائقةِ بالحالِ.

٣. الاستعاذةُ من شَرِّ الشيطانِ وأنه عَدُوٌّ مُبِينٌ وَخَطَرٌ شَدِيدٌ على حياةِ العبدِ المؤمنِ.

٤. أن الوساوسَ ليست من الشياطين فقط، بل من الإنس شياطين يوسوسون بالسوء ويلقون بالشبهات ويدعون إلى الشهوات.

٥. شدة عداوة الشيطان للناس وأنه أصل الشرور كلها.

٦. أن الشيطان يوسوس في قلوب بني آدم فيحمل لهم الشر وليريهم إياه بصورة حسنة.

٧. أن الشيطان لا يتمكن من الوسوسة إلا بقدر من الله عن غفلة العبد.

والله تعالى أعلم

وبهذا يكون قد تم تفسير جزء (عمّ) بحمد الله وتوفيقه

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة


9786038190555